

٣١ - ٤٠

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

الطبعة الأولى

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب ١١/٣٧٧١ - هاتف ٤٥٠٦٣٨ - برقياً : اسلاميّاً

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ وَالصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ مُحَمَّدِ بن عَبْدِ اللَّهِ الصَّادِقِ الْوَعْدِ الأَمِينِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمعِينَ وَبَعْد:

فَإِنَّ الدَّوْلَةَ الإِسْلاَمِيَّةَ قَامَتْ عَلَى كَوَاهِلِ أُولَئِكَ الرِّجَالِ مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الَّذِينَ ارْتَضَوْا اللَّهَ رَبّاً، وَمُحَمَّداً نَبِيّاً، والإِسْلاَمَ دِيناً، وآمَنُوا إِيمَاناً رَاسِخاً لاَ تُزَعْزِعُهُ الْجِبَالُ الرَّاسِيَاتُ وَلاَ تُحَرِّكُهُ العَوَاصِفُ الهَائِجَاتُ. لَقَدْ تَرَكُوا كُلَّ مَظَاهِرِ الدُّنْيَا مِنْ جَاهٍ، وَمَنْصِبٍ، وَمَرْكَزٍ، وَشَهْوَةٍ فِي سَبِيلِ عَقِيدَتِهِمْ وَبَاعُوا أَنْفُسَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. وَدَاسُوا عَلَى كُلِّ الوَشَائِجِ وَالأَوَاصِرِ وَالرَّوَابِطِ الَّتِي كَانَتْ مَعْرُوفَةً يَومَذَاكَ سِوَى رَابِطَةِ العَقِيدَةِ، وَوَضَعُوا أَقْدَامَهُمْ فَوْقَ رَابِطَةِ الدَّمِ وَالنَّسَبِ

وَالْقَرَابَةِ وَالمَصْلَحَةِ وَالْجِوَارِ وَحَمَلُوا رَابِطَةَ العَقِيدَةِ وَحْدَهَا وَكَانُوا إِخْوَةً فِيهَا وَلَيْسَ سِوَاهَا شَيْءٌ. وَاسْتَهَانُوا بِكُلِّ مَا فِي دُنْيَا هُمْ مِنْ ظُلْمِ الطُّغَاةِ، وَبَطْشِ الْجَبَابِرَةِ وَاسْتِكْبَارِ المُسْتَبِدِّينَ أَمَامَ وَعْدِ اللَّهِ وَوَعِيدِهِ.

لَقَدْ حَمَلُوا لِوَاءَ دَعْوَتِهِمْ وَانْطَلَقُوا بِفِكْرَتِهِمْ فِي كُلِّ جِهَةٍ لاَ يُبَالُونَ بِمَا يَجِدُونَ أَمَامَهُمْ مِنْ عَقَبَاتٍ، وَلاَ مَا يَعْتَرِضُهُمْ مِنْ صُعُوبَاتٍ، وَلاَ مَا يُلاَقُونَ مِنْ مَوَانِعَ تَقِفُ فِي وَجْهِهِمْ.

لَقَدْ بَاعُوا نُفُوسَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَكَانَتْ لَهُمُ الحَيَاةُ، وَطَلَبُوا المَوْتَ فَكَانَ لَهُمُ النَّصْرُ، وَكَانُوا مِنْ بُنَاةِ الدَّوْلَةِ الَّتِي أَقَامَهَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَعَاشُوا فِي ظِلِّهَا سُعَدَاءَ، وَنَعِمُوا مِنْ خَيْرِهَا، وَجَنَوْا مِمَّا قَدَّمَتْهُ لَهُمْ مِنَ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَالْمُسَاوَاةِ وَالْأَمْنِ وَالطُّمَأْنِينَةِ وَالْحُرِّيَّةِ، وَمَنْ قَضَى نَحْبَهُ مِنْهُمْ ظَفِرَ بِالشَّهَادَةِ، وَنَالَ الْجَنَّةَ فَسَبَقَ إِخْوَانَهُ إِلَيْهَا.

حَمَلُوا ذَلِكَ إِلَى الْعَالَمِ فَمَنْ قَبِلَ ذَلِكَ عَاشَ فِي هَنَاءٍ وَمَنْ رَفَضَ وَأَصَرَّ عَلَى كُفْرِهِ بَقِيَ بَائِساً تَعِيساً يَتَخَبَّطُ فِي الأَوْهَامِ وَيَحْيَا شَعْبُهُ فِي الظُّلْمِ، لاَ يَعْرِفُ الرَّاحَةَ وَلَمْ يَذُقْ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ، وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ وَيَتَبَرَّأُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مِنَ الآخَرِ. ﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ المُعْتَبِينَ﴾.

وَلْنَرَى نَمَاذِجَ مِنْ بُنَاةِ دَوْلَةِ الإِسْلاَمِ الَّذِينَ سَمَوْا فَوْقَ الـدُّنْيَا وَمَتَاعِهَا وَزُخْرُفِهَا وَنَظَرُوا إِلَيْهَا مِنْ أَعْلَى فَوَجَدُوهَا حُطَامـاً وَرَأَوْا أَنْفُسَهُمْ فِي السَّعَادَةِ يَرْفُلُونَ أُولَئِكَ الَّذِين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

بُنَاة دَوْلَـةِ الإسْلام

٣١

مُصْعَبُ بن عُمَيْرٍ

رضي الله عنه

هُوَ مُصْعَبُ بنُ عُمَيْرِ بنِ هَاشِمِ بنِ عَبْدِ مَنَافِ بنِ عَبْدِ الدَّارِ بنِ قُصَيٍّ بنِ كِلاَبٍ، يَلْتَقِي مَعَ رَسُولِ اللَّـهِ، صَلَّـى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي الجَدِّ الخَامِسِ.

قُصَيٌّ بنُ كِلاَب

عَبْدُ مَنَافٍ	عَبْدُ الدَّارِ
هَاشِمُ	عَبْدُ مَنَافٍ
عَبْدُ المُطَّلِبِ	هَاشِمُ
عَبْدُ اللَّهِ	عُمَيْرٌ
مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ	مُصْعَبُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

وُلِدَ مُصْعَبُ فِي السَّنَةِ الثَّامِنَةِ والثَّلاَثِينَ قَبْلَ الْهِجْرَةِ فَهُوَ أَصْغَرُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِخَمْسَةَ عَشَرَ عَاماً.

نَشَأَ مُصْعَبٌ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي أُسْرَةٍ وَرِثَتِ الْمَجْدَ وَالْمَرْكَزَ

لَيْسَ فِي قُرَيْشٍ فَحَسْبُ وَإِنَّمَا بَيْنَ الْعَرَبِ عَامَّةً، إِذْ كَانَتْ بِيَدِهَا - فِي أَوَّلِ الأَمْرِ - السِّقَايَةُ[1]، وَالْحِجَابَةُ[2]، وَالرِّفَادَةُ[3]، وَاللِّوَاءُ[4] إِضَافَةً إِلَى دَارِ النَّدْوَةِ[5]، وَذَلِكَ أَنَّ قُصَيَّ بنَ كِلاَبٍ لَمَّا كَبُرَ وَرَقَّ عَظْمُهُ، وَكَانَ عَبْدُ الدَّارِ بِكْرَهُ، وَكَانَ عَبْدُ مَنَافٍ قَدْ شَرُفَ فِي زَمَانِ أَبِيهِ وَذَهَبَ كُلَّ مَذْهَبٍ، قَالَ قُصَيٌّ لِعَبْدِ الدَّارِ: أَمَا وَاللَّهِ يَا بُنَيَّ لأُلْحِقَنَّكَ بِالْقَوْمِ وَإِنْ كَانُوا قَدْ شَرُفُوا عَلَيْكَ: لاَ يَدْخُلُ رَجُلٌ مِنْهُمُ الْكَعْبَةَ حَتَّى تَكُونَ أَنْتَ تَفْتَحُهَا لَهُ، وَلاَ يَعْقِدُ لِقُرَيْشٍ لِوَاءً لِحَرْبِهَا إِلاَّ أَنْتَ بِيَدِكَ، وَلاَ يَشْرَبُ أَحَدٌ بِمكَّةَ إِلاَّ سِقَايَتَكَ، وَلاَ يَأْكُلُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْمَوْسِمِ طَعَاماً إِلاَّ مِنْ طَعَامِكَ، وَلاَ تَقْطَعُ قُرَيْشٌ أَمْراً مِنْ أُمُورِهَا إِلاَّ فِي دَارِكَ. فَأَعْطَاهُ دَارَهُ (دَارَ النَّدْوَةِ) الَّتِي لاَ تَقْضِي قُرَيْشٌ أَمْراً مِنْ أُمُورِهَا إِلاَّ فِيهَا، وَأَعْطَاهُ الْحِجَابَةَ وَاللِّوَاءَ وَالسِّقَايَةَ وَالرِّفَادَةَ.

وَكَانَت الرِّفَادَةُ خَرْجاً تُخْرِجُهُ قُرَيْشٌ فِي كُلِّ مَوْسِمٍ مِنْ أَمْوَالِهَا

---

(١) السقاية: يعني سقاية زمزم، وكانوا يصنعون بها شراباً في الموسم للحاج الذي يوافي مكة، ويمزجونه تارةً بعسل، وتارةً بلبن، وتارةً بنبيذ، يتطوعون بذلك من عند أنفسهم.

(٢) الحجابة: أن تكون مفاتيح البيت عنده فلا يدخله أحد إلا بإذنه.

(٣) الرفادة: إطعام الحجيج في الموسم.

(٤) اللواء: اللواء الذي يحمل في الحرب، ويحمله الذي يتقدّم القوم، ويكون ممن عرفوا بالشجاعة والصبر والثبات.

(٥) دار الندوة: الدار التي يلتقي فيها القوم للمشورة والرأي.

إِلىَ قُصَيٍّ بن كِلاَبٍ، فيصنَعُ بِهِ طَعَاماً لِلْحَاجِّ، فيأكُلُهُ مَنْ لَمْ يكُنْ لَهُ سعَةٌ ولاَ زَادٌ. وذَلِكَ أنَّ قُصيَّاً فَرَضَهُ علَى قُرَيْشٍ، فقَالَ لَهُم حِينَ أَمَرَهُمْ بِهِ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إنَّكُمْ جِيرَانُ اللَّهِ وأَهْلُ بَيْتِهِ وأَهْلُ الحَرَمِ، وَإنَّ الحَاجَّ ضَيْفُ اللَّهِ وزُوَّارُ بَيْتِهِ، وَهُمْ أَحَقُّ الضَّيْفِ بِالْكَرَامَةِ، فَاجْعَلُوا لَهُمْ طَعَاماً وَشَرَاباً أَيَّامَ الحَجِّ، حَتَّى يَصْدُرُوا عنكم». فَفَعَلُوا. فكَانُوا يُخْرِجُونَ لِذَلِكَ كُلَّ عَامٍ مِنْ أَمْوَالِهِمْ خَرْجاً فَيَدْفَعُونَهُ إِلَيْهِ، فَيَصْنَعُهُ طَعَاماً لِلنَّاسِ أَيَّامَ مِنَى. فَجَرَى ذَلِكَ مِنْ أَمْرِهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ عَلَى قَوْمِهِ حَتَّى قَامَ الإِسْلاَمُ، ثُمَّ جَرَى فِي الإِسْلاَمِ، وَهُوَ الطَّعَامُ الَّذِي يَصْنَعُهُ مَنْ بِيَدِهِ أَمْرُ الأَمَاكِنِ المُقَدَّسَةِ كُلَّ عَامٍ بِمِنَى لِلنَّاسِ حَتَّى يَنْقَضِيَ الحَجُّ. وَكَانَ قُصَيٌّ لاَ يُخَالَفُ، وَلاَ يُرَدُّ عَلَيْهِ شَيءٌ صَنَعَهُ.

وَبَعْدَ أَنْ هَلَكَ قُصَيٌّ، وَقَامَ عَبْدُ الدَّارِ بِمَا عَهِدَ إِلَيْهِ أَبُوهُ، وَقَامَ أَوْلاَدُهُ مِنْ بَعْدِهِ، ثُمَّ إِنَّ بَنِي عَبْدِ مَنَافِ بن قُصَيٍّ: عَبْدَ شَمْسٍ وَهَاشِماً وَالْمُطَّلِبَ وَنَوْفَلاً أَجْمَعُوا عَلَى أَنْ يَأْخُذُوا مَا بِأَيْدِي بَنِي عَبْدِ الدَّارِ بن قُصَيٍّ مِمَّا كَانَ قُصَيٌّ جَعَلَ إِلَى عَبْدِ الدَّارِ مِنَ الْحِجَابَةِ واللِّوَاءِ والسِّقَايَةِ وَالرِّفَادَةِ، وَرَأَوْا أَنَّهُمْ أَوْلَى بِذَلِكَ مِنْهُمْ لِشَرَفِهِمْ عَلَيْهِمْ وَفَضْلِهِمْ فِي قَوْمِهِمْ. فَتَفَرَّقَتْ عِنْدَ ذَلِكَ قُرَيْشٌ، فَكَانَتْ طَائِفَةٌ مَعَ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ عَلَى رَأْيِهِمْ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ أَحَقُّ بِهِ مِنْ

بَنِي عَبْدِ الدَّارِ، وَكَانَتْ طَائِفَةٌ مَعَ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ يَرَوْنَ أَنْ لاَ يُنْزَعُ مِنْهُمْ مَا كَانَ قُصَيٌّ جَعَلَ إِلَيْهِمْ. وَكَادَتْ الْحَرْبُ تَقَعُ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ، ثُمَّ تَداعَوْا إِلَى الصُّلْحِ عَلَى أَنْ يُعْطُوا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ السِّقَايَةَ والرِّفَادَةَ(١)، وأَنْ تَكُونَ الحِجَابَةُ وَاللِّوَاءُ وَالنَّدْوَةُ لِبَنِي عَبْدِ الدَّارِ كَمَا كَانَتْ. فَفَعَلُوا وَرَضِيَ كُلٌّ وَاحِدٍ مِنَ الفَرِيقَيْنِ بِذَلِكَ وَتَحَاجَزَ النَّاسُ عَنِ الحَرْبِ.

---

(١) تسلّم عبد شمس السقاية والرفادة إذ كان أكبر أولاد عبد مناف، ثم تولاّها عنه أخوه هاشم وذلك لأن عبد شمس كان رجلاً سفّاراً قلّما يقيم في مكة، وكان مُقلاً ذا ولد، وكان هاشم موسراً، ويستعين بقريش على إطعام الحاج، وأصابته وأصابت قومه أزمة اقتصادية شديدة، وكره أن يكلّف قريشاً أمر الرفادة، فسافر إلى الشام بجميع ماله فاشترى به جميعه كعكاً، ثم أتى الموسم، فهشم ذلك الكعك كله، ودقّه وصنع منه للحاج طعاماً يُشبه الثريد. ثم آل أمر السقاية والرفادة إلى المطلب بن عبد مناف،وآلت بعده إلى ابن أخيه عبد المطلب، ثم آلت السقاية إلى العباس أحدث أبناء عبد المطلب سناً، وبقيت بيده حتى جاء الإسلام فأقره رسول الله، صلى الله عليه وسلم، عليها.

أما الحجابة فبقيت بيد بني عبد الدار حتى فتح مكة، فدفع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، المفتاح إلى عمّه العباس، فنزلت الآية: ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾ فأخذ الرسول الكريم المفتاح من العباس وأعطاه إلى عثمان بن طلحة الذي أسلم بعد الفتح.

وأما دار الندوة فبقيت بيد بني عبد الدار حتى اشتراها معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنهما، من عكرمة بن عامر بن هاشم وجعلها داراً للإمارة.

وأما اللواء فقد أبطله الإسلام.

أُسْرَةُ مُصْعَبٍ

أُمُّ مُصْعَبٍ هِيَ خُنَاسُ بِنْتُ مَالِكِ بنِ المُضَرِّبِ بنِ وَهَبٍ مِنْ بَنِي عَامِرِ بنِ لؤيٍّ، وكَانَتْ ذَاتَ مَالٍ مَوْفُورٍ وثَرَاءٍ مَعْرُوفٍ، تَكْسُو ابْنَهَا مُصْعَباً أَحْسَنَ مَا يَكُونُ مِنَ الثِّيَابِ وأَرَقَّهُ، فَكَانَ أَعْطَرَ أَهْلِ مَكَّةَ، يَلْبِسُ الْحَضْرَمِيَّ مِنَ النِّعَالِ، فَهُوَ أَكْثَرُ فِتْيَانِ مَكَّةَ شَبَاباً وجَمَالاً وَسَبِيباً[1]. وكَانَ أَبَوَاهُ يُحِبَّانِهِ كَثِيراً. وَعِنْدَمَا يَذْكُرُهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ، يَقُولُ: مَا رَأَيْتُ بِمَكَّةَ أَحْسَنَ لِمَّةً[2] وَلاَ أَرَقَّ حُلَّةً وَلاَ أَنْعَمَ نِعْمَةً مِنْ مُصْعَبِ بنِ عُمَيْرٍ.

وكَانَ لِمُصْعَبٍ أَخٌ شَقِيقٌ يُكَنَّى أَبَا عَزِيزٍ واسْمُهُ زُرَارَةُ بنُ عُمَيْرٍ، وتَأَخَّرَ إِسْلاَمُهُ، وشَهِدَ بَدْراً مَعَ المُشْرِكِينَ، ووَقَعَ يَوْمَئِذٍ أَسِيراً[3].

---

(١) السبيب: شعر مقدمة الرأس التي هي الناصية.

(٢) اللّمة: دون الجمة وهي التي يلم شعرها بالمنكبين.

(٣) فرّق رسول اللّه، صلى الله عليه وسلم، الاسارى حين أقبل بهم إلى المدينة، فيقول أبو عزيز: مرّبي أخي مصعب بن عمير، ورجل من الأنصار يأسرني، فقال: شدّ يديك به، فإن أمه ذات متاع، لعلّها أن تفتديه منك. قال أبو عزيز: وكنت في رهطٍ من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر، فكانوا إذا قدّموا غداءهم وعشاءهم خصّوني بالخبز، وأكلوا التمر لوصية رسول الله، صلى الله علية وسلم، إياهم بنا، ما تقع في يد رجل منهم كسرة من الخبز إلا نفحني بها، قال: فأستحي فأردهم على أحدهم فيردّها عليّ ما يمسّها.
وسألت أمه عن أكبر فداء كان فقيل لها: أربعة آلاف درهم. فأرسلت ذلك وافتدت ابنها أبا عزيز.

وَلَهُ أَخٌ آخرُ لأَبِيهِ هُوَ أَبُو الرُّومِ بنُ عُمَيْرٍ، وكَانَ قَدِيمَ الإسْلاَمِ، وَهَاجَرَ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ فِي الْهِجْرَةِ الثَّانِيَةِ، وانْتَقَلَ إِلَى المَدِينَةِ مُهَاجِراً بَعْدَ بَدْرٍ، وَشَهِدَ أُحُداً، وأُمُّهُ رُومِيَّةٌ، وتُوفِّي ولَيْسَ لَهُ عَقْبٌ.

ولَهُ أُخْتٌ شَقِيقَةٌ هِيَ هِنْدُ بِنْتُ عُمَيْرٍ تَزَوَّجَهَا عُثْمَانُ بنُ طَلْحَةَ أَحَدُ رِجَالاَتِ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ، وأَنْجَبَتْ لَهُ شَيْبَةَ الَّذِي آلَتْ إِلَيْهِ حِجَابَةُ الْبَيْتِ.

تَزَوَّجَ مُصْعَبُ بنُ عُمَيْرٍ حَمْنَةَ بِنْتَ جَحْشٍ، ابْنَةَ عَمَّةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أُمَيْمَةَ بِنْتِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، وَهِيَ أُخْتُ أُمِّ المُؤْمِنِينَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ، كَانَتْ حَمْنَةُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، مَعَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بِن عَوْفٍ، ولَمْ تُنْجِبْ، فَتَرَكَهَا وتَزَوَّجَهَا مُصْعَبُ بنُ عُمَيْرٍ، فَأَنْجَبَتْ لَهُ بِنْتاً اسْمُهَا زَيْنَبُ بِنْتُ مُصْعَبٍ، تَزَوَّجَهَا عَبْدُ اللَّهِ بنُ عَبْدِ اللَّهِ بنِ أَبِي أُمَيَّةَ بنِ المُغِيرَةِ المَخْزُومِيُّ. وَبَعْدَ أَنِ اسْتُشْهِدَ مُصْعَبٌ فِي أُحُدٍ تَزَوَّجَتْ حَمْنَةُ مِنْ طَلْحَةَ بنِ عُبَيْدِ اللَّهِ التَّيْمِيِّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأَنْجَبَتْ لَهُ مُحَمَّداً (السَّجَّادَ) وعُمْرَانَ.

إِسْلاَمُ مُصْعَبٍ

بَلَغَ مُصْعَبَاً أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَدْعُو إِلَى

الإِسْلاَمِ فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ، وَدَخلَ دَارَ الأَرْقَمِ بنِ أَبِي الأَرْقَمِ، فَسِمِعَ مِنْ رَسُـولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَصَدَّقَهُ، وأَسْلَمَ، وكَتَمَ إِسْلاَمَهُ عَنْ أَهْلِهِ إِذْ كَانَتِ الدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ لاَ تَزَالُ فِي دَوْرِ الْمَرْحَلَةِ السِّرِّيَةِ، وَعَافَتْ نَفْسُـهُ مَا كَانَ عَلَـيْهِ مِـنْ نَعيمٍ فتَـركَهُ، واتَّجَـهَ بِحَوَاسِّهِ كُلِّهَا وَجَوَارِحِهِ جَمِيعِهَا إِلَى مَا آمَنَ بِهِ. وَكَانَ يَخْتَلِفُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سِرّاً خَوْفاً مِنْ أُمِّهِ وَقَوْمِهِ.

رَأَى عُثْمَانُ بنُ طَلْحَةَ أَحَدُ رِجَالِ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ مُصْعَبَاً يُصَلِّي فَأَخْبَرَ أُمَّهُ وَقَوْمَهُ فَحَبَسُوهُ، غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يُبَالِ بِالسِّجْنِ وَرُبَّمَـا زَادَهُ ذَلِكَ تَمَسُّكاً بِمَا آمَنَ بِهِ، وَعَدَّ ذَلِكَ الحَبْسَ خَلْوَةً يَتَأَمَّلُ فِيهَـا مَا سَمِعَ، وَيَحْفَظُ مَا تَلَقَّى، وَيُفَكِّرُ بِمَا هُوَ عَلَيْهِ قَوْمُـهُ مِنَ الْجَهَالَـةِ وَالضَّلاَلَةِ وَمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ الْبَيِّنِ وَالنُّورِ الوَاضِحِ، وَيَحْمَدُ اللَّهَ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِمَّا عَلَيْهِ قَوْمُهُ، وَاسْتَمَرَّ ذَلِكَ حَتَّى كَانَتِ الْهِجْرَةُ إِلَى الْحَبَشَةِ.

الْهِجْرَةُ إِلَى الْحَبَشَةِ

عَانَى مُصْعَبٌ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الكَثِيرَ فِي الْحَبْسِ، وَهُوَ الْفَتَى الَّذِي عَاشَ مُرَفَّهاً لَمْ يَتَعَوَّدْ عَلَى الْخُشُونَةِ وَشَظَفِ العَيْشِ، وَلَمْ يَتَعَوَّدِ الإِهَانَةَ وَالْقَسْوَةَ فِي الْكَلاَمِ غَيْرَ أَنَّهُ تَحَمَّلَ فِي سَبِيلِ عَقِيدَتِهِ وَاسْتَسْهَلَ الصَّعْبَ وَتَمَرَّسَ عَلَى تَذَوُّقِ الْمُرِّ، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ خَشِيَ

أَنْ يُفْتَنَ فَمَا أَنْ أَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلَى أَصْحَابِهِ بِالْهِجْرَةِ إِلَى الْحَبَشَةِ كَيْ يَتَخَلَّصُوا مِمَّا يُعَانُونَ مِنَ الْبَلاءِ حَيْثُ لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْنَعَهُمْ بَيْنَمَا يَعِيشُ هُوَ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِعَافِيَةٍ لِمكَانِهِ مِنَ اللَّهِ، وَلِمكَانَةِ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ مِنْ قُرَيْشٍ، وَهُوَ يَحْرَصُ عَلَيْهِ، وَيَعْمَلُ عَلَى حِمَايَتِهِ، فَمَا أَنْ أَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الهِجْرَةِ حَتَّى تَفَلَّتَ مُصْعَبٌ مِنْ حَبْسِهِ وَانْخَرَطَ فِي قَافِلَةِ المُهَاجِرِينَ الأُولَى. وَكَانَ فِي الحَبَشَةِ مَلِكٌ رَحِيمٌ لاَ يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ، فَهُنَاكَ يُمْكِنُ أَنْ يُقِيمَ المُسْلِمُونَ عِبَادَتَهُمْ دُونَ خَوْفٍ، وَفِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ يَكُونُوا قَدْ نَجَوْا مِنَ الْعَذَابِ وَمِنَ الإِهَانَةِ، وَفَرُّوا بِدِينِهِمْ خَشْيَةَ الْفِتْنَةِ، وَيَقْتَرِبُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ فِي الْغُرْبَةِ، وَيَشْعُرُونَ بِالأُخُوَّةِ الحَقِيقِيَّةِ وَيُمَارِسُونَ وَاقِعَهَا وَيَعِيشُونَ مَعَانِيَهَا فَتَحيَا فِي نُفُوسِهِمْ، وَتَتَرَسَّخُ فِي أَفْئِدَتِهِمْ، وَرُبَّمَا كَانَ فِي الْهِجْرَةِ إِثَارَةً لِعَاطِفَةِ البُنُوَّةِ وَالْقَرَابَةِ فَيُخَفِّفُ ذَلِكَ مِنْ ضَغْطِ الْجَاهِلِيينَ عَلَى ذَوِيهِمْ الَّذِينَ أَسْلَمُوا مِنَ الَّذِينَ بَقُوا فِي دِيَارِهِمْ، وَيُثِيرُ حَنِينَ وَشُجُونَ الَّذِينَ هَاجَرَ أَبْنَاؤُهُمْ فَيَتَمَنَّوْنَ عَوْدَتَهُمْ، وَإِذَا عَادُوا أَقْلَعُوا عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَهُ بِهِمْ، بَلْ وَرُبَّمَا كَانَتْ هَذِهِ العَاطِفَةُ سَبَبَاً فِي تَقْرِيبِ الْجَاهِلِيينَ نَحْوَ الإِسْلاَمِ أَو تَلْيِينِ قُلُوبِهِمْ .

وَصَلَتِ القَافِلَةُ الْمُسْلِمَةُ الأُولَى المُهَاجِرَةُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَى

الحَبَشَـةِ، وَعَاشَـتْ هُنَـاكَ آمِنَـةً مُطْمَئِنَـةً بَعِيدَةً عَنْ ظُلْـمِ ذَوِي الْقُرْبَى، مُقِيمَةً لِعَبَادَاتِهَا، غَيْرَ أَنَّ حَيَاتَهَا فِي مُجْتَمَعٍ غَرِيبٍ كَانَ يُقْلِقُهَا وَخَاصَّةً أَنَّ عَدَدَهَا مَحْدُودٌ لاَ يَزِيدُ عَلَى ثَلاَثَةٍ وَثَمَانِينَ رَجُلاً وَلَيْسَ مَعَ بَعْضِهِمْ أَهْلُهُ بَلْ قِلَّةٌ أُولَئِكَ الَّـذِينَ هَاجَـرَتْ نِسَاؤُهُـمْ مَعَهُمْ، هَذَا إِضَافَةً إِلَى نَظَرَاتِ الرِّيبَةِ مِنْ بَعْضِ أُولَئِكَ الْمُتَعَصِّبِينَ لِنَصْرَانِيَّتِهِمْ دُونَ مَعْرِفَةٍ بِدِينِ هَؤُلاَءِ الْمُهَاجِرِينَ إِلَيْهِـمْ وَمِـنْ غَيْرِ رَغْبَةٍ فِي الْمَعْرِفَةِ. وَيَزِيدُ فِي الْغُرْبَةِ عَدَمُ الْعِلْمِ بِلُغَةِ الأَحْبَاشِ، وَيَجِبُ أَلاَّ نَنْسَى شَوْقَهُمْ لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّـمَ، وَرَغْبَتَهُمْ فِي صُحْبَتِهِ وَالتَّلَقِّي مِنْهُ وَالإِفَادَةِ مِنْ تَوْجِيهَاتِهِ، وَأَخْذِ مَا يَأْتِي بِهِ الْوَحْيُ، لِذَا ظَهَرَتْ عِنْدَ بَعْضِهِمْ رَغْبَـةٌ فِي الْعَـوْدَةِ إِلَـى مَرَابِعِهِمْ الأُولَى فِي مَكَّةَ. وَسَرَتْ شَائِعَـةٌ أَنَّ أَهْـلَ أُمِّ الْقُـرَى قَدْ وَافَقُوا رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَفُّوا عَنْ أَذَاهُـمْ، وَمَالُوا إِلَى الإِسْلاَمِ، وَمَا أَنِ انْتَشَرَ الْخَبَرُ حَتَّى رَجَعَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ إِلَى مَكَّةَ ثَلاَثَةٌ وَثَلاَثُونَ مُهَاجِراً كَانَ مُصْعَبٌ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مِنْ بَيْنِهِمْ.

العَوْدَةُ إِلَى مَكَّةَ

عِنْدَمَا وَصَلَ الْعَائِدُونَ إِلَى مَكَّةَ عَرَفُوا أَنَّ كُلَّ مَا أُشِيعَ لَمْ يَكُنْ صَحِيحاً إِذْ لاَ تَزَالُ قُرَيْشٌ فِي طُغْيَانِهَا وَجَبَرُوتِهَا، وَلَـمْ

يَزَلْ سَادَتُهَا فِي غَيِّهِمْ وَعُتُوِّهِمْ، وَلَمْ يَزَلْ كُبَرَاؤُهَا فِي ظُلْمِهِمْ وَبَغْيِهِمْ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ مِنَ العَائِدِينَ إِلَى بَلَدِهِمْ مِنْ دُخُولِهَا إِلاَّ سِرّاً أَوْ بِجِوَارٍ، وَقَدْ دَخَلَ مُصْعَبٌ بِجِوَارِ النَّضْرِ بنِ الحَارِثِ بنِ كَلْدَةَ، وَقِيلَ بِجِوَارِ أَخِيهِ أَبِي عَزِيزِ بنِ عُمَيْرٍ.

رَجَعَ مُصْعَبٌ مِنَ الْحَبَشَةِ مُتَغَيِّرَ الحَالِ، قَدْ خَشُنَتْ يَدَاهُ بَعْدَ نُعُومَةٍ، وَأُدْمِيَتْ قَدَمَاهُ بَعْدَ عِزٍّ، وَشَحُبَ وَجْهُهُ بَعْدَ نَضَارَةٍ، وَهَزُلَ جِسْمُهُ بَعْدَ نَعِيمٍ، وَرَثَّتْ ثِيَابُهُ مَعَ الزَّمَنِ فَرَثَتْ أُمُّهُ لِحَالِهِ، وَكَفَّتْ عَنْهُ مِنَ العَذْلِ.

وَأَكْثَرَ مُصْعَبٌ مِنَ اللِّقَاءِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَانَ يَتَعَلَّمُ وَيُطَبِّقُ مَا يَتَلَقَّى وَيَجْتَهِدُ حَتَّى غَدَا أُنْمُوذَجاً لِصَحَابَةِ النَّبِيِّ الكَرِيمِ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلاةِ وَالسَّلاَمِ.

وَمَرَّتْ سَنَوَاتٌ سِتٌّ عَلَى مُصْعَبٍ فِي مَكَّةَ مُنْذُ عَادَ مِنَ الْحَبَشَةِ عَاشَ فِيهَا كُلَّ مَا مَرَّ عَلَى الدَّعْوَةِ مِنْ مِحَنٍ، وَشَاهَدَ كُلَّ مَا نَالَهُ إِخْوَانُهُ مِنْ عَذَابٍ، لِذَا كَانَتِ الدَّعْوَةُ تَعِيشُ مَعَهُ فِي كُلِّ جَوَارِحِهِ وَتَبْدُو عَلَيْهِ فِي كُلِّ تَصَرُّفَاتِهِ.

فِي الْمَدِينَةِ

بَعْدَ أَنْ زَادَ عَدَدُ المُسْلِمِينَ فِي مَكَّةَ وَثَبَتُوا أَمَامَ المِحَنِ

القَاسِيَةِ وَوَقَفُوا فِي وَجْهِ الرِّيحِ العَاتِيَةِ وَأَصْبَحُوا نَوَاةً يُمْكِنُ الاعْتِمَادُ عَلَيْهَا لإِقَامَةِ دَوْلَةِ الإِسْلاَمِ أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَبْحَثُ عَنِ المَكَانِ المُنَاسِبِ لِتَأْسِيسِ تِلْكَ الدَّوْلَةِ فَاتَّجَهَ إِلَى الطَّائِفِ، فَلَمْ يَشَأِ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ قَاعِدَةَ الدَّوْلَةِ، وَرُدَّ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رَدّاً غَيْرَ طَيِّبٍ، وَكَانَ يَعرِضُ نَفْسَهُ عَلَى القَبَائِلِ فِي المَوْسِمِ عَسَى أَنْ تَتَبَنَّى إِحْدَاهَا العَمَلَ لِلإِسْلاَمِ، فَلَمْ يُرِدِ اللَّهُ ذَلِكَ، فَكَانَ قَوْمُهُ يَحُولُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ القَبَائِلِ الَّتِي لَمْ تُشْرَحْ صُدُورُ رُؤَسَائِهَا لِلإِسْلاَمِ آنَذَاكَ.

وَفِي العَامِ الحَادِي عَشَرَ مِنَ البِعْثَةِ التَقَى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِنَفَرٍ مِنَ الأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ أَثْنَاءَ المَوْسِمِ بِالعَقَبَةِ فَتَلاَ عَلَيْهِمُ القُرْآنَ، وَسَمِعُوا مِنْهُ، وَاسْتَجَابُوا لَهُ، وَقَبِلُوا دَعْوَتَهُ، وَبَايَعُوهُ عَلَى العَمَلِ، وَكَانَ عَدَدُهُمْ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلاً، ثُمَّ انْصَرَفُوا وَرَجَعُوا إِلَى مَدِينَتِهِمْ فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ فَشَا الإِسْلاَمُ فِي دُورِ الأَنْصَارِ، فَأَرْسَلُوا رَجُلاً إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَتَبُوا إِلَيْهِ كِتَاباً: ابْعَثْ إِلَيْنَا رَجُلاً يُفَقِّهُنَا فِي الدِّينِ وَيُقْرِئُنَا القُرْآنَ. فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مُصْعَبَ بنَ عُمَيْرٍ، فَلَمَّا قَدِمَ

المدِينة نَزَلَ عَلى أسْعَدِ بن زُرَارَةَ، وَكَان يَأْتِي الأَنْصَارَ فِي دُورِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ فَيَدْعُوهُمْ إلى الإِسْلاَمِ وَيُقْرِئُهُمُ القُرْآنَ فَيُسْلِمُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلاَنِ حَتَّى ظَهَرَ الإِسْلاَمُ وَفَشَا فِي دُورِ الأَنْصَارِ كُلِّهَا وَالْعَوَالِي إلاَّ دُوراً مِنْ أَوْسِ اللَّهِ، وَهِيَ: خُطْمَةُ وَوَائِلُ وَوَاقِفُ. وَكَانَ مُصْعَبُ يُقْرِئُهُمُ القُرْآنَ وَيُعَلِّمُهُمْ، ثُمَّ كَتَبَ إلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَسْتَأْذِنُهُ أَنْ يُجَمِّعَ بِهِمْ، فَأَذِنَ لَهُ وَكَتَبَ إلَيْهِ: انْظُرْ مِنَ اليَوْمِ الَّذِي يَجْهَرُ فِيْهِ اليَهُودُ لِسَبْتِهِمْ فَإِذَا زَالَتِ الشَّمْسُ فَازْدَلِفْ إلَى اللَّهِ فِيْهِ بِرَكْعَتَيْنِ وَاخْطُبْ فِيهِمْ. فَجَمَّعَ بِهِمْ مُصْعَبُ بنُ عُمَيْرٍ فِي دَارِ سَعْدِ بن خَيْثَمَةَ، وَهُمْ اثْنَا عَشَرَ رَجُلاً، وَمَا ذَبَحَ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ إلاَّ شَاةً، فَهُوَ أَوَّلُ مَنْ جَمَّعَ فِي الإِسْلاَمِ جُمُعَةً.

وَكَانَ حَلِيمَاً هَادِئَاً فِي دَعْوَةِ القَوْمِ حَكِيمَاً فِي سُلُوكِهِ وَتَصَرُّفِهِ، فَخَرَجَ بِهِ يَوْمَاً أَسْعَدُ بنُ زُرَارَةَ يُرِيدُ دَارَ بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ وَدَارَ بَنِي ظَفَرٍ وَكِلاَهُمَا مِنَ الأَوْسِ. فَدَخَلَ بِهِ حَائِطَاً مِنْ حَوَائِطِ دَارِ بَنِي ظَفَرٍ، فَجَلَسَا، وَاجْتَمَعَ إلَيْهِمَا رِجَالٌ مِمَّنْ أَسْلَمَ، وَسَعْدُ بنُ مُعَاذٍ وَأُسَيدُ بنُ حُضَيْرٍ، يَوْمَئِذٍ سَيِّدَا قَوْمِهِمَا مِنْ بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ، وَكِلاَهُمَا عَلَى دِينِ قَوْمِهِ، فَلَمَّا سَمِعَا بِهِ قَالَ سَعْدُ بنُ مُعَاذٍ لأُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ: لاَ أَبَا

لَكَ، ٱنْطَلِقْ إِلَىٰ هٰذَيْنِ ٱلـرَّجُلَيْنِ ٱللَّـذَيْن قَدْ أَتَيَا دَارَيْنَـا، لِيُسَفِّهَا ضُعَفَاءَنَا، فَـٱزْجُرْهُمَا وَٱنْهَهُمَا عَنْ أَنْ يَأْتِيَا دَارَيْنَـا، فَإِنَّهُ لَوْلاَ أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ مِنِّي حَيْثُ عَلِمْتُ، كَفَيْتُكَ ذٰلِكَ، هُوَ ابْنُ خَالَتِي، وَلاَ أَجِـدُ عَلَيْهِ مَقْدَمـاً، فَأَخَـذَ أُسَيْدُ بْـنُ حُضَيْرٍ حَرْبَتَهُ، ثُمَّ أَقْبَـلَ إِلَيْهِمَـا، فَلَمَّـا رَآهُ أَسْعَـدُ بْـنُ زُرَارَةَ قَالَ لِمُصْعَبٍ إِنْ جَلَسَ فَكَلِّمْهُ، فَوَقَفَ عَلَيْهِمَا مُتَشَتِّماً، فَقَالَ: مَا جَاءَ بِكُمَا إِلَيْنَا تُسَفِّهَان ضُعَفَاءَنَا؟ ٱعْتَزِلاَنَـا إِنْ كَانَـتْ لَكُمَـا بِأَنْفُسِكُمَا حَاجَةٌ، فَقَـالَ لَهُ مُصْعَـبٌ: أَوَ تَجْلِسُ فَتَسْمَـعَ فَإِنْ رَضِيتَ أَمْـراً قَبِلْتَـهُ، وَإِنْ كَرِهْتَـهُ كُفَّ عَنْـكَ مَا تَكْرَهُ؟ قَالَ: أَنْصَفْـتَ، ثُمَّ رَكَزَ حَرْبَتَـهُ وَجَلَسَ إِلَيْهِمَـا فَكَلَّمَـهُ مُصْعَـبٌ بِـٱلإِسْلاَمِ، وَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ، فَقَالاَ فِي نَفْسَيْهِمَا: وَٱللَّهِ لَقَدْ عَرَفْنَا فِي وَجْهِهِ ٱلإِسْلاَمَ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ فِي إِشْرَاقِهِ وَتَسَهُّلِهِ، ثُمَّ قَالَ: مَا أَحْسَـنَ هٰذَا ٱلْـكَلاَمَ وَأَجْمَلَـهُ! كَيْفَ تَصْنَعُـونَ كَيْ تَدْخُلُوا فِي هٰذَا ٱلدِّينِ؟ قَالاَ لَهُ: تَغْتَسِلُ فَتَتَطَهَّرُ وَتَشْهَدُ شَهَادَةَ ٱلْحَقِّ، ثُمَّ قَامَ فَرَكَعَ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ قَالَ لَهُمَا: إِنَّ وَرَائِي رَجُلاً إِنِ ٱتَّبَعَكُمَا لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْهُ أَحَدٌ مِنْ قَوْمِهِ. وَسَأُرْسِلُهُ إِلَيْكُمَـا ٱلآن، وَهُوَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ ثُمَّ أَخَذَ حَرْبَتَهُ وَٱنْصَرَفَ إِلَى سَعْدٍ وَقَوْمِهِ، وَهُمْ جُلُوسٌ فِي نَادِيهِمْ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهِ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ مُقْبِلاً، قَالَ: أَحْلِفُ بِـاللَّهِ لَقَدْ جَاءَكُمْ أُسَيْدُ بْـنُ حُضَيْرٍ بِغَيْرِ

ٱلْوَجْهِ ٱلَّذِي ذَهَبَ بِهِ مِنْ عِنْدِكُمْ، فَلَمَّا وَقَفَ عَلَى ٱلنَّادِي، قَالَ لَهُ سَعْدٌ: مَا فَعَلْتَ؟ قَالَ: كَلَّمْتُ ٱلرَّجُلَيْنِ، فَوَاللهِ مَا رَأَيْتُ بِهِمَا بَأْساً، وَقَدْ نَهَيْتُهُمَا، فَقَالاَ: نَفْعَلُ مَا أَحْبَبْتَ، وَقَدْ حُدِّثْتُ أَنَّ بَنِي حَارِثَةَ قَدْ خَرَجُوا إِلَى أَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ لِيَقْتُلُوهُ وَذٰلِكَ أَنَّهُمْ قَدْ عَرَفُوا أَنَّهُ ٱبْنُ خَالَتِكَ، لِيَخْفِرُوكَ. قَالَ: فَقَامَ سَعْدٌ مُغْضَباً مُبَادِراً تَخَوُّفاً لِلَّذِي ذُكِرَ لَهُ مِنْ بَنِي حَارِثَةَ، فَأَخَذَ ٱلْحَرْبَةَ مِنْ يَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: وَاللَّهِ مَا أَرَاكَ أَغْنَيْتَ شَيْئاً، ثُمَّ خَرَجَ إِلَيْهِمَا، فَلَمَّا رَآهُمَا سَعْدٌ مُطْمَئِنَّيْنَ عَرَفَ سَعْدٌ أَنَّ أُسَيْداً إِنَّمَا أَرَادَ مِنْهُ أَنْ يَسْمَعَ مِنْهُمَا، فَوَقَفَ عَلَيْهِمَا مُتَشَتِّماً، ثُمَّ قَالَ لِأَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ: يَا أَبَا أُمَامَةَ! أَمَا وَٱللَّهِ لَوْلاَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ مِنَ ٱلْقَرَابَةِ مَا رُمْتَ هٰذَا مِنِّي، أَتَغْشَانَا فِي دَارِنَا بِمَا نَكْرَهُ، وَقَدْ قَالَ أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ لِمُصْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ: أَيْ مُصْعَبُ! جَاءَكَ وَٱللَّهِ سَيِّدٌ، مِنْ وَرَائِهِ قَوْمُهُ، وَإِنْ يَتْبَعْكَ لاَ يَتَخَلَّفْ عَنْكَ مِنْهُمُ ٱثْنَانِ. فَقَالَ لَهُ مُصْعَبٌ: أَوَ تَقْعُدُ فَتَسْمَعَ، فَإِنْ رَضِيتَ أَمْراً وَرَغِبْتَ فِيهِ قَبِلْتَهُ. وَإِنْ كَرِهْتَهُ عَزَلْنَا عَنْكَ مَا تَكْرَهُ؟ قَالَ سَعْدٌ: أَنْصَفْتَ ثُمَّ رَكَزَ حَرْبَتَهُ وَجَلَسَ، فَعَرَضَ عَلَيْهِ ٱلإِسْلاَمَ وَقَرَأَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْآنَ، قَالاَ: فَعَرَفْنَا وَٱللَّهِ فِي وَجْهِهِ ٱلإِسْلاَمَ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ لِإِشْرَاقِهِ وَتَسَهُّلِهِ ثُمَّ قَالَ لَهُمَا: كَيْفَ تَصْنَعُونَ إِنْ أَنْتُمْ أَسْلَمْتُمْ وَدَخَلْتُمْ فِي هٰذَا ٱلدِّينِ؟ قَالاَ:

تَغْتَسِلُ فَتَتَطَهَّرُ وَتُطَهِّرُ ثَوْبَكَ، ثُمَّ تَشْهَدُ شَهَادَةَ ٱلْحَقِّ، ثُمَّ رَكَعَ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ أَخَذَ حَرْبَتَهُ، فَأَقْبَلَ عَامِداً إِلَى نَادِي قَوْمِهِ وَمَعَهُ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ.

فَلَمَّا رَآهُ قَوْمُهُ مُقْبلاً قَالُوا: نَحْلِفُ بِاللَّـهِ لَقَدْ رَجَعَ إِلَيْكُمْ سَعْدٌ بِغَيْرِ ٱلْوَجْهِ ٱلَّذِي ذَهَبَ بِهِ مِنْ عِنْدِكُمْ، فَلَمَّا وَقَفَ عَلَيْهِمْ قَالَ: يَا بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ، كَيْفَ تَعْلَمُونَ أَمْرِي مِنْكُمْ؟ قَالُوا: سَيِّدُنَا، وَأَوْصَلُنَا وَأَفْضَلُنَا رَأْياً، وَأَيْمَنُنَا نَقِيبَةً، قَالَ: فَإِنَّ، كَلاَمَكُمْ عَلَيَّ حَرَامٌ، حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّـهِ وَرَسُولِه. فَمَا أَمْسَى فِي دَار بَنِي عَبْدِ الأَشْهَل رَجُلٌ وَلاَ ٱمْرَأَةٌ إِلاَّ مُسْلِمٌ وَمُسْلِمَةٌ.

وَبعْدَ أَنْ أَسْلَمَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ٱنْتَقَلَ مُصْعَبُ ابْنُ عُمَيْرٍ إِلَى بَيْتِهِ ٱلَّذِي أَصْبَحَ ٱلْمَرْكَزَ ٱلإِسْلاَمِيَّ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَقَدْ بَدَأَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ وَأُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ، وَهُمَا سَيِّدا ٱلأَوْسِ يَوْمَئِذٍ، يَكْسِرَانِ أَصْنَامَ قَبِيلَتِهِمَا.

وَخَرَجَ مُصْعَبُ بنُ عُمَيْرٍ مِنَ المَدِينَةِ مَعَ السَّبْعِينَ الَّذِينَ وَافَوْا رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي العَقَبَةِ الثَّانِيَةِ مِنْ حَاجِّ الأَوْسِ وَالخَزْرَجِ، وَرَافَقَ أَسْعَدَ بنَ زُرَارَةَ فِي سَفَرِهِ ذَلِكَ، فَقَدِمَ مَكَّةَ فَجَاءَ مَنْزِلَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَوَّلاً وَلَمْ يَقْرُبْ مَنْزِلَهُ، فَجَعَلَ يُخْبِرُ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَنِ الأَنْصَارِ وَسُرْعَتِهِمْ إِلَى الإِسْلاَمِ. فَسُرَّ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِكُلِّ مَا أَخْبَرَهُ.

مُصْعَبٌ مَعَ أُمِّهِ

وَبَلَغَ أُمَّ مُصْعَبٍ أَنَّ ابْنَهَا قَدْ قَدِمَ فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ: يَا عَاقُّ أَتَقْدُمُ بَلَداً أَنَا فِيْهِ لاَتَبْدَأُ بِي؟ فَاسْتَعْلَى بِإِيمَانِهِ وَتَذَكَّرَ حُبَّهُ لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنَّهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فِي الدُّنْيَا حَتَّى مِنْ نَفْسِهِ فَأَجابَ أُمَّهُ: مَا كُنْتُ لأَبْدَأَ بِأَحَدٍ قَبْلَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَلَمَّا سَلَّمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَخْبَرَهُ بِمَا أَخْبَرَهُ ذَهَبَ إِلَى أُمِّهِ فَقَالَتْ: إِنَّكَ لَعَلَى مَا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنَ الصَّبَأَةِ بَعْدُ! قَالَ: أَنَا عَلَى دِينِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ الإِسْلاَمُ الَّذِي ارْتَضَاهُ اللَّهُ لِنَفْسِهِ وَلِرَسُولِهِ، قَالَتْ: مَا شَكَرْتَ مَارَثَيْتُكَ مَرَّةً بِأَرْضِ الحَبَشَةِ وَمَرَّةً بِيَثْرِبَ، فَقَالَ: أُقِرُّ بِدِينِي إِنْ تَفْتِنُونِي. فَأَرَادَتْ حَبْسَهُ فَقَالَ: لَئِنْ أَنْتِ حَبَسْتِنِي لأَحْرِصَنَّ عَلَى قَتْلِ مَنْ يَتَعَرَّضُ لِي، قَالَتْ: فَاذْهَبْ لِشَأْنِكَ. وَجَعَلَتْ

تَبْكِي، فَقَالَ مُصْعَبٌ: يَا أُمَّـهْ إِنِّـي لَكِ نَاصِـحٌ عَلَيْكِ شَفِيقٌ فَاشْهَدِي أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهَ وَأَنَّ مُحَمَّدَاً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، قَالَتْ: وَالثَّوَاقِبِ لاَ أَدْخُلُ فِي دِينِكَ فَيُزْرَى بِرَأْيِي وَيُضَـعَّفُ عَقْلِـي وَلَكِنِّـي أَدَعُـكَ وَمَـا أَنْـتَ عَلَيْهِ، وَأُقِيمُ عَلَـى دِينِـي. فَغَـادَرَ مُصْعَبٌ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أُمَّهُ وَهُوَ خَائِفٌ عَلَيْهَـا مِنَ النَّـارِ، مُتَضَـايِقٌ عَلَـى مَا هِيَ عَلَيْهِ مِنَ الشِّـرْكِ وَمُعَـادَاةِ الإِسْـلاَمِ، وَانْتَقَلَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أَقَامَ مُصْعَبُ بنُ عُمَيْرٍ مَعَ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّـمَ، بِمَكَّةَ بَقِيَّةَ ذِي الْحِجَّةِ وَالْمُحَرَّمَ وَصَفَرَ وَقَدِمَ قَبْلَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَى المَدِينَةِ مُهَاجِراً لِهِلاَلِ شَهْرِ رَبِيعٍ الأَوَّلِ قَبْلَ مَقْدَمِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِاثْنَتَيْ عَشَرَةَ لَيْلَةً.

وَعِنْدَمَا آخَى رَسُولُ اللَّـهِ، صَلَّـى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّـمَ، بَيْنَ المُسْـلِمِينَ آخَـى بَيْنَ مُصْعَبِ بـنِ عُمَيْرٍ وَسَعْدِ بـنِ أَبِـي وَقَّـاصٍ، وَيُقَـالُ: بَيْنَ مُصْعَـبٍ وَأَبِـي أَيُّوبَ الأَنْصَـارِيِّ، وَيُقَالُ: بَيْنَهُ وَبَيْنَ ذَكْوَانَ بنِ عَبْدِ قَيْسٍ.

فِي مَعْرَكَةِ بَدْرٍ

خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَى بَدْرٍ بَعْدَ أَنِ انْتَدَبَ المُسْلِمِينَ لِلْخُرُوجِ إِلَى عِيرِ قُرَيْشٍ، وَكَانَ مُصْعَبُ بنُ عُمَيْرٍ فِي طَلِيعَةِ المُنْطَلِقِينَ وَيَحْمِلُ لِوَاءَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَمَّا رَايَةُ المُهَاجِرِينَ فَكَانَتْ مَعَ عَلِيٍّ بنِ أَبِي طَالِبٍ، وَرَايَةُ الأَنْصَارِ مَعَ سَعْدِ بنِ مُعَاذٍ، وَكَانَتْ مَشِيئَةُ اللَّهِ أَنْ يَكُونَ اللِّقَاءُ مَعَ جَيْشِ قُرَيْشٍ، وَأَنْ تَنْجُوَ العِيرُ، وَكَانَتْ مَعْرَكَةُ بَدْرٍ فُرْقَاناً بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ انْتَصَرَ فِيهَا الحَقُّ وَأَهْلُهُ وَانْدَحَرَ البَاطِلُ وَأَصْحَابُهُ. وَخَلَّفَ الْمُشْرِكُونَ سَبْعِينَ قَتِيلاً مِنْهُمْ فِي سَاحَةِ المَعْرَكَةِ، كَمَا تَرَكُوا مِثْلَهُمْ مِنَ الأَسْرَى وَقَعُوا بِأَيْدِ المُسْلِمِينَ، وَكَانَ بَيْنَ هَؤُلاَءِ الأَسْرَى شَقِيقُ مُصْعَبٍ، وَهُوَ أَبُو عَزِيزِ بنُ عُمَيْرٍ الَّذِي أَخَذَ لِوَاءَ المُشْرِكِينَ بَعْدَ أَسْرِ النَّضْرِ بنِ الحَارِثِ الَّذِي كَانَ بِيَدِهِ اللِّوَاءُ مِنْ قَبْلُ.

لَقَدْ أُسِرَ أَبُو عَزِيزٍ مِنْ قِبَلِ أَبِي اليَسَرِ أَحَدِ رِجَالِ الأَنْصَارِ، وَيَرْوِي أَبُو عَزِيزٍ قِصَّةَ أَسْرِهِ بَعْدَ إِسْلاَمِهِ فَيَقُولُ: مَرَّ بِي أَخِي مُصْعَبُ بنُ عُمَيْرٍ، وَرَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ يَأْسِرُنِي، فَقَالَ مُصْعَبُ لِلأَنْصَارِيِّ: شُدَّ يَدَيْكَ بِهِ؛ فَإِنَّ أُمَّهُ ذَاتُ مَتَاعٍ لَعَلَّهَا تَفْدِيه مِنْكَ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَخِي، هَذِهِ وَصَاتُكَ بِي؟ فَقَالَ مُصْعَبُ:

إنَّهُ أَخِي دُونَكَ[1] !!

فِي مَعْرَكَةِ أُحُدٍ

خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِالمُسْلِمِينَ إِلَى أُحُدٍ، وَسَلَّمَ اللِّوَاءَ إِلَى مُصْعَبِ بنِ عُمَيْرٍ، وَتَقَدَّمَ المُسْلِمُونَ، وَكَانَ لَهُمُ النَّصْرُ فِي بِدَايَةِ الأَمْرِ، ثُمَّ دَارَتْ عَلَيْهِمُ الدَّائِرَةُ فَانْهَزَمُوا لِمُخَالَفَتِهِمْ أَوَامِرَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَمحِيصاً لِلَّذِينَ آمَنُوا، وَابْتِلاَءً، وَمَعْرِفَةً لِلصَّابِرِينَ، وَقَاتَلَ مُصْعَب، وَأَبُو دُجَانَةَ، وَطَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِ اللَّهِ، وَسَعْدُ بنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَالزُّبَيْرُ بنُ العَوَّامِ،

(١) فالقرابة والمودة في الإسلام لا تقومان على صلة الجنس أو الدم أو أية صلةٍ ماديةٍ وإنما تقومان على العقيدة يقول تعالى: ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يُوادّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم...﴾ المجادلة الآية ٢٢.
والحبّ قائم بين المسلمين، ومن الإيمان وجوب محبة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أكثر من الأهل والولد والوالد والناس أجمعين يقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من والده وولده والناس أجمعين». متفق عليه.
وروى عبدالله بن هشام قال: كنا مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال له عمر: يا رسول الله لأنت أحبّ إليّ من كل شيءٍ إلا نفسي، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: «لا، والذي نفسي بيده حتى أكون أحبّ إليك من نفسك». فقال له عمر: فإنه الآن لأنت أحبّ إليّ من نفسي، فقال النبيّ، صلى الله عليه وسلم: «الآن يا عمر» رواه البخاري.

وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ عَوْفٍ، وَكَعْبُ بنُ مَالِكٍ، وَسَعْدُ بنُ مُعَاذٍ، وَأُمُّ عُمَارَةَ نُسَيْبَةُ بِنْتُ كَعْبٍ الَّتِي قَالَتْ «خَرَجْتُ أَوَّلَ النَّهَارِ وَأَنَا أَنْظُرُ مَا يَصْنَعُ النَّاسُ، وَمَعِي سِقَاءٌ فِيْهِ مَاءٌ فَانْتَهَيْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ فِي أَصْحَابِهِ، وَالدَّوْلَةُ وَالرِّيحُ لِلْمُسْلِمِينَ. فَلَمَّا انْهَزَمَ المُسْلِمُونَ انْحزْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، فَقُمْتُ أُبَاشِرُ القِتَالَ، وَأَذُبُّ عَنْهُ بِالسَّيْفِ، وَأَرْمِي عَنِ القَوْسِ، حَتَّى خَلَصَتِ الجِرَاحُ إِليَّ! فَلَمَّا وَلَّى النَّاسُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَقْبَلَ ابنُ قَمِيئَةَ يَقُولُ: دُلُّونِي عَلَى مُحَمَّدٍ، فَلاَ نَجَوْتُ إِنْ نَجَا، فَاعْتَرَضْتُ لَهُ أَنَا وَمُصْعَبُ بنُ عُمَيْرٍ وَأُنَاسٌ مِمَّنْ ثَبَتَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَضَرَبَنِي هَذِهِ الضَّرْبَةَ، وَلَكِنْ فَلَقَدْ ضَرَبْتُهُ عَلَى ذَلِكَ ضَرَبَاتٍ، وَلَكِنَّ عَدُوَّ اللَّهِ كَانَتْ عَلَيْهِ دِرْعَانِ»(١). وَقَتَلَ ابنُ قَمِيئَةَ - قَبَّحَهُ اللَّهُ - مُصْعَبَ بنَ عُمَيْرٍ. وَرُوِيَ أَنَّ مُصْعَبَ بنَ عُمَيْرٍ حَمَلَ اللِّوَاءَ يَوْمَ أُحُدٍ، فَلَمَّا جَالَ المُسْلِمُونَ ثَبَتَ بِهِ مُصْعَبٌ فَأَقْبَلَ ابنُ قَمِيئَةَ، وَهُوَ فَارِسٌ، فَضَرَبَ يَدَهُ اليُمْنَى فَقَطَعَهَا وَمُصْعَبٌ يَقُولُ: وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ، وَأَخَذَ

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٨٧.

اللِّـوَاءَ بِيَدِهِ اليُسْـرَى، وَحَنَـا عَلَيْهِ، فَضَـرَبَ يَدَهُ اليُسْـرَى فَقَطَعَهَا، فَحَنا عَلَى اللِّوَاءِ وَضَمَّهُ بِعَضُـدَيْهِ إلَـى صَدْرِهِ وَهُـوَ يَقُولُ: وَمَا مُحَمَّدٌ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِـهِ الرُّسُـلُ. ثُمَّ حَمَلَ عَلَيْهِ الثَّالِثَةَ بِالرُّمْحِ فَأَنْفَذَهُ وَانْدَقَّ الرُّمْحُ وَوَقَعَ مُصْعَبُ وَسَقَطَ اللِّوَاءُ، وَابْتَدَرَهُ رَجُلاَنِ مِنْ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ: سُوَيْبِطُ بنُ سَعْدِ بنِ حَرْمَلَةَ وَأَبُو الرُّومِ بنُ عُمَيْرٍ، فَأَخَذَهُ أَبُو الرُّومِ بنُ عُمَيْرٍ فَلَمْ يَزَلْ فِي يَدِهِ حَتَّى دَخَـلَ بِهِ المَدِينَـةَ حِينَ انْصـرَفَ المُسْلِمُونَ[1].

قَتَلَ ابنُ قَمِيئَةَ ـ قَبَّحَهُ اللَّهُ ـ مُصعَبَ بنَ عُمَيْرٍ، وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَرَجَعَ إلـى قُرَيْشٍ فَقَالَ: قَتَلْتُ مُحَمَّداً. فَلَمَّا قُتِلَ مُصْعَبُ بنُ عُمَيْرٍ أَعْطَى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، اللِّوَاءَ عَلِيَّ بـنَ أَبِـي طَالِـبٍ، وَقَاتَلَ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ وَرِجَالٌ مِنَ المُسْلِمِينَ[2].

وَرَوَى رَبيعَةُ بـنُ الحَارِثِ بـنِ عَبْدِ المُطَّلِـبِ فَقَـالَ: أَعْطَـى رَسُـولُ اللَّـهِ، صَلَّـى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّـمَ، يَوْمَ أُحُـدٍ مُصْعَبَ بنَ عُمَيْرٍ اللِّوَاءَ فَقُتِلَ مُصْعَبُ فَأَخَذَهُ مَلِكٌ فِي صُورَةِ

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد الجزء الثالث.
(٢) سيرة ابن هشام الجزء الثالث.

مُصْعَبٍ فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ لَهُ فِي آخِرِ النَّهَارِ: تَقَدَّمْ يَا مُصْعَبُ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ المَلَكُ فَقَالَ: لَسْتُ بِمُصْعَبٍ: فَعَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ مَلَكٌ أُيِّدَ بِهِ[1].

وَوَقَفَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلَى مُصْعَبِ بنِ عُمَيْرٍ وَهُوَ مُنْجَعِفٌ عَلَى وَجْهِهِ فَقَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾[2]. ثُمَّ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ يَشْهَدُ أَنَّكُمُ الشُّهَدَاءُ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ القِيَامَةِ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ زُورُوهُمْ وَأْتُوهُمْ وَسَلِّمُوا عَلَيْهِمْ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يُسَلِّمُ عَلَيْهِمْ مُسَلِّمٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ إِلاَّ رَدُّوا عَلَيْهِ السَّلاَمَ[3].

وَقَالَ خَبَّابُ بنُ الأَرَتِّ: هَاجَرْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي سَبِيلِ اللَّهِ نَبْتَغِي وَجْهَ اللَّهِ فَوَجَبَ أَجْرُنَا عَلَى اللَّهِ فَمِنَّا مَنْ مَضَى وَلَمْ يَأْكُلْ مِنْ أَجْرِهِ شَيْئاً، مِنْهُمْ مُصْعَبُ بنُ عُمَيْرٍ، قُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ فَلَمْ يُوجَدْ لَهُ شَيْءٌ يُكَفَّنُ فِيهِ إِلاَّ نَمِرَةً،

---

(١) الطبقات الكبرى.

(٢) سورة الأحزاب الآية ٢٣.

(٣) الطبقات الكبرى.

فَكُنَّا إذَا وَضَعْنَاهَا عَلَى رَأْسِهِ خَرَجَتْ رِجْلاَهُ وَإِذَا وَضَعْنَاهَا عَلَى رِجْلَيْهِ خَرَج رَأْسُهُ، فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، اجْعَلُوهَا مِمَّا يَلِي رَأْسَهُ وَاجْعَلُوا عَلَى رِجْلَيْهِ مِنَ الإِذْخِرِ، وَمِنَّا مَنْ أَيْنَعَتْ لَهُ ثَمَرَتُهُ فَهُوَ يَهْدِبُهَا[1].

كَانَ مُصْعَبٌ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رَقِيقَ البَشَرَةِ حَسَنَ اللِّمَّةِ لَيْسَ بِالقَصِيرِ وَلاَ بِالطَّوِيلِ، اسْتُشْهِدَ يَوْمَ أُحُدٍ عَلَى رَأْسِ اثْنَيْنِ وَثَلاَثِينَ شَهْراً مِنَ الهِجْرَةِ، وَهُوَ ابنُ أَرْبَعِينَ سَنَةً أَوْ يَزِيدُ شَيْئاً، فَوَقَفَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ فِي بُرْدَةٍ مَقْتُولٌ فَقَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُكَ بِمَكَّةَ وَمَا بِهَا أَحَدٌ أَرَقُّ حُلَّةً وَلاَ أَحْسَنُ لِمَّةً مِنْكَ، ثُمَّ أَنْتَ شَعِثُ الرَّأْسِ فِي بُرْدَةٍ، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ أَنْ يُقْبَرَ فَنَزَلَ فِي قَبْرِهِ أَخُوهُ أَبُو الرُّومِ بنُ عُمَيْرٍ، وَعَامِرُ بنُ رَبِيعَةَ، وَسُوَيْبِطُ بنُ سَعْدِ بنِ حَرْمَلَةَ.

ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رَاجِعاً إِلَى المَدِينَةِ، فَلَقِيَتْهُ حَمْنَةُ بِنْتُ جَحْشٍ، فَلَمَّا لَقِيتِ النَّاسَ نُعِيَ إِلَيْهَا أَخُوهَا عَبْدُ اللَّهِ بنُ جَحْشٍ فَاسْتَرْجَعَتْ وَاسْتَغْفَرَتْ لَهُ، ثُمَّ نُعِيَ لَهَا خَالُهَا حَمْزَةُ بنُ عَبْد المُطَّلِبِ فَاسْتَرْجَعَتْ وَاسْتَغْفَرَتْ لَهُ، ثُمَّ نُعِيَ لَهَا زَوْجُهَا مُصْعَبُ بنُ عُمَيْرٍ،

---

(١) المصدر نفسه.

فَصَاحَتْ وَوَلْوَلَتْ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ زَوْجَ الْمَرْأَةِ مِنْهَا لَبِمَكَانٍ!

كَانَ مُصْعَبُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مِنْ أَفْضَلِ الرِّجَالِ أَخْلَاقاً تَأَدَّبَ بِآدَابِ الإِسْلَامِ وَتَخَلَّقَ بِأَخْلَاقِ أَهْلِهِ، يَقُولُ عَامِرُ بنُ رَبِيعَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَانَ مُصْعَبُ بنُ عُمَيْرٍ لِي خِدْناً وَصَاحِباً مُنْذُ يَوْمَ أَسْلَمَ إِلَى أَنْ قُتِلَ، رَحِمَهُ اللَّهُ، بِأُحُدٍ خَرَجَ مَعَنَا إِلَى الْهِجْرَتَيْنِ جَمِيعاً بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ، وَكَانَ رَفِيقِي مِنْ بَيْنِ الْقَوْمِ فَلَمْ أَرَ رَجُلاً قَطُّ كَانَ أَحْسَنَ خُلُقاً وَلاَ أَقَلَّ خِلَافاً مِنْهُ.

وَكَانَ مُصْعَبُ مُنْعَماً جِدّاً فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَبَاعَ النَّعِيمَ كُلَّهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَاشَ عَلَى الْكَفَافِ. أَقْبَلَ مُصْعَبُ بنُ عُمَيْرٍ ذَاتَ يَوْمٍ وَالنَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، جَالِسٌ فِي أَصْحَابِهِ عَلَيْهِ قِطْعَةُ نَمِرَةٍ قَدْ وَصَلَهَا بِإِهَابٍ قَدْ رَدَّنَهُ ثُمَّ وَصَلَهُ إِلَيْهَا، فَلَمَّا رَآهُ أَصْحَابُ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، نَكَسُوا رُؤُوسَهُمْ رَحْمَةً لَهُ لَيْسَ عِنْدَهُمْ مَا يُغَيِّرُونَ عَنْهُ، فَسَلَّمَ فَرَدَّ عَلَيْهِ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَحْسَنَ عَلَيْهِ الثَّنَاءَ وَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ لِيُقَلِّبُ الدُّنْيَا بِأَهْلِهَا، لَقَدْ رَأَيْتُ هَذَا، يَعْنِي مُصْعَباً، وَمَا بِمَكَّةَ

فَتىً مِنْ قُرَيْشٍ أَنْعَمُ عِنْدَ أَبَوَيْهِ نَعِيماً مِنْهُ، ثُمَّ أَخْرَجَهُ مِنْ ذَلِكَ الرَّغْبَةُ فِي الخَيْرِ فِي حُبِّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ.

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ.

الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَالصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدِ بن عَبْدِ اللَّهِ خَاتَمِ المُرْسَلِينَ وَإِمَامِ المُتَّقِينَ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّين وَبَعْدُ:

فَإِنَّ كَعْبَ بنَ مَالِكٍ شَاعِرَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، كَانَ لَهُ دَوْرُهُ فِي الدِّفَاعِ عَنِ الدَّوْلَةِ الإِسْلاَمِيَّةِ سَوَاءٌ أَكَانَ ذَلِكَ بِسَيْفِهِ أَمْ بِلِسَانِهِ، إِذْ شَهِدَ المَشَاهِدَ كُلَّهَا سِوَى بَدْرٍ وَتَبُوكَ، وَعَاشَ بِجَوَارِحِهِ كُلِّهَا مَعَ الدَّعْوَةِ حَيْثُ كَانَ يَذْكُرُ الحَرْبَ فِي شِعْرِهِ وَيَقُولُ نَفْعَلُ وَنَفْعَلُ وَيَتَهَدَّدُ الكُفَّارَ، وَيَمْدَحُ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، وَيَرْثِي شُهَدَاءَ المُسْلِمِينَ. وَإِذَا كَانَ قَدْ بَرَزَ فِي شِعْرِهِ وَجِهَادِهِ، فَإِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ كَذَلِكَ فِي بَيْعَةِ العَقَبَةِ الثَّانِيَةِ، وَأَخَذَ أَكْثَرُ أَصْحَابِ السِّيَرِ أَحْدَاثَهَا عَنْهُ، وَكَانَ مِنَ المُخَلَّفِينَ الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ تَابَ اللَّهُ عَنْهُمْ فَوَرَدَ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَرُبَّمَا كَانَ ذَلِكَ أَكْثَرَ الَّذِي حَفِظَ اسْمَهُ وَخَلَّدَ ذِكْرَهُ.

وَعَاشَ طَوِيلاً، وَأَنْجبَ الأَوْلاَدَ الَّذِينَ رَوَوْا عَنْهُ، إِذْ كُفَّ بَصَرُهُ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ فَكَانَ وَلَدُهُ يَقُودُهُ وَيَسْمَعُ مِنْهُ أَحْدَاثَ أَيَّامِهِ وَمَا جَرَى مَعَهُ، فَكَانَ ابْنَهُ السِّجِلَّ الَّذِي حَفِظَ الكَثِيرَ مِنْ سِيرَةِ ذَلِكَ الصَّحَابِيِّ وَأَخْبَارِهِ.

فَأَرْجُو أَنْ أُوَفَّقَ فِي إِعْطَاءِ صُوَرَةٍ صَادِقَةٍ عَنْ حَيَاةِ كَعْبِ بنِ مَالِكٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ.

أُسْرَتُهُ

هُوَ كَعْبُ بْنُ مَالِكِ بنِ أَبِي كَعْبِ عَمْرِو بنِ القَيْنِ بنِ كَعْبِ بنِ سَوَادِ بنِ غَنْمٍ بنِ كَعْب بنِ سَلَمَةَ، الخَزْرَجِيُّ.

وَبَنُو سَلَمَةَ أَحَدُ بُطُونِ الخَزْرَجِ المَعْرُوفِينَ.

وُلِدَ كَعْبٌ فِي السَّنَةِ السَّابِعَةِ وَالْعِشْرِينَ قَبْلَ الْهِجْرَةِ، فَهُوَ أَصْغَرُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، بِسِتٍّ وعِشْرِينَ سَنَةً، وَأَسْلَمَ وَعُمْرُهُ سِتٌّ وَعِشْرُونَ سَنَةً.

وُلِدَ كَعْبٌ فِي أُسْرَةٍ عُرِفَتْ بِالشَّجَاعَةِ وَاشْتَهَرَتْ بِالشِّعْرِ، إِذْ كَانَ أَبُوهُ مَالِكٌ شَاعِراً فَارِساً شُجَاعاً، أَبْدَى كَثِيراً مِنْ فُنُونِ الفُرُوسِيَّةِ فِي حَرْبِ «بُعَاث» الَّتِي دَارَتْ بَيْنَ سُكَّانِ يَثْرِبَ مِنَ

الأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ قُبَيْلَ انْتِشَارِ الإِسْلاَمِ بَيْنَ الأَنْصَارِ، وَكَانَ مَالِكٌ ذَا سَعَةٍ وَيَسَارٍ.

نَشَأَ كَعْبٌ وَحِيداً لأَبِيهِ فَكَانَ مُرَفَّهاً مُنْعَماً، تَعَلَّمَ القِرَاءَةَ والكِتَابَةَ وَهُمَا أَمْرٌ نَادِرٌ فِي الجَاهِلِيَّةِ، كَمَا عَرَفَ الحِسَابَ، وَفُطِرَ عَلَى الشِّعْرِ.

وَكَانَتْ أُمُّهُ لَيْلَى بِنْتُ يَزِيدَ بنِ ثَعْلَبَةَ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ أَيْضاً، لَهَا مَكَانَتُهَا فِي عَشِيرَتِهَا وَلَهَا مَرْكَزُهَا بَيْنَ بَنِي سَلَمَةَ.

تَزَوَّجَ كَعْبٌ إِحْدَى بَنَاتِ بَنِي سَلَمَةَ وَهِيَ عُمَيْرَةُ أُمُّ مَعْبَدٍ بِنْتُ جُبَيْرِ بنِ صَخْرٍ فَوَلَدَتْ لَهُ عَبْدَ اللَّهِ، الَّذِي كَانَ قَائِدَ أَبِيهِ عِنْدَمَا كُفَّ بَصَرُهُ فِي أَوَاخِرِ حَيَاتِهِ، وَعُبَيْدَ اللَّهِ، وفضَالَةَ، وَوَهَباً، وَمَعْبَداً مِنَ الذُّكُورِ، وَخَوْلَةَ، وَسُعَادَ مِنَ الإِنَاثِ. وَقَدْ أَسْلَمَتْ عُمَيْرَةُ وَبَايَعَتْ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، وَرَوَتْ بَعْضَ حَدِيثِهِ.

وَتَزَوَّجَ كَعْبٌ أَيْضاً (خَيْرَةَ)، وَقَدْ رَوَتْ بَعضَ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم. وَتَزَوَّجَ فَتَاةً مِنَ اليَمَنِ تُدْعَى «صَفِيَّةَ» وَوَلَدَتْ لَهُ «كَبْشَةَ». وَتَزَوَّجَ أُمَّ عَبْدِ اللَّهِ، وَرَوَى ابْنُ الأَثِيرِ لَهَا حَدِيثاً فِي إِنْشَادِ الشِّعْرِ فِي المَسْجِدِ.

وَكَانَتْ لَهُ عِدَّةُ أُمَّهَاتِ لأَوْلاَدٍ. أَنْجَبَتْ لَهُ إِحْدَاهُنَّ وَلَدَاً سُمِّيَ «عَبْدَ الرَّحْمَنِ».

كَانَ كَعْبٌ يُكَنَّى فِي الجَاهِلِيَّةِ بِأَبِي بَشِيرٍ، فَكَنَّاهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، (أَبَا عَبْدِ اللَهِ) بِاسْمِ ابْنِهِ الكَبِيرِ.

إِسْلاَمُ كَعْبٍ

عَاشَ كَعْبٌ فِي يَثْرِبَ سِتّاً وَعِشْرِينَ سَنَةً قَبْلَ إِسْلاَمِهِ حَيَاةَ نَعِيمٍ وَرَفَاهٍ، وَلَمَّا شَبَّ بَدَأَ يَنْظِمُ الشِّعْرَ، وَمُعْظَمُهُ فِي الفَخْرِ. إِذْ كَانَ يَرَى كَمَا يَرَى أَهْلُ يَثْرِبَ مِنَ الأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ أَنَّهُمْ مِنَ الحَيِّ اليَمَانِيِّ مِنَ الأَزْدِ، وَقَدْ هَاجَرُوا مِنْ مَوْطِنِهِمُ الأَوَّلِ عِنْدَ خَرَابِ سَدِّ مأْرب فَتَوَزَّعُوا فِي البِلاَدِ وَمِنْهُمُ الغَسَاسِنَةُ فِي الشَّامِ، وَالمَنَاذِرَةُ فِي العِرَاقِ، وَالأَزْدُ فِي عُمَانَ، كَمَا يَرَى هَذَا الحَيُّ مِنَ الأَزْدِ مِنَ الأَوْسِ وَالخَزْرَجِ أَنَّ الغَسَاسِنَةَ أَكْثَرُ قُرْبَىً لَهُمْ مِنَ المَنَاذِرَةِ لِذَا كَانَ مَدْحُهُمْ لآلِ غَسَّانَ أَكْثَر بَلْ يَعُدُّونَ أَنْفُسَهُمْ فِرْعَاً مِنْهُمْ، فَنَرَى كَعْبَ بنَ مَالِكٍ يَقُولُ فِي هَذَا:

وَغَسَّانُ أَصْلِي وَهُمْ مَعْقِلِي
فَنِعْمَ الأَرُومَةُ والمَعْقِلُ

بُنَاة دَوْلَةِ الإِسْلام

٣٢

شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم

كَعْبُ بنُ مَالِكٍ

رضي الله عنه

فَهَذَا جَانِبٌ مِنْ جَوَانِبِ الشِّعْرِ الَّذِي انْصَرَفَ إِلَيْهِ كَعْبٌ، كَمَا أَنَّ هُنَاكَ جَانِباً آخَرَ، وَهُوَ الدَّعْوَةُ إِلَى مَكَارِمِ الأَخْلاَقِ وَفَضَائِلِ الأَعْمَالِ إِذْ يَبْدُو أَنَّهُ كَانَ مِنْ أَهْلِهَا وَهُوَ فِي حَدَاثَةِ سِنِّهِ وَرَيْعَانِ شَبَابِهِ فَيَقُولُ:

وَأَغْضُوا عَنِ الفَحْشَاءِ، لاَ تَعْرِضُوا لَهَا
وَلاَ تَطْلُبُوا حَرْبَ العَشِيرَةِ بِالقَلْبِ
وَلاَ تَقْبِضُوا أَعْرَاضَهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ
وَلاَ تَلْمِسُوهَا فِي المَجَالِسِ وَالرَّكْبِ

وَلَمَّا أَرَادَ اللَّهُ لِهَذَا الحَيِّ مَا أَرَادَ مِنَ الْكَرَامَةِ وَالعِزِّ التَقَى حَجِيجُهُمْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، فِي المَوْسِمِ، فَاسْتَمَعُوا لَهُ، وَسَمِعُوا مِنْهُ القُرْآنَ، وَآمَنُوا بِهِ، وَصَدَّقُوهُ، وَبَايَعُوهُ بَيْعَةَ العَقَبَةِ الأُولَى، وَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى مَدِينَتِهِمْ بَدَؤُوا يَدْعُونَ، وَأَرْسَلُوا إِلَى رَسُولِ اللَّه، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، يَطْلُبُونَ مِنْهُ أَنْ يَبْعَثَ لَهُمْ مَنْ يُعَلِّمُهُمْ أُمُورَ دِينِهِمْ، وَيُقْرِئُهُمُ القُرْآنَ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مُصْعَبَ بنَ عُمَيْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَكَانَ يُسَمَّى المُقْرِىءَ، فَأَخَذَ يَدْعُو إِلَى اللَّهِ، وَيُسْلِمُ النَّاسُ، فَكَانَ كَعْبُ بنُ مَالِكٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مِنَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا فِي هَذِهِ المَرْحَلَةِ، وَكَانَ إِسْلاَمُهُ مِنَ الأَرْبَعِينَ

الأَوَائِلِ الَّذِينَ دَخَلُوا فِي الإِسْلَامِ مِنَ الأَنْصَارِ.

قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ كَعْبِ بنِ مَالِكٍ: كُنْتُ قَائِدَ أَبِي، كَعْبِ بنِ مَالِكٍ، حِينَ ذَهَبَ بَصَرُهُ، فَكُنْتُ إِذَا خَرَجْتُ بِهِ إِلَى الجُمُعَةِ فَسَمِعَ الأَذَانَ بِهَا صَلَّى عَلَى أَبِي أُمَامَةَ، أَسْعَدِ بنِ زُرَارَةَ. قَالَ: فَمَكَثَ حِيناً عَلَى ذَلِكَ لاَ يَسْمَعُ الأَذَانَ لِلْجُمُعَةِ إِلاَّ صَلَّى عَلَيْهِ وَاسْتَغْفَرَ لَهُ. قَالَ: فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: وَاللَّهِ إِنَّ هَذَا بِي لَعَجْزٌ، أَلاَ أَسْأَلُهُ مَا لَهُ إِذَا سَمِعَ الأَذَانَ لِلْجُمُعَةِ صَلَّى عَلَى أَبِي أُمَامَةَ أَسْعَدَ بنِ زُرَارَةَ؟ قَالَ: فَخَرَجْتُ بِهِ فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ كَمَا كُنْتُ أَخْرُجُ، فَلَمَّا سَمِعَ الأَذَانَ لِلْجُمُعَةِ صَلَّى عَلَيْهِ وَاسْتَغْفَرَ لَهُ، قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَتِ مَالَكَ إِذَا سَمِعْتَ الأَذَانَ لِلْجُمُعَةِ صَلَّيْتَ عَلَى أَبِي أُمَامَةَ؟ قَالَ: فَقَال: أَيْ بُنَيَّ، كَانَ أَوَّلَ مَنْ جَمَّعَ بِنَا بِالمَدِينَةِ فِي هَزْمِ النَّبِيتِ، مِنْ حَرَّةِ بنِي بَيَاضَةَ، يُقَالُ لَهُ: نَقِيعُ الخَضِمَاتِ، قَالَ: قُلْتُ: وَكَمْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: أَرْبَعُونَ.

وَمَا أَنِ اعْتَنَقَ كَعْبُ الإِسْلاَمَ حَتَّى خَلَعَ عَنْهُ كُلَّ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ جَاهِلِيَّةٍ، وَاتَّجَهَ بِكُلِّيَتِهِ نَحْوَ دِينِهِ، وَاجْتَهَدَ ما أَمْكَنَهُ الاجْتِهَادُ فَكَانَ كَأَنَّمَا وُلِدَ مِنْ جَدِيدٍ.

فِي بَيْعَةِ العَقَبَةِ الثَّانِيَةِ

بَعْدَ بَيْعَةِ العَقَبَةِ الأُولَى وَعَوْدَةِ الأَنْصَارِ إلَى المَدِينَةِ وَانْتِشَارِ الإِسْلاَمِ هُنَاكَ، وَقُدُومِ مُصْعَبِ بن عُمَيْرٍ إِلَيْهِمْ، وَنُزُولِهِ عَلَى أَسْعَدِ بن زُرَارَةَ، وَنَشَاطِهِ فِي الدَّعْوَةِ فَشَا الإِسْلاَمُ فِي دُورِ الأَنْصَارِ، فَلَمَّا حَانَ المَوْسِمُ رَجَعَ مُصْعَبُ بنُ عُمَيْرٍ إلَى مَكَّةَ، ثُمَّ خَرَجَ مَنْ خَرَجَ مِنَ الأَنْصَارِ مِنَ المُسْلِمِينَ إلَى المَوْسِمِ مَعَ حُجَّاجِ قَوْمِهِمْ مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ، حَتَّى قَدِمُوا مَكَّةَ، فَوَاعَدُوا رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، العَقَبَةَ، مِنْ أَوْسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ ، حِينَ أَرَادَ اللَّهُ بِهِمْ مَا أَرَادَ مِنْ كَرَامَتِهِ، وَالنَّصْرِ لِنَبِيِّهِ، وَإِعْزَازِ الإِسْلاَمِ وَأَهْلِهِ، وَإِذْلاَلِ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ.

وَكَانَ كَعْبُ بنُ مَالِكٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مِمَّنْ شَهِدَ العَقَبَةَ فَيَقُولُ عَنْ ذَلِكَ: خَرَجْنَا فِي حُجَّاجِ قَوْمِنَا مِنَ المُشْرِكِينَ، وَقَدْ صَلَّيْنَا وَفَقِهْنَا، وَمَعَنَا البَرَاءُ بنُ مَعْرُورٍ، سَيِّدُنَا وَكَبِيرُنَا، فَلَمَّا وَجَّهْنَا لِسَفَرِنَا، وَخَرَجْنَا مِنَ المَدِينَةِ، قَالَ البَرَاءُ لَنَا: يَا هَؤُلاَءِ، إنِّي قَدْ رَأَيْتُ رَأْياً، فَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي أَتُوَافِقُونَنِي عَلَيْهِ أَمْ لاَ؟ قُلْنَا: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: قَدْ رَأَيْتُ أَنْ لاَ أَدَعْ هَذِهِ البَنِيَّةَ مِنِّي بِظَهْرٍ، يَعْنِي الْكَعْبَةَ، وَأَنْ أُصَلِّي إِلَيْهَا. فَقُلْنَا: وَاللَّهِ مَا بَلَغَنَا

أَنَّ نَبِيَّنَا، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يُصَلِّي إلاَّ إِلَى الشَّامِ ، وَمَا نُرِيدُ أَنْ نُخَالِفَهُ، فقَالَ: إِنِّي لَمُصَلٍّ إِلَيْهَا، فَقُلْنَا لَهُ: لَكِنَّا لاَ نَفْعَلُ. فَكُنَّا إِذَا حَضَرَتِ الصَّلاَةُ صَلَّيْنَا إِلى الشَّامِ ، وَصَلَّى إِلَى الكَعْبَةِ، حَتَّى قَدِمْنَا مَكَّةَ، وَقَدْ كُنَّا عِبْنَا عَلَيْهِ مَا صَنَعَ، وَأَبَى إلاَّ الإِقَامَةَ عَلَى ذَلِكَ. فَلَمَّا قَدِمْنَا مَكَّةَ قَالَ لِي: يَا ابْنَ أَخِي، انْطَلِقْ بِنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَتَّى نَسْأَلَهُ عَمَّا صَنَعْتُ فِي سَفَرِي هَذَا، فَإِنَّهُ وَاللَّهِ لَقَدْ وَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْهُ شَيْءٌ، لِمَا رَأَيْتُ مِنْ خِلاَفِكُمْ إِيَّايَ فِيْهِ. فَخَرَجْنَا نَسْأَلُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكُنَّا لاَ نَعْرِفُهُ، وَلَمْ نَرَهُ قَبْلَ ذَلِكَ فَلَقِينَا رَجُلاً مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، فَسَأَلْنَاهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: هَلْ تَعْرِفَانِهِ؟ فَقُلْنَا: لاَ. قَالَ: فَهَلْ تَعْرِفَانِ العَبَّاسَ بنَ عَبْدِ المُطَّلِبِ عَمَّهُ؟ قُلْنَا: نَعَمْ ـ وَقَدْ كُنَّا نَعْرِفُ العَبَّاسَ، كَانَ لاَ يَزَالُ يَقْدُمُ عَلَيْنَا تَاجِراً ـ قَالَ: فَإِذَا دَخَلْتُمَا المَسْجِدَ فَهُوَ الرَّجُلُ الجَالِسُ مَعَ العَبَّاسِ . فَدَخَلْنَا المَسْجِدَ فَإِذَا العَبَّاسُ جَالِسٌ، وَرَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، جَالِسٌ مَعَهُ، فَسَلَّمْنَا ثُمَّ جَلَسْنَا إِلَيْهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِلْعَبَّاسِ : هَلْ تَعْرِفُ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ يَا أَبَا الفَضْلِ ؟ قَالَ: نَعَمْ، هَذَا البَرَاءُ بنُ مَعْرُورٍ، سَيِّدُ قَوْمِهِ؛ وَهَذَا كَعْبُ بنُ مَالِكٍ. فَوَاللَّهِ

مَا أَنْسَى قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الشَّاعِرُ؟ قَالَ: نَعَم. فَقَالَ لَهُ البَرَاءُ بنُ مَعْرُورٍ: يَا نَبِيَّ اللَّـهِ، إِنِّـي خَرَجْتُ فِي سَفَرِي هَذَا، وَقَدْ هَدَانِي اللَّهُ لِلإِسلاَمِ، فَرَأَيْتُ أَنْ لاَ أَجْعَلَ هَذِهِ البَنِيَّةَ مِنِّي بِظَهْرٍ، فَصَلَّيْتُ إِلَيْهَا، وَقَـدْ خَالَفَنِـي أَصْحَابِي فِي ذَلِكَ، حَتَّى وَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ، فَمَاذَا تَرَى يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: قَدْ كُنْتَ عَلَى قِبْلَةٍ لَوْ صَبَرْتَ عَلَيْهَا. فَرَجَعَ البَرَاءُ إِلَى قِبْلَةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّـمَ، فَصَلَّى مَعَنَا إِلَى الشَّامِ. وَأَهْلُهُ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ صَلَّى إِلَى الكَعْبَةِ حَتَّى مَاتَ، وَلَيْسَ ذَلِكَ كَمَا قَالُوا، نَحْنُ أَعْلَمُ بِهِ مِنْهُمْ.

كَمَا حَدَّثَ كَعْبُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: ثُمَّ خَرَجْنَا إِلَى الحَـجِّ، وَوَاعَدْنَا رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، العَقَبَةَ مِنْ أَوْسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ، فَلَمَّا فَرَغْنَا مِنَ الحَجِّ، وَكَانَـتِ اللَّيْلَـةُ الَّتِـي وَاعَدْنَا رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّـى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّـمَ، لَهَـا، وَمَعَنَـا عَبْدُ اللَّهِ بنُ عَمْروِ بنِ حَرَامٍ أَبُو جَابِـرٍ، سَيِّدٌ مِنْ سَادَاتِنَـا، وَشَرِيفٌ مِنْ أَشْرَافِنَا، أَخَذْنَاهُ مَعَنَا، وَكُنَّا نَكْتُمُ مَنْ مَعَنَـا مِنْ قَوْمِنَا مِنَ المُشْرِكِينَ أَمْرَنَا، فَكَلَّمْنَاهُ وَقُلْنَا لَهُ: يَا أَبَا جَابِرٍ، إِنَّكَ سَيِّدٌ مِنْ سَادَاتِنَا، وَشَرِيفٌ مِنْ أَشْرَافِنَا، وَإِنَّا نَرْغَبُ بِك عَمَّا أَنْتَ فِيهِ أَنْ تَكُونَ حَطَباً لِلنَـار غَداً، ثُمَّ دَعَوْنَـاهُ لِلإِسْـلاَمِ،

وَأَخْبَرْنَاهُ بِمِيعَادِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِيَّانَا العَقَبَةَ. فَأَسْلَمَ وَشَهِدَ مَعَنَا العَقَبَةَ، وَكَان نَقِيباً.

فَنِمْنَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ مَعَ قَوْمِنَا فِي رِحَالِنَا، حَتَّى إِذَا مَضَى ثُلُثُ اللَّيْلِ خَرَجْنَا مِنْ رِحَالِنَا لِمِيعَادِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، نَتَسَلَّلُ تَسَلُّلَ القَطَا مُسْتَخْفِينَ، حَتَّى اجْتَمَعْنَا فِي الشِّعْبِ عِنْدَ العَقَبَةِ، وَنَحْنُ ثَلاَثَةٌ وَسَبْعُونَ رَجُلاً، وَمَعَنَا امْرَأَتَانِ مِنْ نِسَائِنَا: نُسَيْبَةُ بِنْتُ كَعْبٍ، أُمُّ عُمَارَةٍ، إِحْدَى نِسَاءِ بَنِي مَازِنِ بنِ النَّجَّارِ، وَأَسْمَاءُ بِنْتُ عَمْرِوِ بنِ عَدَيٍّ بنِ نَابِي، إِحْدَى نِسَاءِ بَنِي سَلَمَةَ، وَهِيَ أُمُّ مَنِيعٍ.

فَاجْتَمَعْنَا فِي الشِّعْبِ نَنْتَظِرُ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَتَّى جَاءَنَا وَمَعَهُ عَمُّهُ العَبَّاسُ بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ عَلَى دِينِ قَوْمِهِ[1]، إِلاَّ أَنَّهُ أَحَبَّ أَنْ يَحْضُرَ أَمْرَ ابنِ أَخِيهِ وَيَتَوَثَّقُ لَهُ. فَلَمَا جَلَسَ كَانَ أَوَّلَ مُتَكَلِّمٍ العَبَّاسُ بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الخَزْرَجِ ـ قَالَ: وَكَانَتِ العَرَبُ إِنَّمَا يُسَمُّونَ هَذَا الحَيَّ مِنَ الأَنْصَارِ، خَزْرَجِهَا وَأَوْسِهَا ـ: إِنَّ

(١) كان هذا ظاهر العباس، رضي الله عنه، والواقع أنه كان مسلماً وعيناً لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، على أهل مكّة، ولا يعرف هذا أحد، لذا لا يمكن أن يقول إلاّ هذا فلو قال غير ذلك لبطلت المهمة المناطة به.

مُحَمَّداً مِنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتُمْ، وَقَدْ مَنَعْنَاهُ مِنْ قَوْمِنَا، مِمَّنْ هُوَ عَلَى مِثْلِ رَأْيِنَا فِيْهِ، فَهُوَ فِي عِزٍّ مِنْ قَوْمِهِ وَمَنَعَةٍ فِي بَلَدِهِ، وَإِنَهُ قَدْ أَبِى إلاَّ الانْحِيَازَ إِلَيْكُمْ، واللُّحُوقَ بِكُمْ، فَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ وَافُونَ لَهُ بِمَا دَعَوْتُمُوهُ إِلَيْهِ، وَمَانِعُوهُ مِمَّنْ خَالَفَهُ، فَأَنْتُمْ وَمَا تَحَمَّلْتُمْ مِنْ ذَلِكَ، وَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ مُسَلِّمُوهُ وَخَاذِلُوهُ بَعْدَ الخُرُوجِ بِهِ إِلَيْكُمْ، فَمِنَ الآنَ فَدَعُوهُ، فَإِنَّهُ فِي عِزَّةٍ وَمَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ وَبَلَدِهِ، فَقُلْنَا لَهُ: قَدْ سَمِعْنَا مَا قُلْتَ، فَتَكَلَّمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَخُذْ لِنَفْسِكَ وَلِرَبِّكَ مَا أَحْبَبْتَ.

فَتَكَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَتَلاَ القُرْآنَ، وَدَعَا إِلَى اللَّهِ، وَرَغَّبَ فِي الإِسْلاَمِ، ثُمَّ قَالَ: أُبَايِعُكُمْ عَلَى أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ نِسَاءَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ. فَأَخَذَ البَرَاءُ بنُ مَعْرُورٍ بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ: نَعم، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ نَبِيَّاً، لَنَمْنَعَنَّكَ مِمَّا نَمْنَعُ أُزُرَنَا، فَبَايِعْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَنَحْنُ وَاللَّهِ أَبْنَاءُ الحُرُوبِ، وَأَهْلُ الحَلْقَةِ، وَرِثْنَاهَا كَابِراً عَنْ كَابِرٍ. فَاعْتَرَضَ القَوْلَ، وَالبَرَاءُ يُكَلِّمُ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَبُو الهَيْثَمِ بنُ التَّيِّهَانِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الرِّجَالِ حِبَالاً، وَإِنَّا قَاطِعُوهَا ـ يَعْنِي اليَهُودَ ـ فَهَلْ عَسَيْتَ إِنْ نَحْنُ فَعَلْنَا ذَلِكَ، ثُمَّ أَظْهَرَكَ اللَّهُ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى

قَوْمِكَ وَتَدَعْنَا؟ فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: بَلِ الدَّمَ الدَّمَ، والهَدْمَ الهَدْمَ، أَنَا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مِنِّي، أُحَارِبُ مَنْ حَارَبْتُمْ وَأُسَالِمُ مَنْ سَالَمْتُمْ.

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَخْرِجُوا إِلَيَّ مِنْكُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً، لِيَكُونُوا عَلَى قَوْمِهِمْ بِمَا فِيهِمْ، فَأَخْرَجُوا مِنْهُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً، تِسْعَةً مِنَ الخَزْرَجِ وَثَلاثَةً مِنَ الأَوْسِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِلنُّقَبَاءِ: أَنْتُمْ عَلَى قَوْمِكُمْ بِمَا فِيهِمْ كُفَلاءَ، كَكَفَالَةِ الحَوَارِيِّينَ لِعِيسَى بنِ مَرْيَمَ، وَأَنَا كَفِيلٌ عَلَى قَوْمِي -يَعْنِي المُسْلِمِينَ- قَالُوا: نَعَم.

وَقَالَ العَبَّاسُ بنُ عُبَادَةَ بنِ نَضْلَةَ الأَنْصَارِيُّ: يَا مَعْشَرَ الخَزْرَجِ، هَلْ تَدْرُونَ عَلامَ تُبَايِعُونَ هَذَا الرَّجُلِ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: تُبَايِعُونَهُ عَلَى حَرْبِ الأَحْمَرِ وَالأَسْوَدِ مِنَ النَّاسِ، فَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ إِذَا نُهِكَتْ أَمْوَالُكُمْ مُصِيبَةً، وَأَشْرَافُكُمْ قَتْلاً أَسْلَمْتُمُوهُ، فَمِنَ الآنَ، فَهُوَ وَاللَّهِ إِنْ فَعَلْتُمْ خِزْيُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ وَافُونَ لَهُ بِمَا دَعَوْتُمُوهُ إِلَيْهِ عَلَى نَهْكَةِ الأَمْوَالِ، وَقَتْلِ الأَشْرَافِ، فَخُذُوهُ، فَهُوَ وَاللَّهِ، خَيْرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ؛ قَالُوا: فَإِنَّا نَأْخُذُهُ عَلَى مُصِيبَةِ الأَمْوَالِ وَقَتْلِ الأَشْرَافِ؛ فَمَا لَنَا بِذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ نَحْنُ وَفَّينَا

بِذَلِكَ؟ قَالَ: الجَنَّةَ. قَالُوا: ابْسُطْ يَدَكَ، فَبَسَطَ يَدَهُ فَبَايَعُوهُ.

فَلَمَّا بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، صَرَخَ الشَّيْطَانُ مِنْ رَأْسِ العَقَبَةِ بِأَنْفَذِ صَوْتٍ سَمِعْتُهُ قَطُّ: يَا أَهْلَ الجَبَاجِبِ[1] هَلَ لَكُمْ فِي مُذَمَّمٍ وَالصُّبَأَةُ مَعَهُ قَدِ اجْتَمَعُوا عَلَى حَرْبِكُمْ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَذَا أَزَبُّ العَقَبَةِ[2]، هَذَا ابنُ أُزَيْبٍ، أَتَسْمَعُ أَيْ عَدُوَّ اللَّهِ، أَمَا وَاللَّهِ لأَفْرَغَنَّ لَكَ.

ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ارْفَضُّوا إِلَى رِحَالِكُمْ. فَقَالَ لَهُ العَبَّاسُ بنُ عُبَادَةَ بن نَضْلَةَ: وَاللَّهِ الَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ: إنْ شِئْتَ لَنَمِيلَنَّ عَلَى أَهْلِ مِنَىً غَداً بِأَسْيَافِنَا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَمْ نُؤْمَرْ بِذَلِكَ، وَلَكِن ارْجِعُوا إِلَى رِحَالِكُمْ. فَرَجَعْنَا إِلَى مَضَاجِعِنَا فَنِمْنَا عَلَيْهَا حَتَّى أَصْبَحْنَا.

فَلَمَّا أَصْبَحْنَا غَدَتْ عَلَيْنَا جِلَّةُ قُرَيْشٍ حَتَّى جَاءُونَا فِي مَنَازِلِنَا، فَقَالُوا: يَا مَعْشَرَ الخَزْرَجِ، إِنَّهُ قَدْ بَلَغَنَا أَنَّكُمْ قَدْ جِئْتُمْ إِلَى صَاحِبِنَا هَذَا تَسْتَخْرِجُونَهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِنَا، وَتُبَايِعُونَهُ

(١) الجباجب: منازل منى.
(٢) أزب: اسم شيطان العقبة.

عَلَى حَرْبِنا، وَإِنَّهُ وَاللَّهِ مَا مِنْ حَيٍّ مِنَ العَرَبِ أَبْغَضُ إِلَيْنا، أَنْ تَنْشِبَ الحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، مِنْكُمْ. فَانْبَعَثَ مِنْ هُنَاكَ مِنْ مُشْرِكِي قَوْمِنَا يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ هَذَا شَيْءٌ، وَمَا عَلِمْنَاهُ - وَقَدْ صَدَقُوا لَمْ يَعْلَمُوهُ - وَبَعْضُنَا يَنْظُرُ إِلَى بَعْضٍ. ثُمَ قَامَ القَوْمُ، وَفِيْهِمْ الحَارِثُ بنُ هِشَامٍ بنِ المُغِيرَةِ المَخْزُومِيِّ، وَعَلَيْهِ نَعْلاَنِ لَهُ جَدِيدَانِ. فَقُلْتُ لَهُ كَلِمَةً: يَا أَبَا جَابِرٍ، أَمَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَتَّخِذَ، وَأَنْتَ سَيِّدٌ مِنْ سَادَاتِنَا، مِثْلَ نَعْلَيْ هَذَا الفَتَى مِنْ قُرَيْشٍ؟ فَسَمِعَهَا الحَارِثُ، فَخَلَعَهُمَا مِنْ رِجْلَيْهِ ثُمَّ رَمَى بِهِمَا إِلَيَّ، وَقَالَ: وَاللَّهِ لَتَنْتَعِلَنَّهُمَا. قَالَ أَبُو جَابِرٍ: مَهْ: أَحْفَظْتَ وَاللَّهِ الفَتَى، فَارْدُدْ إِلَيْهِ نَعْلَيْهِ. قُلْتُ: وَاللَّهِ لاَ أَرُدُّهُمَا، فَأْلٌ وَاللَّهِ صَالِحٌ، لَئِنْ صَدَقَ الفَأْلُ لأَسْلِبَنَّهُ.

وَنَفَرَ النَّاسُ مِنْ مِنَى، فَتَنَطَّسَ[1] القَوْمُ الخَبَرَ، فَوَجَدُوهُ قَدْ كَانَ، وَخَرَجُوا فِي طَلَبِ القَوْمِ، فَأَدْرَكُوا سَعْدَ بنَ عُبَادَةَ بِأَذَاخِرِ، وَالْمُنْذِرَ بنَ عَمْرٍو، أَخَابَنِي سَاعِدَةَ بنِ كَعْبِ بنِ الخَزْرَجِ، وَكِلاَهُمَا كَانَ نَقِيباً. فَأَمَّا الْمُنْذِرُ فَأَعْجَزَ القَوْمَ، وَأَمَّا سَعدٌ فَأَخَذُوهُ، فَرَبَطُوا يَدَيْهِ إِلَى عُنُقِهِ بِنَسْعِ رَحْلِهِ ثُمَّ أَقْبَلُوا بِهِ حَتَّى أَدْخَلُوهُ مَكَّةَ يَضْرِبُونَهُ وَيَجْذِبُونَهُ بِجُمَّتِهِ، وَكَانَ

---

(١) تنَطس القوم الخبر: أكثروا البحث عنه.

ذَا شَعْرٍ كَثِيرٍ[١].

وَوَصَلَ الحَاجُّ اليَثْرِبيُّ إلَى مَدِينَتِهِمْ، وَمَا هِيَ إلاَّ أَشْهُرٌ حَتَّى هَاجَرَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إلَى المَدِينَةِ بَعْدَ أَنْ سَبَقَهُ أَكْثَرُ أَصْحَابِهِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، إلَيْهَا.

وَيَفْخَرُ بِبَيْعَةِ العَقَبَةِ، وَيَتَهَدَّدُ زُعَمَاءَ قُرَيْشٍ أُبَيَّ بنَ خَلَفٍ وَأَبَا سُفْيَانَ، وَيُثْنِي عَلَى نُقَبَاءِ الأَنْصَارِ وَيَذْكُرُ فَضَائِلَهُمْ فَيَقُولُ:

أَبْلِغْ أُبَيّاً[٢] أَنَّهُ فَالَ رَأْيُهُ
وَحَانَ غَدَاةَ الشِّعْبِ، وَالحَيْنُ وَاقِعُ
أَبَى اللَّهُ مَا مَنَّتْكَ نَفْسُكَ، إِنَّهُ
بِمِرْصَادِ أَمْرِ النَّاسِ رَاءٍ وَسَامِعُ
وَأَبْلِغْ أَبَا سُفْيَانَ[٣] أَنْ قَدْ بَدَا لَنَا
بِأَحْمَدَ نُورٌ مِنْ هُدَى اللَّهِ سَاطِعُ

---

(١) ثم أفلت القوم سعداً بعد أن أجاره بعضهم وهما: جبير بن مطعم بن عدي، والحارث بن حرب بن أمية بن عبد شمس.
أنظر سيرة ابن هشام.

(٢) أبيّ بن خلف الجمحي.

(٣) أبو سفيان صخر بن حرب الأموي.

فَــلاَ تَرْغَبَــنْ فِي حَشْــدِ أَمْــرٍ تُرِيدُهُ
وَأَلِّــبْ وَجَمِّــعْ كُلَّ مَا أَنْــتَ جَامِعُ

أَبَاهُ البَرَاءُ[1]، وَابْنُ عَمْروٍ[2]، كِلاَهُمَا
وَأَسْعَــدُ[3] يَأْبَــاهُ عَلَيْكَ، وَرَافِعُ[4]

وَسَعْــدُ[5] أَبَــاهُ السَّاعِــدِيُّ، وَمُنْذِرٌ[6]
لأَنْفِــكَ، إِنْ حَاوَلْــتَ ذَلِكَ، جَادِعُ

وَمَـا ابْــنُ رَبِيعٍ[7]، إِنْ تَنَاوَلْــتَ عَهْدَهُ
بِمُسْلِمِــهِ، لاَيَطْمَعَــنْ ثَمَّ طَامِعُ

وَأَيْضَــاً فَلاَ يُعْــطِيكَهُ ابــنُ رَوَاحَةٍ[8]
وَإِخْفَــارُهُ مِنْ دُونِــهِ السُّــمُّ نَاقِعُ

وَفَــاءً بِهِ، وَالْقَوْقَلِيُّ ابــنُ صَامِتٍ[9]
بِمَنْدُوحَــةٍ عَمَّــا تُحَــاوِلُ يَافِعُ

---

(١) البراء بن معرور.
(٢) أبو جابر عبد الله بن عمرو بن حرام
(٣) أسعد بن زرارة.
(٤) رافع بن مالك.
(٥) سعد بن عبادة.
(٦) المنذر بن عمرو.
(٧) سعد بن الربيع.
(٨) عبد الله بن رواحة.
(٩) عبادة بن الصامت.

أَبُــو هَيْثَــمٍ[1] أَيْضَــاً وَفِــيٌّ بِمِثْلِهَا
وَفَـاءً بِمَـا أَعْطَــى مِنَ العَهْــدِ، خَانِعُ
وَمَا ابنُ حُضَيْرٍ[2]، إِنْ أَرَدْتَ بِمَطْمَعٍ
فَهَـلْ أَنْـتَ عَنْ أُحْمُوقَــةِ الغَــيِّ نَازِعُ
وَسَعْدٌ[3]، أَخُو عَمْرِو بنِ عَوْفٍ، فَإِنَّهُ
ضَــرَوحٌ لِمَــا حَاوَلْــتَ لِلأَمْــرِ مَانِعُ
أُولاَكَ نُجُــومٌ، لاَ يُغِبُّــكَ مِنْهُمُ
عَلَيْكَ بِنَحْسٍ فِي دُجَى اللَّـيْلِ طَالِعُ

وَكَانَ كَعْبُ بنُ مَالِكٍ، رَضِيَ اللَّـهُ عَنْـهُ، يَعْتَـزُّ بِشَهَادَتِـهِ العَقَبَةَ. فَكَانَ يَقُولُ: وَلَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَيْعَةَ العَقَبَةِ حِيْنَ تَوَاثَقْنَـا عَلَـى الإِسْلاَمِ، وَمَـا أُحِبُّ أَنَّ لِيَ بِهَا مَشْهَدَ بَدْرٍ، وَإِنْ كَانَتْ بَدْرُ أَذْكَرُ فِي النَّاسِ مِنْها[4].

(١) أبو الهيثم بن التيهان.
(٢) أسيد بن الحضير.
(٣) سعد بن خيثمة.
(٤) رواه البخاري ومسلم.

مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وَهَاجَرَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنْ مَكَّةَ إِلَى المَدِينَةِ، وَنَزَلَ فِي دَارِ أَبِي أَيُّوب خَالِدِ بن زَيْدٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَلاَزَمَ كَعْبٌ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَانَ يَمْدَحُهُ، وَيَفْخَرُ بِتَصْدِيقِهِ لِلرَّسُولِ الكَرِيم، وَيَتَهَدَّدُ الكُفَّارَ، وَيَرُدُّ عَلَى شُعَرَائِهِم، وَيَهْجُوهُم.

قَالَ ابنُ سِيرِينَ: كَانَ شُعَرَاءُ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: حَسَّانُ بنُ ثَابِتٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بنُ رَوَاحَةَ، وَكَعْبُ بنُ مَالِك. أَمَّا كَعْبُ، فَكَانَ يَذْكُرُ الحَرْبَ، يَقُولُ: فَعَلْنَا وَنَفْعَلُ وَيَتَهَدَّدُ المُشْرِكِينَ. وَأَمَّا حَسَّانُ فَكَانَ يَذْكُرُ عُيُوبَهُمْ وَأَيَّامَهُمْ، وَأَمَّا ابنُ رَوَاحَةَ، فَكَانَ يُعَيِّرُهُمْ بِالكُفْرِ[١].

عَن ابْنِ المُنكَدِرِ، عَن جَابِرٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ لِكَعْبِ بن مَالِكٍ: «وَمَا نَسِيَ رَبُّكَ لَكَ ـ وَمَا كَانَ رَبُّك نَسِيًّاً ـ بَيْتاً قُلْتَهُ» قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: «أَنْشِدَهُ يَا أَبَا بَكْرٍ»، فَقَالَ:

(١) سير أعلام النبلاء ج ٢ ص ٥٢٥.

زَعَمَتْ سَخِينَةُ أَنْ سَتَغْلِبُ رَبَّهَا
وَلَيُغْلَبَنَّ مُغَالِبُ الغَلاَّبِ[1]

فَنَرَاهُ مَثَلاً يُنْكِرُ عَلَى قُرَيْشٍ مَعْصِيَتَهُمْ لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنَّ نُورَ النُّبُوَةِ لَوَاضِحٌ، وَأَنَّهُ يَفْدِي رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِالأَهْلِ وَالمَالِ فَيَقُولُ:

عَصَيْتُمْ رَسُولَ اللَّهِ، أُفٌّ لِدِينِكُمْ
وَأَمْرِكُمُ السَّيِّءِ كَانَ غَاوِيَا
فَإِنِّي وَإِنْ عَنَّفْتُمُونِي، لَقَائِلٌ
فِدَىً لِرَسُولِ اللَّهِ أَهْلِي وَمَالِيَا
أَطَعْنَاهُ، لَمْ نَعْدِلْهُ بِغَيْرِهِ
شِهَاباً لنا في ظُلْمَةِ اللَّيْلِ هَادِيَا

وَيَتَكَلَّمُ عَنْ صِفَاتِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَقُولُ:

فِينَا الرَّسُولُ شِهَابٌ، ثُمَّ يَتْبَعُهُ
نُورٌ مُضِيْءٌ، لَهُ فَضْلٌ عَلَى الشُّهُبِ

---

(١) السخينة: طعام من دقيق وسمن، كانت قريش تكثر من أكله فلقبها به. أورده صاحب كنز العمال ونسبه لابن منده، وابن عساكر. (عن سير أعلام النبلاء).

الحَــقُّ مَنْطِقُــهُ، وَالْعَــدْلُ سِيْرَتُهُ
فَمَــنْ يُجِبْــهُ إِلَيْهِ، يَنْــجُ مِنْ تَبَبِ
نَجِـدُ المُقَـدَّمِ ، مَاضِـي الهَـمِّ، مُعْتَزِمٌ
حِينَ القُلُـوبِ عَلَـى رَجْفٍ مِنَ الرُّعُبِ
يَمْضِــي، وَيَذْمُرُنَــا عَنْ غَيْرِ مَعْصِيَةٍ
كَأَنَّـهُ البَـدْرُ، لَمْ يُطْبَـعْ عَلَـى الكَذِبِ
بَــدَا لَنَــا، فَاتَّبَعْنَــاهُ نُصَدِّقُهُ
وَكَذَّبُــوهُ، فَكُنَّــا أَسْعَــدَ العَرَبِ

وَيَقُولُ فِي رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَيْضاً:

فَــإِنْ يَكُ مُوسَــى كَلَّــمَ اللَّــهَ جَهْرَةً
عَلَـى جَبَـلِ الطُّــورِ المُنِيفِ المُعَظَّمِ
فَقَــدْ كَلَّــمَ اللَّــهُ النَّبِــيَّ مُحَمَّداً
عَلَى المَوْضِعِ الأَعْلَى الرَّفِيعِ المُسَوَّمِ
وَإِنْ تَكُ نَمْلُ البَــرِّ بِالوَهْــمِ كَلَّمَتْ
سُلَيْمَانَ ذَا المُلْكِ الَّـذِي لَيْسَ بِالعَمِي
فَهَــذَا نَبِــيُّ اللَّــهِ أَحْمَــدُ سَبَّحَتْ
صِغَــارُ الحَصَــى فِي كَفِّــهِ بِالتَّرَنُّمِ

المُؤاخَاةُ

بَعْدَ أَنْ وَصَلَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَى المَدِينَةِ مُهاجِراً آخَى بَيْنَ المُسْلِمِينَ لاَ فَرْقَ بَيْنَ مُهَاجِرِهِمْ وَأَنْصَارِيِّهِمْ كَيْ يَكُونُوا كُتَلَةً وَاحِدَةً أَمَامَ أَعْدَائِهِمْ سَوَاءً أَكَانُوا يَهُوداً دَاخِلَ المَدِينَةِ أَمْ قُرَيْشاً فِي مَكَّةَ أَمْ مُشْرِكِي العَرَبِ أَيْنَمَا كَانُوا، وَلَمْ تَكُنْ مُؤَاخَاةٌ بَيْنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ كَمَا فَهِمَ بَعْضُهُمْ ـ خَطَأً ـ مِنَ النُّصُوصِ أَوْ كَمَا تَوَهَّمَ بَعْضُهُمْ حَتَّى غَدَا هَذَا شَائِعاً بَيْنَ النَّاسِ، فَنَجِدُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَدْ آخَى بَيْنَهُ ـ وَهُوَ سَيِّدُ البَشَرِ ـ وَبَيْنَ ابنِ عَمِّهِ عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ وَكِلاَهُمَا مُهَاجِرٌ، وَبَيْنَ عَمِّهِ حَمْزَةَ ابنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ وَبَيْنَ مَوْلاَهُ زَيْدِ بنِ حَارِثَةَ وَكِلاَهُمَا مُهَاجِرٌ، وَبَيْنَ بِلاَلِ بنِ رَبَاحٍ وَعَبْدِ اللَّهِ الخَثْعَمِيِّ وَكِلاَهُمَا مُهَاجِرٌ، وَبَيْنَ جَعْفَرَ بنِ أَبِي طَالِبٍ وَمُعَاذِ بنِ جَبَلٍ وَجَعْفَرٌ غَائِبٌ، وَبَيْنَ الزُّبَيْرِ بنِ العَوَّامِ وَعَبْدِ اللَّهِ بنِ مَسْعُودٍ وَكِلاَهُمَا مُهَاجِرٌ.

رَوَى ابْنُ إِسْحَاقَ فَقَالَ: آخَى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ طَلْحَةَ بنِ عُبَيْدِ اللَّهِ، وَكَعْبِ بنِ مَالِكٍ.

وَقَالَ الوَاقِدِيُّ: حَدَّثَنَا ابنُ الزِّنَادِ، عَنْ هِشَامِ بنِ عُرْوَةَ،

عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: آخَى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَيْنَ الزُّبَيْرِ وَبَيْنَ كَعْبِ بنِ مَالِكٍ. وَيَبْدُو أَنَّ رِوَايَةَ ابْنِ إِسْحَاقَ هِيَ الصَّحِيحَةُ ـ وَاللَّهُ أَعْلَمُ ـ.

مَعَ مَعْرَكَةِ بَدْرٍ

لَمَّا عَلِمَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِعِيرِ أَبِي سُفْيَانَ مُقْبِلَةً مِنَ الشَّامِ نَدَبَ الْمُسْلِمِينَ إِلَيْهَا، وَقَالَ: «هَذِهِ عِيرُ قُرَيْشٍ، فِيهَا أَمْوَالُهُمْ، فَاخْرُجُوا إِلَيْهَا لَعَلَّ اللَّهَ يُنْفِلُكُمُوهَا». فَانْتَدَبَ النَّاسُ، فَخَفَّ بَعْضُهُمْ وَثَقُلَ بَعْضُهُمْ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمْ يَظُنُّوا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَلْقَى حَرْباً. وَكَانَ كَعْبُ بنُ مَالِكٍ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ لَمْ يَخْرُجُوا، فَلَمْ يَشْهَدْ بَدْراً. غَيْرَ أَنَّهُ فَخَرَ بِنَصْرِ الْمُسْلِمِينَ فَيَقُولُ:

لَعَمْرُ أَبِيكُمَا يَا بَنِي لُؤَيٍّ
عَلَى زَهْوٍ لَدَيْكُمْ وَانْتِخَاءِ
لَمَّا حَامَتْ فَوَارِسُكُمْ بِبَدْرٍ
وَلاَ صَبَرُوا بِهِ عِنْدَ اللِّقَاءِ
وَرَدْنَاهُ بِنُورِ اللَّهِ، يَجْلُو
دُجَى الظَّلْمَاءِ عَنَّا وَالغِطَاءِ

رَسُـولُ اللَّـهِ يَقْدُمُنَـا بِأَمْرٍ
مِـنَ امْـرِ اللَّـهِ أُحْـكِمَ بِالقَضَاءِ
فَمَا ظَفِـرَتْ فَوَارِسُـكُمْ بِبَدْرٍ
وَمَـا رَجَعُـوا إِلَيْكُمْ بِالسَّواءِ
فَـلاَ تَعْجَـلْ أَبَـا سُفْيَانَ، وَارْقُبْ
جِيَادَ الخَيْلِ تَطْلُـعُ مِنْ كَدَاءِ
بِنَصرِ اللَّـهِ رُوحُ القُـدْسِ فِيهَا
وَمِيكَالُ فَيَا طِيبَ المَلاَءِ

غَيْرَ أَنَّ قُرَيْشاً بَدَأَتْ تَسْتَعِدُّ لِنِزالِ المُسْلِمينَ مَرَّةً أُخْرَى، وَقَامَ شُعَرَاؤُهَا وَمَنْ أَيَّدَهُمْ مِنَ الشُّعَرَاءِ الآخَرِينَ يَتَوَعَّـدُونَ الأَنْصَارَ وَيَتَهدَّدُونَ المُسْلِمينَ، وَكَانَ لاَ بُدَّ لِشُعَرَاءِ المُسْلِمِينَ مِنْ أَنْ يَرُدُّوا عَلَيْهِمْ، وَكَانَ سِلاَحُهُـمْ تَذْكِيرُ قُرَيْشٍ بِمَعْـرَكَةِ بَدْرٍ، وصَرْعَى رُؤُوسِهِمْ فِي مَيْدَانِهَا، وَأَنَّ عَذَاباً أَشَدُّ يَنْتَظِرُهُمْ، هُوَ عَذَابُ يَوْمِ القِيَامَةِ لِمَا نَسُوا يَوْمَ الحِسَابِ، وَلِبَغْيِهِمْ وَظُلْمِهِـمْ وَمُحَارَبَتِهِمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ. وَأَنَّ اللَّـهَ بِيَدِهِ مَلَـكُوتُ السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّ النَّصْرَ بِيَدِهِ، يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ، ثُمَّ إِنَّ المُسْلِمِينَ جَمِيعاً قُوةٌ تُحِيطُ بِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَحْمِيهِ، وَنَرَى كَعْبَ بنَ مَالِكٍ مَثَلاً يَقُولُ فِي الرَدِّ عَلَى ضِرَارِ بنِ الخَطَّابِ:

عَجِبْتُ لأَمْرِ اللَّهِ، وَاللَّهُ قَادِرٌ
عَلَى مَا أَرَادَ، لَيْسَ لِلَّهِ قَاهِرُ
قَضَى يَوْمَ بَدْرٍ أَنْ نُلاَقِيَ مَعْشَراً
بَغَوْا، وَسَبِيلُ البَغْيِ بِالنَّاسِ جَائِرُ
وَقَدْ حَشَدُوا وَاسْتَنْفَرُوا مَنْ يَلِيهِمُ
مِنَ النَّاسِ، حَتَّى جَمْعُهُمْ مُتَكَاثِرُ
وَسَارَتْ إِلَيْنَا لاَ تُحَاوِلُ غَيْرَنَا
بِأَجْمَعِهَا كَعْبٌ جَمِيعاً، وَعَامِرُ
وَفِينَا رَسُولُ اللَّهِ، وَالأَوْسُ حَوْلَهُ
لَهُ مَعْقِلٌ مِنْهُمْ عَزِيزٌ، وَنَاصِرُ
وَجَمْعُ بَنِي النَّجَّارِ تَحْتَ لِوَائِهِ
يَمْشُونَ فِي المَاذِيِّ[1]، وَالنقْعُ ثَائِرُ
فَلَمَّا لَقِينَاهُمْ، وَكُلٌّ مُجَاهِدٌ
لأَصْحَابِهِ، مُسْتَبْسِلُ النَّفْسِ صَابِرُ
شَهِدْنَا بِأَنَّ اللَّهَ لاَرَبٌّ غَيْرُهُ
وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ بِالحَقِّ ظَاهِرُ
وَقَدْ عُرِّيَتْ بِيضٌ خِفَافٌ كَأَنَّهَا
مَقَابِيسُ[2]، يُزْهِيهَا لِعَيْنَيْكَ شَاهِرُ

(١) الدروع اللينة.
(٢) مقابيس: شعل من النار.

بِهِـنَّ أَبَدْنَـا جَمْعَهُـمْ فَتَبَدَّدُوا
وَكَانَ يُلاَقِـي الحَـيْنَ مَنْ هُوَ فَاجِرُ
فَـكُبَّ أَبُـو جَهْـلٍ صَرِيعَـاً لِوَجْهِهِ
وَعُتْبَـةُ قَدْ غَادَرْنَـهُ، وَهُـوَ عَاثِرُ
وَشَيْبَـةُ وَالتَّيْمِـيُّ غَادَرْنَ فِي الوَغَى
وَمَـا مِنْهُـمْ إِلاَّ بِذِي العَـرْشِ كَافِرُ
فَأَمْسَـوْا وَقُـودَ النَّـارِ فِي مُسْتَقَرِّهَا
وَكُلُّ كَفُـورٍ فِي جَهَنَّـمَ صَائِرُ
تَلَظَّـى عَلَيْهِـمْ، وَهِـيَ قَدْ شَبَّ حَمْيُهَا
بِزُبْـرِ الحَـدِيدِ وَالحِجَـارَةِ سَاجِرُ
وَكَانَ رَسُـولُ اللَّـهِ قَدْ قَالَ: أَقْبِلُوا
فَوَلَّـوْا، وَقَالُـوا: إِنَّمَـا أَنْـتَ سَاحِرُ
لأَمْـرٍ أَرَادَ اللَّـهُ أَنْ يَهْلِـكُوا بِهِ
وَلَيْسَ لأَمْـرٍ حَمَّـهُ اللَّـهُ زَاجِرُ

مَعَ مَعْرَكَةِ أُحُدٍ

لَمَّا تَكَامَلَتْ جُمُوعُ قُرَيْشٍ وَحُشُودُهَا اتَّجَهَتْ نَحْـوَ المَدِينَـةِ، وَعَسْكَرَتْ إِلَى الشَّمَالِ مِنْهَـا قَرِيبَـاً مِنْ جَبَلِ أُحُـدٍ، وَخَـرَجَ المُسْلِمُونَ إِلَيْهَا بَعْدَ أَنِ اتَّجَهَ رَأْيُ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّـهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ، فِي البِدَايَةِ إِلَى التَحَصُّنِ فِي المَدِينَةِ.

رَتَّبَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، المُقَاتِلِينَ، وَوَزَّعَهُمْ عَلَى أَمَاكِنِهِمْ، وَابْتَدَأَتِ المَعْرَكَةُ، وَكَانَ النَّصْرُ فِيهَا لِلْمُسْلِمِينَ، غَيْرَ أَنَّ نَشْوَةَ النَّصرِ قَدْ جَعَلَتْ بَعْضَهُمْ يَتْرُكُونَ مَوَاقِعَهُمْ مُخَالِفِينَ أَوَامِرَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَاخْتَلَّ النِّظَامُ، وَانْقَلَبَ النَّصْرُ إِلَى تَرَاجُعٍ فَقَدَ فِيْهِ المُسْلِمُونَ شُهَدَاءَ كِرَاماً مِنْهُمْ أَسَدُ اللَّهِ الحَمْزَةُ بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ، عَمُّ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَعَبْدُ اللَّهِ بنُ جَحْشٍ، وَسَعْدُ بنُ الرَّبِيعِ، وَمُصْعَبُ بنُ عُمَيرٍ وَغَيْرُهُمْ، وَأَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ شُجَّ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكُسِرَتْ رُبَاعِيتُهُ، وَدَخَلَتْ حَلْقَتَا المَغْفَرِ فِي وَجْنَتِهِ الشَّرِيفَةِ، وَكَانَ ذَلِكَ دَرْساً لِلْمُسْلِمِينَ كَيْ يَتَجَنَّبُوا مُخَالَفَةَ أَوَامِرِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْهُمْ شُهَدَاءَ، وَلِيُمَحِّصَ المُؤْمِنِينَ وَيَمْحَقَ الكَافِرِينَ.

وَشَهِدَ كَعْبُ بنُ مَالِكٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أُحُداً، وَأَبْلَى البَلاَءَ الحَسَنَ، وَقَاتَلَ قِتَالاً شَدِيداً، حَتَّى جُرِحَ سَبْعَةَ عَشَرَ جُرْحاً، وَقَدْ حُمِلَ مِنَ المَعْرَكَةِ وَهُوَ ضَعِيفٌ يَقُولُ كَعْبٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَمَّا انْكَشَفْنَا يَوْمَ أُحُدٍ، كُنْتُ أَوَّلَ مَنْ عَرَفَ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، وَبَشَّرْتُ بِهِ المُؤْمِنِينَ حَيَّاً سَوِيَّاً، وَأَنَا فِي الشِّعْبِ.

فَدَعَا رَسُولُ اللّهِ، صَلىَّ اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، كَعْبَاً بِلأْمَتِهِ ـ وَكَانَتْ صَفْرَاءَ ـ فَلَبِسَهَا كَعْبٌ، وَقَاتَلَ يَوْمَئِذٍ بِشَجَاعَةٍ فَائِقَةٍ، حَتَّى ارْتُثَّ، فَجَاءَ بِهِ الزُّبَيْرُ يَقُودُهُ.

فَخُرَ المُشرِكُونَ بِنَتِيجَةِ مَعْرَكَةِ أُحُدٍ، فَكَانَ المُسْلِمُونَ يُذَكِّرُونَهُمْ بِبَدْرٍ، وَيُذَكِّرُونَهُمْ بِهَرَبِهِمْ في بِدَايَةِ المَعْرَكَةِ، وَيُذَكِّرُونَهُمْ بِقَتْلِ سَادَاتِهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ، وَقَتْلِهِمْ حَمَلَةَ لِوَاءِ المُشْرِكِينَ الَّذِينَ صُرِعُوا في بَدْرٍ وَفي أُحُدٍ، وَفي الوَقْتِ نَفْسِهِ فَقَدْ رَثَى المُسْلِمُونَ شُهَدَاءَهُمْ في أُحُدٍ، وَعَلَى رَأْسِهِم الحَمْزَةُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَكَانَ كَعْبٌ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَتَوَلىَّ هَذَا كُلَّهُ بِشِعْرِهِ فَنَرَاهُ يَقُولُ.

أَبْلِغْ قُرَيْشاً وَخَيْرُ القَوْلِ أَصْدَقُهُ
وَالصِّدْقُ عِنْدَ ذَوِي الأَلْبَابِ مَقْبُولُ
أَنْ قَدْ قَتَلْنَا بِقَتْلاَنَا سَرَاتَكُمُ
أَهْلَ اللِّوَاءِ، فَفِيمَ يَكْثُرُ القِيلُ؟
وَيَوْمَ بَدْرٍ لَقِينَاكُمْ، لَنَا مَدَدٌ،
فِيْهِ مَعَ النَّصرِ مِيْكَالٌ وَجِبْرِيلُ.
إِنْ تَقْتُلُونَا، فَدِينُ الحَقِّ فِطْرَتُنَا
وَالقَتْلُ في الحَقِّ عِنْدِ اللَّهِ تَفْضِيلُ

وَلَقَدْ رَثَى كَعْبٌ شُهَدَاءَ أُحُدٍ عَامَّةً، وَإِنْ كَانَ أَكْثَرُ مَا قَالَهُ فِي الحَمْزَةِ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ إِذْ تَأَثَّرَ عَلَى فَقْدِهِ تَأَثُّراً كَبِيراً فَيَقُولُ:

طَرَقَتْ هُمُومُكَ، فَالرُّقَادُ مُسَهَّدُ
وَجَزِعْتَ أَنْ سُلِخَ الشَّبَابُ الأَغْيَدُ
وَلَقَدْ هُدِدْتَ لِفَقْدِ حَمْزَةَ هِدَّةً
ظَلَّتْ بَنَاتُ الجَوْفِ مِنْهَا تَرْعُدُ
وَلَوْ أَنَّهُ فُجِعَتْ حِرَاءُ بِمِثْلِهِ
لَرَأَيْتَ رَاسِي صَخْرِهَا يَتَبَدَّدُ
قَرْمٌ تَمَكَّنَ فِي ذُؤَابَةِ هَاشِمٍ
حَيْثُ النُّبُوَّةُ وَالنَّدَى وَالسُّؤْدَدُ
وَالتَّارِكُ القِرْنَ الكَمِيَّ مُجَدَّلاً
يَوْمَ الكَرِيهَةِ، وَالقَنَا يَتَقَصَّدُ
وَتَرَاهُ يَرْفُلُ فِي الحَدِيدِ كَأَنَّهُ
ذُو لِبْدَةٍ شَثْنُ البَرَاثِنِ، أَرْبَدُ
عَمُّ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ وَصَفِيُّهُ
وَرَدَ الحِمَامَ، فَطَابَ ذَاكَ المَوْرِدُ
وَأَتَى المَنِيَّةَ مُعْلَماً فِي أُسْرَةٍ
نَصَرُوا النَّبِيَّ، وَمِنْهُمُ المُسْتَشْهَدُ

وَيَقُولُ أَيْضاً:

بَكَتْ عَيْنِي وَحُقَّ لَهَا بُكَاهَا
وَمَا يُغْنِي البُكَاءُ وَلاَ العَوِيلُ
عَلَى أَسَدِ الإِلَهِ غَدَاةَ قَالُوا:
أَحَمْزَةُ ذَاكُمُ الرَّجُلُ القَتِيلُ؟
أُصِيبَ المُسْلِمُونَ بِهِ جَمِيعاً
هُنَاكَ، وَقَدْ أُصِيبَ بِهِ الرَّسُولُ
أَبَا يَعْلَى لَكَ الأَرْكَانُ هُدَّتْ
وَأَنْتَ المَاجِدُ البَرُّ الوَصُولُ
عَلَيْكَ سَلاَمُ رَبِّكَ فِي جِنَانٍ
مُخَالِطُهَا نَعِيمٌ لاَ يَزُولُ

مَعَ غَزْوَةِ الخَنْدَقِ

عَمِلَتْ قُرَيْشٌ عَلَى جَمْعِ الأَعْرَابِ وَتَحْزِيبِ الأَحْزَابِ وَالسَّيْرِ جَمِيعاً نَحْوَ المَدِينَةِ لاقْتِحَامِهَا عَلَى المُسْلِمِينَ، وَاسْتِئْصَالِ شَوْكَتِهِمْ، وَقَدْ تَحَالَفَتْ مَعَ غَطَفَانَ، وَأَسَدٍ، وَفَزَارَةَ، وَبَنِي مُرَّةَ، وَأَشْجَعَ، وَيَهُودِ بَنِي قُرَيْظَةَ سِرّاً لِلْعَمَلِ عَلَى القَضَاءِ عَلَى المُسْلِمِينَ. وَسَارَ الأَحْزَابُ وَتَجَمَّعُوا فِي مَجْمَعِ الأَسْيَالِ فِي شَمَالِ المَدِينَةِ إِلَى الغَرْبِ قَلِيلاً، وَاتَّفَقُوا

عَلَى أَنْ يَقُومَ بَنُو قُرَيْظَةَ مِنْ دَاخِلِ المَدِينَةِ بِنَقْضِ عُهُودِهِمْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالغَدْرِ بِالمُسْلِمِينَ. وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ.

وَحَفَرَ المُسْلِمُونَ الخَنْدَقَ فَعَسْكَرَتِ الأَحْزَابُ إِلَى الشَّمَالِ مِنْهُ، وَرَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَعَ أَصْحَابِهِ إِلَى الجَنُوبِ مِنْهُ، وَطَالَ الأَمْرُ عَلَى المُشْرِكِينَ حَتَّى تَفَرَّقَتْ كَلِمَتُهُمْ فَانْسَحَبَ الأَعْرَابَ، ثُمَّ أَرْسَلَ اللَّهُ عَلَى قُرَيْشٍ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ يَرَوْهَا فَاضْطَرُّوا إِثْرَهَا إِلَى الانْسِحَابِ وَالرُّجُوعِ إِلَى مَكَّةَ صَاغِرِينَ، وَتَفَرَّدَ المُسْلِمُونَ بِبَنِي قُرَيْظَةَ، فَكَانَتْ عُقُوبَتُهُمُ القَتْلُ نَتِيجَةَ خِيَانَتِهِمْ وَغَدْرِهِمْ وَنَقْضِهِمُ العُهُودَ وَالمَوَاثِيقَ. فَكَانَ كَعْبُ بنُ مَالِكٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مَعَ شُعَرَاءِ المُسْلِمِينَ الآخَرِينَ أَمْثَالِ حَسَّانَ بنِ ثَابِتٍ، وَعَبْدِ اللَّهِ بنِ رَوَاحَةَ وَغَيْرِهِمْ يَرُدُّونَ عَلَى شُعَرَاءِ المُشْرِكِينَ، وَيَفْخَرُونَ بِعَقِيدَتِهِمْ، وَبِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَبِصَبْرِهِمْ عَلَى القِتَالِ، وَبِنَصْرِ اللَّهِ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَرُجُوعِ الكَافِرِينَ بِالْخِزْيِ وَالْعَار.

وَمِمَّا يَقُولُ كَعْبُ بنُ مَالِكٍ: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي ذَلِكَ اليَوْمِ:

وَسَائِلَــةٍ تُسَائِــلُ مَا لَقِينَا
وَلَــوْ شَهِــدَتْ أَرَتْنَــا صَابِرِينَا

صَبَرْنَــا لاَ نَرَى لِلَّــهِ عِدْلاً
عَلَــى مَا نَابَنَــا مُتَوَكِّلِينَا

وَكَانَ لَنَــا النَّبِــيُّ وَزِيرَ صِدْقٍ
بِــهِ نَعْلُــو البَــرِيَّةَ أَجْمَعِينَا

نُقَاتِــلُ مَعْشَــراً ظَلَمُــوا وَعَقُّوا
وَكَانُــوا بِالعَــدَاوَةِ مُرْصِدِينَا

لِنَنْصُــرَ أَحْمَــدَاً وَاللَّــهَ حَتَّى
نَــكُونَ عِبَــادَ صِدْقٍ مُخْلِصِينَا

وَيَعْلَــمُ أَهْــلُ مَكَّةَ حِينَ سَارُوا
وَأَحــزابٌ أَتَــوْا مُتَحَزِّبِينَا

بِــأَنَّ اللَّــهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ
وَأَنَّ اللَّــهَ مَوْلَــى المُؤْمِنِينَا

كَمَــا قَدْ رَدَّكُمْ فَلاً شَرِيدَاً
بِغَيْظِــكُمْ خَزَايَا خَائِبِينَا

بِــرِيحٍ عَاصِفٍ هَبَّــتْ عَلَيْكُــمْ
فَكُنْتُــمْ تَحْتَهَــا مُتَكَمِّهِينَا[1]

---

(١) متكمهينا: كأنهم عمي لا يبصرون.

وَيقُولُ يوْمَذَاكَ :

وَيُعِينُنَـا اللَّـهُ العَـزِيزُ بِقُوَّةٍ
مِنْهُ وَصِدْقِ الصبْرِ سَاعَـةَ نَلْتَقِي
وَنُـطِيعُ أَمْـرَ نَبِيِّنَـا وَنُجِيبُهُ
وَإِذَا دَعَـا لِكَرِيهَـةٍ لَمْ نُسْبَقِ
وَمَتَـى يُنَـادِ إِلَـى الشَّدَائِـدِ نَأْتِهَا
وَمَتَى نَرَ الحَوْمَاتِ فِيهَا نُعْنِقِ[1]
مَـنْ يَتَّبِـعْ قَوْلَ النَّبِـيِّ فَإِنَّهُ
فِينَـا مُطَـاعُ الأَمْـرِ حَقٌّ مُصَدَّقِ
فَبِـذَاكَ يَنْصُرُنَـا وَيُظْهِـرُ عِزَّنَا
وَيُصِيبُنَـا مِنْ نَيْلِ ذَاكَ بِمِرْفَقِ
إِنَّ الَّـذِينَ يُكَذِّبُـونَ مُحَمَّداً
كَفَرُوا وَضَلُّوا عَنْ سَبِيلِ المُتَّقِي

مَعَ غَزْوَةِ خَيْبَرَ

تَحَصَّنَ اليَهُودُ فِي حُصُونِهِمْ خَوْفاً مِنَ المُسْلِمِينَ، ثُمَّ خَرَجَ مَرْحَبُ اليَهُودِيُّ مِنَ الحِصْنِ، قَدْ جَمَعَ سِلاَحَهُ، وَهُوَ يَرْتَجِزُ :

---

(١) نعنق : نسرع .

قَـدْ عَلِمَـتْ خَيْبَـرُ أَنِّـي مَرْحَبُ

شَـاكِي السِّلاَحِ بَطَـلٌ مُجَرَّبُ

أَطْعَـنُ أَحْيَانَـاً وَحِينَـاً أَضْرِبُ

إِذَا اللُّيُوثُ أَقْبَلَـتْ تُحَرَّبُ

إِنَّ حِمَايَ لِلْحِمَى لاَ يُقْرَبُ

وَهُوَ يَقُولُ: مَنْ يُبَارِزُ؟ فَأَجَابَهُ كَعْبُ بنُ مَالِكٍ قَائِلاً:

قَـدْ عَلِمَـتْ خَيْبَـرُ أَنِّـي كَعْبُ

مُفَـرِّجُ الغُمَّـى جَرِيْءٌ صُلْبُ

إِذَا شَبَّتِ الحَرْبُ تَلَتْهَـا الحَرْبُ

مَعِـي حُسَـامٌ كَالعَقِيقِ عَضْبُ

نَطَـؤُكُمْ حَتَّـى يَزِلَّ الصَّعْبُ

نُعْطِي الجَـزَاءَ أَوْ يَفِـيءَ النَّهْبُ

بِكَفِّ مَاضٍ لَيْسَ فِيْهِ عَتْبُ

كَمَا يُرْوَى شِعْرُهُ هَذَا عَلَى هَذَا النَّحْوِ.

قَـدْ عَلِمَـتْ خَيْبَـرُ أَنِّـي كَعْبُ

وَأَنَّنِـي مَتَـى تُشَـبُّ الحَرْبُ

مَاضٍ عَلَى الهَوْلِ جَرِيءٌ صُلْبُ

مَعِـي حُسَـامٌ كَالعَقِيقِ عَضْبُ

بِــكَفٍّ مَاضٍ لَيْسَ فِيْهِ عَتْبُ
نَدُكُّــكُمْ حَتَّــىٰ يَذِلَّ الصَّعْبُ

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ لِهَذَا؟ قَالَ مُحَمَّدُ بنُ مَسْلَمَةَ: أَنَا لَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَا وَاللَّـهِ المَوْتُـورُ الثَّائِرُ، قُتِلَ أَخِي بِالأَمْسِ، فَقَـالَ: فَقُـمْ إِلَيْهِ، اللَّهُـمَّ أَعِنْـهُ عَلَيْهِ، فَقَتَلَهُ ابْنُ مَسْلَمَةَ.

مَعَ غَزْوَةِ تَبُوكَ

وَشَهِدَ كَعْبُ بنُ مَالِكٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، المَشَاهِدَ كُلَّهَا بَعْدَ بَدْرٍ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّـمَ، وَتَخَلَّفَ عَنْ تَبُوكَ، وَيَرْوِي هُوَ نَفْسُهُ قِصَّةَ تَخَلُّفِهِ فَيَقُولُ: مَا تَخَلَّفْـتُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا قَطُّ، غَيْرَ أَنِّي كُنْتُ قَدْ تَخَلَّفْـتُ عَنْـهُ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ، وَكَانَـتْ غَزْوَةً لَمْ يُعَاتِبِ اللَّهُ وَلاَ رَسُولُهُ أَحَدَاً تَخَلَّفَ عَنْهَا، وَذَلِكَ أَنَّ رَسُـولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِنَّمَا خَرَجَ يُرِيدُ عِيرَ قُرَيْشٍ حَتَّى جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَدُوِّهِ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ، وَلَقَدْ شَهِـدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، العَقَبَـةَ، وَحِينَ تَوَاثَقْنَـا عَلَى الإِسْلاَمِ، وَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهَا مَشْهَدَ بَدْرٍ، وَإِنْ كَانَتْ غَزْوَةُ بَدْرٍ هِيَ أَذْكَرُ فِي النَّاسِ مِنْهَا. قَالَ: وَكَانَ مِنْ خَبَرِي

حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّـى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّـمَ، فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ أَنِّي لَمْ أَكُنْ قَطُّ أَقْوَى وَلاَ أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْه فِي تِلْكَ الغَزْوَةِ، وَوَاللَّهِ مَا اجْتَمَعَتْ لِي رَاحِلَتَانِ قَطُّ حَتَّى اجْتَمَعَتَا فِي تِلْكَ الغَزْوَةِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَلَّمَا يُرِيدُ غَزْوَةً إلاَّ وَرَّى بِغَيْرِهَا، حَتَّـى كَانَـتْ تِلْكَ الغَزْوَةُ، فَغَزَاهَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي حَرٍّ شَدِيدٍ، وَاسْتَقْبَلَ سَفَراً بَعِيداً، وَاسْتَقْبَلَ غَزْوَ عَدُوٍّ كَثِيرٍ، فَجَلَّى لِلنَّاسِ أَمْرَهُمْ، لِيَتَأَهَّبُوا لِذَلِكَ أُهْبَتَهُ، وَأَخْبَرَهُمْ خَبَرَهُ بِوَجْهِهِ الَّذِي يُرِيدُ، وَالمُسْلِمُونَ مَنْ تَبِعَ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَثِيرٌ، لاَ يَجْمَعُهُمْ كِتَابٌ حَافِظٌ، يَعْنِي بِذَلِكَ الدِّيوَانَ، يَقُولُ: لاَ يَجْمَعُهُمْ دِيوَانٌ مَكْتُوبٌ.

قَالَ كَعْبٌ: فَقَلَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَتَغَيَّبَ إلاَّ ظَنَّ أَنَّهُ سَيَخْفَى لَهُ ذَلِكَ، مَا لَمْ يَنْزِلْ فِيْهِ وَحْيٌ مِنَ اللَّهِ، وَغَزَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تِلْكَ الغَـزْوَةَ حِينَ طَابَـتِ الثِّمَـارُ وَأُحِبَّـتِ الظِّلاَلُ، فَالنَّاسُ إِلَيْهَا صُعْرٌ(١)، فَتَجَهَّزَ رَسُولُ اللَّـهِ، صَلَّـى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَجَهَّـزَ مَعَـهُ المُسْلِمُـونَ، وَجَعَلْـتُ أَغْـدُو لأَتَجَهَّزَ مَعَهُمْ، فَأَرْجِعُ وَلَمْ أَقْضِ حَاجَةً، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي، أَنَا قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ إِذَا أَرَدْتُ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ يَتَمَادَى بِي حَتَّى

(١) صُعْر: مائلون.

شَمَّرَ بِالنَّاسِ الجِدُّ، فَأَصبَحَ رَسُولُ اللَّـهِ، صَلَّـى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، غَادِيَاً، وَالمُسْلِمُونَ مَعَـهُ، وَلَـمْ أَقْضِ مِنْ جَهَـازِي شَيْئاً، فَقُلْتُ: أَتَجَهَّزُ بَعْدَهُ بِيَوْمٍ أَوْ يَوْمَين ، ثُمَّ أَلْحَقُ بِهِمْ، فَغَدَوْتُ بَعْدَ أَنْ فَصَلُوا لأَتَجَهَّزَ، فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئَاً، ثُمَّ غَدَوْتُ فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئَاً، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ يَتَمَـادَى بِي حَتَّـى أَسْرَعُـوا، وَتَفَـرَّطَ[1] الغَـزْوُ، فَهَمَمْـتُ أَنْ أَرْتَحِـلَ، فَأُدْرِكَهُمْ، وَلَيْتَنِي فَعَلْتُ، فَلَمْ أَفْعَلْ، وَجَعَلْتُ إِذَا خَرَجْتُ فِي النَّاسِ بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّـى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّـمَ، فَطُفْتُ فِيهِمْ يَحْزُنُنِي أَنِّي لاَ أَرَى إِلاَّ رَجُلاً مَغْمُوصاً[2] عَلَيْهِ فِي النِّفَاقِ ، أَوْ رَجُلاً مِمَّنْ عَذَرَ اللَّهُ مِنَ الضُّعَفَاءِ، وَلَمْ يَذْكُـرْنِي رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَتَّى بَلَغَ تَبُـوكَ. فَقَـالَ وَهُوَ جَالِسٌ فِي القَوْمِ بِتَبُوكَ: مَا فَعَلَ كَعْبُ بنُ مَالِكٍ؟ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، حَبَسَهُ بُرْدَاهُ، وَالنَّظَرُ فِي عِطْفَيْهِ؛ فَقَالَ لَهُ مُعَاذُ بنُ جَبَل: بِئْسَ مَا قُلْتَ! وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا عَلِمْنَا مِنْهُ إِلاَّ خَيْرَاً، فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّـى اللَّـهُ عَلَيهِ وَسَلَّـم، قَدْ

---

(١) تفرّط: فات أوانه.
(٢) مغموصاً عليه: مطعوناً عليه.

تَوَجَّهَ قَافِلاً مِنْ تَبُوكَ، حَضَرَنِي بَثِّي[1]، فَجَعَلْتُ أَتَذَكَّرُ الكَذِبَ وَأَقُولُ: بِمَاذَا أَخْرُجُ مِنْ سَخْطَةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، غَدَاً، وَأَسْتَعِينُ عَلَى ذَلِكَ كُلَّ ذِي رَأْيٍ مِنْ أَهْلِي؛ فَلَمَّا قِيلَ: إنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، قَدْ أَظَلَّ قَادِمَاً زَاحَ عَنّي البَاطِلُ، وَعَرَفْتُ أَنّي لاَ أَنْجُو مِنْهُ إلاَّ بِالصِّدْقِ، فَأَجْمَعْتُ أَنْ أَصْدُقَهُ، وَصَبَّحَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، المَدِينَةَ، وَكَانَ إذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ، فَرَكَعَ فِيْهِ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ جَاءَهُ المُخَلَّفُونَ، فَجَعَلُوا يَحْلِفُونَ لَهُ وَيَعْتَذِرُونَ، وَكَانُوا بِضْعَةً وَثَمَانِينَ رَجُلاً، فَيَقْبَلُ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، عَلاَنِيَتَهُمْ وَأَيْمَانَهُمْ، وَيَسْتَغْفِرُ لَهُمْ، وَيَكِلُ سَرَائِرَهُمْ إلَى اللَّهِ تَعَالَى، حَتَّى جِئْتُ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَتَبَسَّمَ تَبَسُّمَ المُغْضَبِ، ثُمَّ قَالَ لِي: تَعَالَهْ، فَجِئْتُ أَمْشِي، حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ لِي: مَا خَلَّفَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ؟ قَالَ: قُلْتُ: إنِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَاللَّهِ لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، لَرَأَيْتُ أَنِّي سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بِعُذْرٍ، وَلَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلاً، وَلَكِنْ وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ اليَوْمَ حَدِيثاً كَذِباً لَتَرضَيَنَّ عَنِّي، وَلَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ،

(١) بثي: حزني.

وَلَئِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثاً صِدْقاً تَجِدُ عَلَيَّ فِيْهِ، إِنِّي لأَرْجُو عُقْبَايَ مِنَ اللَّهِ فِيْهِ، وَلاَ وَاللَّهِ مَا كَانَ لِي عُذْرٌ، وَاللَّهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى وَلاَ أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم: أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقْتَ فِيْهِ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيْكَ. فَقُمْتُ، وَثَارَ مَعِي رِجَالٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ، فَاتَّبَعُونِي، فَقَالُوا لِي: وَاللَّهِ مَا عَلِمْنَاكَ أَذْنَبْتَ ذَنْباً قَبْلَ هَذَا، وَلَقَدْ عَجَزْتَ أَنْ لاَ تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِمَا اعْتَذَرَ بِهِ إِلَيْهِ المُخَلَّفُونَ، قَدْ كَانَ كَافِيكَ ذَنْبَكَ اسْتِغْفَارُ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، لَكَ. فَوَاللَّهِ مَا زَالُوا بِي حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، فَأُكَذِّبَ نَفْسِي، ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ: هَلْ لَقِيَ هَذَا أَحَدٌ غَيْرِي؟ قَالُوا: نَعَمْ، رَجُلاَنِ قَالاَ مِثْلَ مَقَالَتِكَ، وَقِيلَ لَهُمَا مِثْلَ مَا قِيلَ لَكَ؛ قُلْتُ: مَنْ هُمَا؟ قَالُوا: مُرَارَةُ بنُ الرَّبِيعِ العَمْرِيُّ، مِنْ بَنِي عَمْرِو بنِ عَوْفٍ، وَهِلاَلُ بنُ أَبِي أُمَيَّةَ الوَاقِفِيُّ؛ فَذَكَرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ، فِيهِمَا أُسْوَةٌ، فَصَمَتُّ حِينَ ذَكَرُوهُمَا لِي، وَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، عَنْ كَلاَمِنَا أَيُّهَا الثَّلاَثَةُ، مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ، فَاجْتَنَبَنَا النَّاسُ، وَتَغَيَّرُوا لَنَا، حَتَّى تَنَكَّرَتْ لِي نَفْسِي وَالأَرْضُ، فَمَا هِيَ بَالأَرْضِ الَّتِي كُنْتُ أَعْرِفُ، فَلَبِثْنَا عَلَى

ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً، فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَانَا، وَقَعَدَا فِي بُيُوتِهِمَا، وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَبَّ القَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ، فَكُنْتُ أَخْرُجُ وَأَشْهَدُ الصَّلاَةَ مَعَ المُسْلِمِينَ، وَأَطُوفُ بِالأَسْوَاقِ، وَلاَ يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ، وَآتِي رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، فَأُسَلِّمُ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلاَةِ، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي، هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلاَمِ عَلَيَّ أَمْ لاَ؟ ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيباً مِنْهُ، فَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ، فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلاَتِي نَظَرَ إِلَيَّ، وَإِذَا الْتَفَتُّ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي، حَتَّى إذَا طَالَ ذَلِكَ عَلَيَّ مِنْ جَفْوَةِ المُسْلِمِينَ، مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ، وَهُوَ ابْنُ عَمِّي، وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَوَاللَّهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلاَمَ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا قَتَادَةَ، أُنْشِدُكَ بِاللَّهِ، هَلْ تَعْلَمُ أَنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ؟ فَسَكَتَ. فَعُدْتُ فَنَاشَدْتُهُ، فَسَكَتَ عَنِّي، فَعُدْتُ فَنَاشَدْتُهُ، فَقَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَفَاضَتْ عَيْنَايَ، وَوَثَبْتُ فَتَسَوَّرْتُ الحَائِطَ، ثُمَّ غَدَوْتُ إِلَى السُّوقِ، فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي بِالسُّوقِ إذَا نَبَطِيٌّ يَسْأَلُ عَنِّي مِنْ نَبَطِ الشَّامِ، مِمَّنْ قَدِمَ بِالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بِالمَدِينَةِ، يَقُولُ: مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بنِ مَالِكٍ؟ فَجَعَلَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ إِلَيَّ، حَتَّى جَاءَنِي، فَدَفَعَ إِلَيَّ كِتَاباً مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ، وَكَتَبَ كِتَاباً فِي سَرَقَةٍ مِنْ حَرِيرٍ، فَإِذَا فِيهِ: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنَا أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ، وَلَمْ

يَجْعَلْكَ اللَّهُ بِدَارِ هُوَانٍ وَلاَ مَضْيَعَةٍ، فَالْحَقْ بِنَا نُوَاسِكْ». قَالَ: قُلْتُ حِيْنَ قَرَأْتُهَا: وَهَذَا مِنَ البَلاَءِ أَيْضاً، قَدْ بَلَغَ بِيَ مَا وَقَعْتُ فِيْهِ أَنْ طَمِعَ فِيَّ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ. قَالَ: فَعَمِدْتُ بِهَا إِلَى تَنُّورٍ فَسَجَرْتُهُ بِهَا. فَأَقَمْنَا عَلَى ذَلِكَ، حَتَّى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ لَيْلَةً مِنَ الخَمْسِينَ، إِذَا رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ يَأْتِينِي، فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزِلَ امْرَأَتَكَ. قَالَ: قُلْتُ: أُطَلِّقُهَا أَمْ مَاذَا؟ قَالَ: لاَ، بَلِ اعْتَزِلْهَا وَلاَ تَقْرَبْهَا، وَأَرْسَلَ إِلَى صَاحِبَيَّ مِثْلَ ذَلِكَ، فَقُلْتُ لاِمْرَأَتِي الْحَقِي بِأَهْلِكِ، فَكُونِي عِنْدَهُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِي هَذَا الأَمْرِ مَا هُوَ قَاضٍ. قَالَ: وَجَاءَتِ امْرَأَةُ هِلاَلِ بنِ أُمَيَّةَ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ هِلاَلَ بنَ أُمَيَّةَ شَيْخٌ كَبِيرٌ ضَائِعٌ لاَ خَادِمَ لَهُ، أَفَتَكْرَهُ أَنْ أَخْدِمَهُ؟ قَالَ: لاَ، وَلَكِنْ لاَ يَقْرَبَنَّكِ، قَالَتْ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا بِهِ مِنْ حَرَكَةٍ إِليَّ، وَاللَّهِ مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا، وَلَقَدْ تَخَوَّفْتُ عَلَى بَصَرِهِ. قَالَ: فَقَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي لَوِ اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ اللَّهِ لاِمْرَأَتِكَ فَقَدْ أَذِنَ لاِمْرَأَةِ هِلاَلِ بنِ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدِمَهُ؛ قَالَ: فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لاَ أَسْتَأْذِنُهُ فِيهَا، مَا أَدْرِي مَا يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، لِي فِي ذَلِكَ إِذَا اسْتَأْذَنْتُهُ فِيهَا، وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ. قَالَ: فَلَبِثْنَا

بَعْدَ ذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ، فَكَمُلَ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً، مِنْ حِينَ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، المُسْلِمِينَ عَنْ كَلاَمِنَا. ثُمَّ صَلَّيْتُ الصُّبْحَ، صُبْحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً، عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا، عَلَى الحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ مِنّا، قَدْ ضَاقَتْ عَلَيْنَا الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، وَضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي، وَقَدْ كُنْتُ ابْتَنَيْتُ خَيْمَةً فِي ظَهْرِ سَلْعٍ، فَكُنْتُ أَكُونُ فِيهَا، إِذْ سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ أَوْفَى عَلَى ظَهْرِ سَلْعٍ، يَقُولُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا كَعْبُ بنُ مَالِكٍ أَبْشِرْ، قَالَ: فَخَرَرْتُ سَاجِداً، وَعَرَفْتُ أَنْ قَدْ جَاءَ الفَرَجُ.

قَالَ: وَآذَنَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، النَّاسَ بِتَوْبَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى الفَجْرَ، فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنا، وَذَهَبَ نَحْوَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُونَ، وَرَكَضَ رَجُلٌ إِلَيَّ فَرَساً، وَسَعَى سَاعٍ مِنَ أَسْلَمَ، حَتَّى أَوْفَى عَلَى الجَبَلِ، فَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنْ الفَرَسِ، فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي نَزَعْتُ ثَوْبَيَّ فَكَسَوْتُهُمَا إِيَّاهُ بِشَارَةً، وَاللَّهِ لاَ أَمْلِكُ يَوْمَئِذٍ غَيْرَهُمَا، وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا، ثُمَّ انْطَلَقْتُ أَتَيَمَّمُ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، وَتَلَقَّانِي النَّاسُ يُبَشِّرُونَنِي بِالتَّوْبَةِ، يَقُولُونَ: لِتَهْنَكَ تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ، حَتَّى دَخَلْتُ المَسْجِدَ، وَرَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، جَالِسٌ حَوْلَهُ النَّاسُ، فَقَامَ إِلَيَّ طَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِ اللَّهِ، فَحَيَّانِي وَهَنَّأَنِي،

وَوَاللَّهِ مَا قَامَ إِلَيَّ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ غَيْرُهُ. قَالَ: فَكَانَ كَعْبُ بنُ مَالِكٍ لاَ يَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ.

قَالَ كَعْبٌ: فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، قَالَ لِي، وَوَجْهُهُ يَبْرُقُ مِنَ السُّرُورِ: أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ، قَالَ: قُلْتُ: أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؟ قَالَ: بَلْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، قَالَ: وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، إِذا اسْتَبْشَرَ كَانَ وَجْهُهُ قِطْعَةَ قَمَرٍ، قَالَ: وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْهُ. قَالَ: فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي، صَدَقَةً إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم: أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ. قَالَ: قُلْتُ: إِنِّي مُمْسِكٌ سَهْمِي الَّذِي بِخَيْبَرَ. وَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ نَجَّانِي بِالصِّدْقِ، وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي إِلَى اللَّهِ أَلاَّ أُحَدِّثَ إِلاَّ صِدْقاً مَا حَيِيتُ، وَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ أَحَداً مِنَ النَّاسِ أَبْلاَهُ اللَّهُ فِي صِدْقِ الحَدِيثِ مُنْذُ ذَكَرْتُ لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، ذَلِكَ أَفْضَلَ مِمَّا أَبْلاَنِي اللَّهُ، وَاللَّهِ مَا تَعَمَّدْتُ مِنْ كَذِبَةٍ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، إِلَى يَوْمِي هَذَا، وَإِنِّي لأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِيَ اللَّهُ فِيمَا بَقِيَ.

وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ العُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ. وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لاَ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾(١).

قَالَ كَعْبٌ: فَوَاللَّهِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ نِعْمَةً قَطُّ بَعْدَ أَنْ هَدَانِي لِلإِسْلاَمِ كَانَتْ أَعْظَمَ فِي نَفْسِي مِنْ صِدْقِي رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، يَوْمَئِذٍ، أَنْ لاَ أَكُونُ كَذَبْتُهُ، فَأَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا، فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَالَ فِي الَّذِينَ كَذَبُوهُ حِينَ أَنْزَلَ الوَحْيَ شَرَّ مَا قَالَ لأَحَدٍ قَال: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ، فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ، إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ. يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ. فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَرْضَى عَنِ القَوْمِ الفَاسِقِينَ﴾(٢).

---

(١) سورة التوبة ١١٧ ـ ١١٩.

(٢) سورة التوبة ٩٤ ـ ٩٦.

قَالَ: وَكُنَّا خُلِّفْنَا أَيُّهَا الثَّلاَثَةُ عِنْ أَمْرِ هَؤُلاَءِ الَّذِينَ قَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، حِينَ حَلَفُوا لَهُ فَعَذَرَهُمْ، وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ، وَأَرجَأَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، أَمْرَنَا، حَتَّى قَضَى اللَّهُ فِيْهِ مَا قَضَى، فَبِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾.

وَلَيْسَ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ مِنْ تَخْلِيفِنَا لِتَخَلُّفِنَا عَنِ الغَزْوَةِ، وَلَكِنْ لِتَخْلِيفِهِ إِيَّانَا وَإِرْجَائِهِ أَمْرَنَا عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ، وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ فَقَبِلَ مِنْهُ[1].

لَقَدْ أَخْطَأَ كَعْبُ فِي تَخَلُّفِهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ فَنَدِمَ عَلَى مَا أَقْدَمَ عَلَيْهِ، وَاخْتُبِرَ فَصَبَرَ، وَجُرِّبَ فَصَدَقَ، وَابْتُلِيَ بِإِغرَاءَاتِ الرُّومِ، فَاسْتَعْلَى بِإِيمَانِهِ، وَجَعَلَ كُلَّ مَا فِي الدُّنْيَا تَحْتَ أَقْدَامِهِ، وَأَحْرَقَ إِغْرَاءَاتِهِمْ فِي التَّنُّورِ، وَصَبَرَ عَلَى مَا اخْتُبِرَ بِهِ فَاسْتَحَقَّ تَوْبَةَ اللَّهِ وَغُفْرَانَهُ.

بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

تُوفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، فَجَزِعَ الصَّحَابَةُ جَزَعاً شَدِيداً حَتَّى طَاشَتْ أَحْلاَمُ بَعْضِهِمْ مِنْ هَوْلِ وَقْعِ هَذَا

(١) سيرة ابن هشام.

الحَادِثِ الأَلِيمِ عَلَيْهِمْ وَصُعُوبَتِهِ عَلَى وَاقِعِهِمْ، فَرَثَاهُ كَعْبُ بنُ مَالِكٍ فِي عَدَدٍ مِنَ القَصَائِدِ مِنْهَا :

يَا عَيْنُ فَابْكِي بِدَمْعٍ ذَرَى
لِخَيْرِ البَرِيَّةِ وَالمُصْطَفَى
وَبَكِّي الرَّسُولَ وَحُقَّ البُكَا
عَلَيْهِ لَدَى الحَرْبِ عِنْدَ اللِّقَا
عَلَى خَيْرِ مَنْ حَمَلَتْ نَاقَةٌ
وَأَتْقَى البَرِيَّةِ عِنْدَ التُّقَى
عَلَى سَيِّدٍ مَاجِدٍ جَحْفَلٍ
وَخَيْرِ الأَنَامِ وَخَيْرِ اللُّهَا
لَهُ حَسَبٌ فَوْقَ كُلِّ الأَنَا
مِ مِنْ هَاشِمٍ ذَلِكَ المُرْتَجَى
نَخُصُّ بِمَا كَانَ مِنْ فَضْلِهِ
وَكَانَ سِرَاجاً لَنَا فِي الدُّجَى
وَكَانَ بَشِيراً لَنَا مُنْذِراً
وَنُوراً لَنَا ضَوْءُهُ قَدْ أَضَا
فَأَنْقَذَنَا اللَّهُ فِي نُورِهِ
وَنَجَّى بِرَحْمَتِهِ مِنْ لَظَا

ويَقُولُ فِي قَصِيدَةٍ أُخْرَى :

وَبَــاكِيَةٍ حَرَّاءَ تَحْــزَنُ بِالبُكَا
وَتَلْطِـمُ مِنْهَـا خَدَّهَـا وَالمُقَلَّدَا

عَلَــى هَالِكٍ بَعْــدَ النَّبِــيِّ مُحَمَّدٍ
وَلَــوْ عَلِمَــتْ لَمْ تَبْـكِ إلاَّ مُحَمَّدَا

فُجِعْنَــا بِخَيْرِ النَّــاسِ حَيّاً وَمَيِّتاً
وَأَدْنَــاهُ مِنْ رَبِّ البَـرِيَّةِ مَقْعَدَا

وَأَفْظَعِهُــمْ فَقْــداً عَلَــى كُلِّ مُسْلِمٍ
وَأَعَظَمِهُــمْ فِي النَّــاسِ كُلِّهِــمْ يَدَا

لَقَـدْ وَرِثَـتْ أَخْــلاَقُهُ المَجْـدَ وَالتُّقَى
فَلَــمْ تَلْقَــهُ إلاَّ رَشِيداً وَمُرْشِدَا

كَمَا يَقُولُ:

أَلاَ انْــعَ النَّبِــيَّ إلَــى العَالَمِينَا
جَمِيعَــاً، وَلاَ سِيَمَــا المُسْلِمِينَا

أَلاَ انْــعَ النَّبِــيَّ لأَصْحَابِهِ
وَأَصْحَــابِ أَصْحَابِــهِ التَّابِعِينَا

أَلاَ انْــعَ النَّبِــيَّ إلَــى مَنْ هَدَى
إلَــى الجِــنِّ لَيْلَــةَ إذْ يَسْمَعُونَا

لِفَقْـدِ النَّبِـيِّ إمَـامِ الهُدَى
وَفَقْـدِ المَلاَئِـكَةِ المُنْزَلِينَا

وَعَاشَ كَعْبٌ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَيَّامَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهُمَـا، كَأَيَّامِـهِ السَّابِقَـةَ يَتَفَاعَـلُ مَعَ كُلِّ حَادِثَـةٍ تَمُـرُّ بِالمُجْتَمَعِ المُسْلِمِ، وَعِنْدَمَا قُتِلَ عُثْمَانُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْـهُ، تَأَلَّمَ أَلَمَاً شَدِيداً لِمَا حَلَّ بِالخَلِيفَةِ، وَلِمَا أَصَابَ المُجْتَمَعَ مِنْ تَغَيُّرٍ، وَإِذَا غَدَا المُسْلِمُونَ يَقْتُلُونَ خَلِيفَتَهُمْ أَوْ يَسْكُتُونَ عَنْ مَصْرَعِهِ أَمَامَهُمْ فَتِلْكَ دَاهِيَةٌ مَا بَعْدَهَا مِنْ دَاهِيَةٍ فَرَثَا الخَلِيفَـةَ وَعَبَّرَ عَمَّا يَجُولُ فِي خَاطِرِهِ بِشِعْرِهِ فَيَقُولُ:

يَا لِلرِّجَـالِ لأَمْـرٍ هَاجَ لِي حَزَنَا
لَقَدْ عَجِبْـتُ لِمَـنْ يَبْـكِي عَلَـى الدِّمَنِ
إنِّـي رَأَيْتُ قَتِيلَ الـدَّارِ مُضْطَهَداً
عُثْمَانُ يُهْدَى إِلَى الأَجْـدَاثِ فِي كَفَنِ
يَا قَاتَـلَ اللَّـهُ قَوْمَـاً كَانَ أَمْرُهُمْ
قَتْـلَ الإمَـامِ الـزَّكِيِّ الـطَّيِّبِ الرَّدِنِ
مَـا قَاتَلُـوهُ عَلَـى ذَنْـبٍ أَلَـمَّ بِهِ
إلاَّ الَّـذِي نَطَقُـوا زُوراً، وَلَـمْ يَكُنِ

قَـدْ قَتَلُـوهُ، وَأَصْحَـابَ النَّبِـيِّ مَعاً
لَـوْلاَ الَّـذِي فَعَلُـوا لَمْ نُبْـلَ بالفِتَنِ
قَـدْ قَتَلُـوهْ نَقِيّاً غَيْرَ ذِي عَيْبِ
صَلَّـى الإِلَـهُ عَلَـى وَجْـهٍ لَهُ، حَسَنِ
قَـدْ جَمَّـعَ الحِلْـمَ، وَالتَّقْوَى، لِمَعْصَمَةٍ
مَـعَ الخِلاَفَـةِ أَمْـراً كَانَ لَمْ يَشِنِ
هَـذَا بِهِ، كَانَ رَأْيَاً فِي قَرَابَتِهِ
لَمْ يَحْـظَ شَيْئَـاً مِنَ الـدُّنْيَا، وَلَـمْ يَخُنِ

وَتَتَكَرَّرُ قَصَائِدُهُ فِي رِثَائِهِ لِلْخَلِيفَةِ الشَّهِيدِ، وَرُبَّمَا كَانَ كُلَّمَا تَذَكَّرَ هَوْلَ الحَادِثِ وَخَطَرَهُ عَلَى المُجْتَمَعِ تَحَرَّكَتْ مَشَاعِرُهُ بِالشِّعْرِ يُصَوِّرُ مَا أَلَمَّ بِهِ، وَيُحذِّرُ مِنَ اسْتِمْرَارِ الفِتْنَةِ، وَيَعْتَبُ عَلَى الَّذِينَ لَمْ يَنْصُرُوا إِمَامَهُمْ.

وَكَانَتِ السِّنُّ قَدْ تَقَدَّمَـتْ بِكَعْبٍ فَزَادَتْ عَلَـى السِّتِّينَ، فَاعْتَزَلَ مَا أَصَابَ الأُمَّةَ فِي تِلْكَ المَرْحَلَةِ. وَاسْتُشْهِدَ عَلِيٌّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَزَادَتِ الحَسْرَةُ. وَتَنَازَلَ الحَسَنُ لِمُعَاوِيَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَاسْتَقَرَّ الْوَضْعُ، غَيْرَ أَنَّ كَعْباً قَدْ فَقَدَ بَصَرَهُ، وَأَصْبَحَ يَقُودُهُ ابْنُهُ عَبْدُ اللَّـهِ، وَأَحْيَانَـاً ابْنُـهُ عَبْدُ الرَّحْمَـنِ. فَكَانَ يَرْوِي لَهُمَا مَا جَرَى مَعَهُ.

وتُوفِّيَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي خِلاَفَةِ مُعَاوِيَةَ عَامَ خَمْسِينَ مَعَ خِلاَفٍ فِي الرِّوَايَةِ، وَقَدْ تَجَاوَزَ السَّابِعَةَ وَالسَّبْعِينَ.

قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: كَانَ كَعْبٌ مِنْ أَهْلِ الصُّفَّةِ[١].

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ كَعْبٍ، عَنْ أَبِيهِ: أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ فِي الشُّعَرَاءِ، مَا أَنْزَلَ. قَالَ: «إِنَّ المُجَاهِدَ، مُجَاهِدٌ بِسَيْفِهِ وَلِسَانِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَكَأَنَّمَا تَرْمُونَهُمْ بِهِ نَضْحُ النَّبْلِ»[٢].

رَوَى، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَدَداً مِنَ الأَحَادِيثِ تَبْلُغُ الثَّلاَثِينَ اتَّفَقَ البُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَلَى ثَلاَثَةٍ مِنْهَا، وَانْفَرَدَ البُخَارِيُّ بِحَدِيثٍ، وَمُسْلِمٌ بِحَدِيثَيْنِ.

---

(١) سير أعلام النبلاء.
(٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه.

بُنَاة دَوْلَـةِ الإِسْلام

٣٢



الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ وَالصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ عَلَى سَيِّدِ المُرْسَلِينَ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ سَارَ عَلَى نَهْجِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ وَبَعْدُ:

فَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الرِّجَالِ مَا يُشْهَرُونَ بِحَادِثَةٍ وَاحِدَةٍ وَيُعْرَفُونَ بِهَا، وَتُرَدِّدُ الأَلْسِنَةُ ذِكْرَهُمْ بِسَبَبِهَا، وَرُبَّمَا لاَ يُعْرَفُ مِنْ حَيَاتِهِمْ إلاَّ هِيَ، وَلاَ يُذْكَرُونَ إلاَّ بِهَا، وَلَوْ لَمْ تَكُنْ مَا تَحَدَّثَ عَنْهُمْ أَحَدٌ. وَمِنْ هَؤُلاَءِ الرِّجَالِ أَبُو أَيُّوبٍ الأَنْصَارِيُّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الَّذِي خُلِّدَ اسْمُهُ بِضِيَافَتِهِ لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، عِنْدَمَا وَصَلَ إِلَى المَدِينَةِ مُهَاجِراً إِلَيْهَا مِنْ مَكَّةَ، وَهَذِهِ الحَادِثَةُ هِيَ الَّتِي رَفَعَتْهُ إِلَى مَصَافِّ كِبَارِ الصَّحَابَةِ، رِضْوَانُ اللَّهِ عَنْهُمْ. وَهِيَ الَّتِى جَعَلَتِ المُسْلِمِينَ جَمِيعَاً يَعْرِفُونَهُ وَيَذْكُرُونَهُ.

وَهُنَاكَ حَادِثَةٌ أُخْرَى لِأَبِي أَيُّوب، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لاَ تُغْفَلُ، وَهِيَ جِهَادُهُ وَقَدْ جَاوَزَ الثَّمَانِينَ مِنَ العُمْرِ رَغْبَةً فِي

الشَّهَادَةِ، وَاسْتِجَابَةً لِقَوْلِ اللَّهِ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً﴾ وَقَدْ وَافَتْهُ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ فِي الجِهَادِ عَلَى أَبْوَابِ القِسْطِنْطِينِيَّةِ فَدُفِنَ عِنْدَ أَسْوَارِهَا، فَكَانَ دَفْنُهُ هُنَاكَ حَمَاسَةً لِلْمُسْلِمِينَ فِي انْطِلاَقِهِمْ إِلَى الجِهَادِ إِلَى تِلْكَ الجِهَاتِ لِفَتْحِ القِسْطِنْطِينِيَّةِ حَتَّى كَتَبَ اللَّهُ لَهُمْ أَنْ يَفْتَحُوهَا.

نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ نُوَفَّقَ فِي إِعْطَاءِ صُورَةٍ صَادِقَةٍ عَنْ هَذَا الصَّحَابِيِّ الجَلِيلِ، كَمَا نَسْأَلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى العَوْنَ فَهُوَ نِعْمَ المَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ العَلِيِّ العَظِيمِ.

أَبُو أَيُّوبَ

هُوَ خَالِدُ بنُ زَيْدِ بنِ كُلَيْبِ بنِ ثَعْلَبَةَ بنِ عَبْدِ عَمْروِ بنِ عَوْفِ بنِ غَنَمِ بنِ مَالِكِ بنِ النَّجَّارِ بنِ ثَعْلَبَةَ بنِ الخَزْرَجِ.

فَهُوَ مِنَ الخَزْرَجِ أَكْثَرِ الأنْصَارِ عَدَداً إِذْ يَقْرُبُ عَدَدُهُمْ مِنْ ضِعْفِ إِخْوَانِهِمْ الأَوْسِ البَطْنِ الثَّانِي مِنَ الأَنْصَارِ.

وَهُوَ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ الَّذِينَ يَعُدُّهُمْ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، أَخْوَالَهُ لأَنَّ أُمَّ جَدِّه عبد المُطّلبِ مِنهُمْ، وَهِيَ:

سَلْمَى بِنْتُ عَمْرِو بن زَيْدِ بن لَبِيدٍ النَّجَّارِيَّةُ.

وُلِدَ فِي العَامِ السَّابعِ وَالعِشْرِينَ قَبْلَ هِجْرَةِ المُصْطَفَى عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ، فَهُوَ أَصْغَرُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، بِسِتَّةٍ وَعِشْرِينَ عَاماً.

وَأُمُّهُ زَهْرَاءُ بِنْتُ سَعْدِ بن قَيْسِ بْنِ عَمْرِو بْنِ امْرِىءِ القَيْسِ بن مَالِكٍ الخَزْرَجِيَّةُ أَيْضاً، فَأَبُوهُ وَأُمُّهُ مِنَ الخَزْرَجِ.

تَزَوَّجَ أَبُو أَيُّوبَ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ كَذَلِكَ، وَكَانَتْ زَوْجَتُهُ أُمّ حَسَنٍ بِنْتُ زَيْدِ بن ثَابِتِ بن الضَّحَّاكَ مِنْ بَنِي مَالِكِ بنِ النَّجَّارِ، وَأَنْجَبَتْ لَهُ وَلَدَهُ عَبْدَ الرَحْمَنِ، وَقَدِ انْقَرَضَ وَلَدُهُ فَلَيْسَ لَهُ عَقِبٌ.

إسْلَامُ أَبِي أَيُّوبَ

بَعْدَ أَنْ رَجَعَ رِجَالُ العَقَبَةِ الأولَى مِنَ المَوْسَمِ مَعَ حُجَّاجِ بَنِي قَوْمِهِمْ وَلَحِقَ بِهِمْ مُصْعَبُ بنُ عُمَيْرِ بن هَاشِمٍ لِيُقْرِئَهُمُ القُرْآنَ، ويُعَلِّمَهُمُ الإِسْلَامَ، وَيُفَقِّهَهُمْ فِي الدِّينِ، وَنَزَلَ في دَارِ أَسْعَدَ بنِ زُرَارَةَ، وَأَقَامَ عِنْدَهُ يَدْعو النَّاسَ إِلَى الإِسْلَامِ، حَتَّى لَمْ تَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ الأَنْصَارِ إلاَّ وَفِيهَا رِجَالٌ وَنِسَاءٌ مُسْلِمُونَ.

وَفِي هَذِهِ المَرْحَلَةِ اهْتَدَى أَبُو أَيُّوبَ إِلَى الدِّينِ الحقِّ وَأَسْلَمَ، وَكَانَ فِي سِنِّ السَّابِعةِ وَالْعِشْرِينَ مِنَ العُمُرِ. وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ حَانَ مَوْسِمُ الحَجِّ، وَرَجَعَ مُصْعَبُ بنُ عُمَيْرٍ إِلَى مَكَّةَ، وَخَرَجَ مَنْ خَرَجَ مِنَ الأَنْصَارِ مِنَ المُسْلِمِينَ إِلَى المَوْسِمِ مَعَ حُجَّاجِ قَوْمِهِمْ مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ، حَتَّى قَدِمُوا مَكَّةَ، وَكَانَ أَبُو أَيُّوبَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بَيْنَ هَؤُلاَءِ المُسْلِمِينَ مِنْ حُجَّاجِ الأَنْصَارِ.

وَاعَدَ المُسْلِمُونَ مِنَ الأَنْصَارِ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، العَقَبَةَ، مِنْ أَوْسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ بَعْدَ مُضِيِّ ثُلُثِ اللَّيْلِ الأَوَّلِ مِنْ تِلْكَ اللَّيْلَةِ، وَكَانَتْ بَيْعَةُ العَقَبَةِ الثَّانِيَةِ، وَهِيَ بَيْعَةُ الحَرْبِ، إِذْ كَانَتْ بَيْعَةُ العَقَبَةِ الأُولَى تُعْرَفُ بِبَيْعَةِ النِّسَاءِ.

وَعَادَ الأَنْصَارُ بَعْدَ البَيْعَةِ إِلَى المَدِينَةِ يَسْتَعِدُّونَ لاِسْتِقْبَالِ إِخْوَانِهِمْ فِي العَقِيدَةِ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ وَغَيْرِهَا مِنَ المُهَاجِرِينَ إِلَى المَدِينَةِ الَّتِي سَتَغْدُو قَاعِدَةَ الحَرَكَةِ الإِسْلاَمِيَّةِ.

ضِيَافَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

بَعْدَ بَيْعَةِ العَقَبَةِ الثَّانِيَةِ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، أَصْحَابَهُ الَّذِينَ مَعَهُ بِمَكَّةَ بِالخُرُوجِ إِلَى المَدِينَةِ،

وَالهِجْرَةِ إلَيْهَا، واللُّحُوقِ بِإخْوَانِهِمْ مِنَ الأَنْصَارِ، وَقَالَ لَهُمْ: إنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ جَعَلَ لَكُمْ إخْوَاناً وَداراً تَأْمَنُونَ بِهَا. فَخَرَجُوا إلَيْهَا جَمَاعَةً إثْرَ جَمَاعَةٍ، وَأَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، بِمَكَّةَ يَنْتَظِرُ أَنْ يَأْذَنَ لَهُ رَبُّهُ بِالخُرُوجِ مِنْ مَكَّةَ، وَالْهِجْرَةِ إلَى المَدِينَةِ.

لَمْ يَبْقَ فِي مَكَّةَ مِنَ المُسْلِمِينَ إلاَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، وَأَبُو بَكْرٍ الصِّدِيقُ، وَعَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ، وَمَنْ حُبِسَ فَلَمْ يَسْتَطِعِ الْهِجْرَةَ، حَبَسُه ذَوُوهُ قُوَّةً وَاقْتِدَاراً، وَمَنَعُوهُ مِنَ اللُّحُوقِ بإخْوَانِهِ، وَمَنْ فُتِنَ عَنْ دِينِهِ، فَتَنَهُ أَعْدَاؤُهُ فَلَمْ يُفَكِّرْ بِالْهِجْرَةِ.

وَجَاءَ الإِذْنُ لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، مِنْ رَبِّهِ بالْهِجْرَةِ فَهَاجَرَ وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِيقُ. وَانْطَلَقَا تَلْحَظُهُمَا رِعَايَةُ اللَّهِ، فَهُوَ مَعَهُمَا يَسْمَعُ وَيَرَى، وَيَخْفِقُ الكَوْنُ لِحَرَكَتِيهِمَا، وَيُرَاقِبُ سَيْرَهُمَا فَسَعَادَةُ أَبْنَائِهِ مَنُوطَةٌ بِهَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَسِيرُ مُتَخَفِّياً عَنْ أَعْيُنِ النَّاسِ، وَمَعَهُ صَاحِبُهُ.

وَبَعْدَ اخْتِفَائِهِمَا فِي الغَارِ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ جَاءَ إلَيْهِمَا الدَّلِيلُ وَسَارَ بِهِمَا حَتَّى وَصَلَ بِهِمَا إلَى قِبَاءَ فِي ضُحَى يَوْمِ الإِثْنَيْنِ لاثْنَتَيْ عَشْرَةَ لَيْلَةً خَلَتْ مِنْ شَهْرِ رَبِيعٍ الأَوَّلِ.

بَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، فِي قِبَاءَ أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ هِيَ: الإِثْنَيْنُ، وَالثُّلاَثَاءُ، وَالأَرْبِعَاءُ، وَالخَمِيسُ، وَانْتَقَلَ مِنْهَا يَوْمَ الجُمُعَةِ فِي طَرِيقِهِ إِلَى المَدِينَةِ، وَخِلاَلَ هَذِهِ الأَيَّامِ أَسَّسَ المَسْجِدَ فِي قِبَاءَ. وَأَدْرَكَتْهُ صَلاَةُ الجُمُعَةِ وَهُوَ فِي بَنِي سَالِمِ بنِ عَوْفٍ، فَصَلاَّهَا فِي المَسْجِدِ الَّذِي فِي بَطْنِ وَادِي رَانُونَاءَ، وَكَانَتْ أَوَّلَ جُمُعَةٍ صَلاَّهَا بِالمَدِينَةِ.

وَتَابَعَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، السَّيْرَ بَعْدَهَا، وَكَانَ كُلَّمَا مَرَّ عَلَى دَارِ بَطْنٍ مِنْ بُطُونِ الأَنْصَارِ أَتَوْهُ رِجَالُهُ فَقَالُوا لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ. أَقِمْ عِنْدَنَا فِي العَدَدِ وَالعُدَّةِ وَالمَنَعَةِ. فَيَقُولُ لَهُمْ: خَلُّوا سَبِيلَهَا، فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ، لِنَاقَتِهِ، فَيُخَلُّوا سَبِيلَهَا... حَتَّى إِذَا أَتَتْ دَارَ بَنِي مَالِكِ بنِ النَّجَّارِ، بَرَكَتْ عَلَى بَابِ مَسْجِدِهِ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ مِرْبَدٌ[1] لِغُلاَمَيْنِ يَتِيمَيْنِ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ، وَهُمَا: سَهْلُ وَسُهَيْلُ ابْنَيْ عَمْرٍو، كَانَا فِي حِجْرِ مُعَاذِ بنِ عَفْرَاءَ.

فَلَمَّا بَرَكَتْ لَمْ يَنْزِلْ عَنْهَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، بَعْدُ حَتَّى وَثَبَتْ وَسَارَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ، ثُمَّ التَفَتَتْ إِلَى خَلْفِهَا، وَرَجَعَتْ إِلَى مَبْرَكِهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَبَرَكَتْ فِيهِ، فَنَزَلَ

---

(١) المربد: ساحة يجفف فيها التمر.

عَنْهَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، فَاحْتَمَلَ أَبُو أَيُّوبَ خَالِدُ بنُ زَيْدٍ رَحْلَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، فَوَضَعَهُ فِي بَيْتِهِ، وَنَزَلَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

سَأَلَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، عَنِ المِرْبَدِ، فَقَالَ لَهُ مُعَاذُ بنُ عَفْرَاءَ: هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، لِسَهْلٍ وَسُهَيلٍ ابْنَيْ عَمْرٍو، وَهُمَا يَتِيمَانِ لِي، وَسَأُرْضِيهُمَا مِنْهُ، فَاتَّخِذْهُ مَسْجِداً. فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، أَنْ يُبْنَى المَسْجِدُ فَوْقَ المِرْبَدِ.

بَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، ضَيْفاً فِي دَارِ أَبِي أَيُّوبَ حَتَّى تَمَّ بِنَاءُ المَسْجِدِ، وَالحُجُرَاتِ، فَانْتَقَلَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، مِنْ دَارِ أَبِي أَيُّوبَ بَعْدَهَا إِلَى الحُجُرَاتِ.

يَقُولُ أَبُو أَيُّوبَ: لَمَّا نَزَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، فِي بَيْتِي نَزَلَ فِي السُّفْلِ، وَأَنَا وَأُمُّ أَيُّوبَ فِي العُلْوِ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، إِنِّي لأَكْرَهُ وَأُعْظِمُ أَنْ أَكُونَ فَوْقَكَ وَتَكُونَ تَحتِي، فَاظْهَرْ أَنْتَ فَكُنْ فِي العُلْوِ، وَنَنْزِلُ نَحْنُ فَنَكُونُ فِي السُّفْلِ؛ فَقَالَ: يَا أَبَا أَيُّوبَ، إِنَّ أَرْفَقَ بِنَا

وَبِمَنَ يَغْشَانَا أَنْ نَكُونَ فِي سُفْلِ البَيْتِ.

قَالَ: فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، فِي سُفْلِهِ، وَكُنَّا فَوْقَهَ فِي المَسْكَنِ، فَلَقَدِ انْكَسَرَ حُبٌّ[1] لَنَا فِيْهِ مَاءٌ، فَقُمْتُ أَنَا وَأُمُّ أَيُّوبَ بِقَطِيفَةٍ لَنَا، مَا لَنَا لِحَافٌ غَيْرُهَا، نَنْشَفُ بِهَا المَاءَ، تَخَوُّفاً أَنْ يَقْطُرَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، مِنْهُ شَيْءٌ فَيُؤْذِيهِ.

قَالَ: وَكُنَّا نَصْنَعُ لَهُ العَشَاءَ ثُمَّ نَبْعَثُ بِهِ إِلَيْهِ، فَإِذَا رَدَّ عَلَيْنَا فَضْلَهُ تَيَمَّمْتُ أَنَا وَأُمُّ أَيُّوبَ مَوْضِعَ يَدِهِ، فَأَكَلْنَا مِنْهُ نَبْتَغِي بِذَلِكَ البَرَكَةَ، حَتَّى بَعَثْنَا إِلَيْهِ لَيْلَةً بِعَشَائِهِ، وَقَدْ جَعَلْنَا لَهُ بَصَلاً أَوْ ثُوماً، فَرَدَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، وَلَمْ أَرَ لِيَدِهِ فِيْهِ أَثَراً. قَالَ: فَجِئْتُهُ فَزِعاً، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، رَدَدْتَ عَشَاءَكَ وَلَمْ أَرَ فِيْهِ مَوْضِعَ يَدِكَ، وَكُنْتُ إِذَا رَدَدْتَهُ عَلَيْنَا تَيَمَّمْتُ أَنَا وَأُمُّ أَيُّوبَ مَوْضِعَ يَدِكَ، نَبْتَغِي بِذَلِكَ البَرَكَةَ؛ قَالَ: إِنِّي وَجَدْتُ فِيْهِ رِيحَ هَذِهِ الشَّجَرَةِ، وَأَنَا رَجُلٌ أُنَاجَى، فَأَمَّا أَنْتُمْ فَكُلُوهُ. قَالَ: فَأَكَلْنَاهُ وَلَمْ نَصْنَعْ لَهُ تِلْكَ الشَّجَرَةَ بَعْدُ.

---

(١) الحبّ: جرّة الماء الكبيرة.

مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

آخَى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، بَيْنَ المُسْلِمِينَ لِيَكُونُوا كِتْلَةً وَاحِدَةً أَمَامَ اليَهُودِ فِي دَاخِلِ المَدِينَةِ وَأَمَامَ المُشْرِكِينَ وَأَعْدَاءِ الدَّعْوَةِ فِي خَارِجِ إِطَارِ المَدِينَةِ، فَلَيْسَ هُنَاكَ فَرْقٌ بَيْنَ مُهَاجِرِينَ وَأَنْصَارٍ، أَوْ بَيْنَ أَوْسٍ وَخَزْرَجٍ، أَوْ بَيْنَ سَيِّدٍ وَمَوْلَىً، أَوْ بَيْنَ رِجَالِ القَبَائِلِ وَحُلَفَائِهِمْ. وَكَانَ مُصْعَبُ بنُ عُمَيْرٍ وَأَبُو أَيُّوبَ أَخَوَيْنِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وَعَاشَ أَبُو أَيُّوبَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، فِي كُلِّ جَوَانِبِ الحَيَاةِ، شَهِدَ مَعَهُ بَدْراً، وَأُحُداً، وَالخَنْدَقَ وَالغَزَوَاتِ جَمِيعِهَا، لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْ غَزْوَةٍ وَاحِدَةٍ، وَلَمْ يَتَأَخَّرْ عَنْ مَعْرَكَةٍ، وَكَانَ دَائِماً هَادِئاً صَامِتاً، لاَ تَسْمَعُ مِنْهُ شَيْئاً، وَلاَ يُحْدِثُ أَمْراً لاَ يَرْضَى عَنْهُ رَسُولُهُ الكَرِيمُ.

مَعَ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ

بَقِيَ أَبُو أَيُّوبَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مَعَ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جَمِيعاً، كَمَا كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، يُبَايِعُ، وَيَسْمَعُ وَيُطِيعُ، وَيَنْصَحُ، وَيَنْطَلِقُ إِلَى الجِهَادِ، وَمَا تَأَخَّرَ فِي سَنَةٍ عَنِ الجِهَادِ إِلاَّ مَرَّةً وَاحِدَةً تَخَلَّفَ

إذِ استُعْمِلَ عَلَى الجَيْشِ ، غَيْرَ أَنَّهُ قَدْ نَدِمَ، فَمَا أَنِ انْطَلَقَ الجَيْشُ حَتَّى أَخَذَ يَتَلَهَّفُ إِلَى القِتَالِ وَيَقُولُ: مَا عَلَيَّ مَنِ اسْتُعْمِلَ عَلَيَّ، مَا عَلَيَّ مَنِ اسْتُعْمِلَ عَلَيَّ، مَا عَلَيَّ مَنِ اسْتُعْمِلَ عَلَيَّ.

وَوَقَفَ بِجَانِبِ عَليٍّ بنِ أَبِي طَالِبٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَشَهِدَ مَعَهُ يَوْمَ (حَرُوراءَ). ثُمَّ بَايَعَ الحَسَنَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَانَ مَعَهُ، فَلَمَّا اجْتَمَعَتْ كَلِمَةُ الأُمَّةِ، وَصَالَحَ الحَسَنُ مُعَاوِيَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، بَايَعَ أَبُو أَيُّوبَ مُعَاوِيَةَ وَوَفَدَ عَلَيْهِ.

وَفَدَ أَبُو أَيُّوبَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بنِ عَبَّاسٍ، أَمِيرِ البَصْرَةِ لِعَلِيٍّ بنِ أَبِي طَالِبٍ، فَبَالَغَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي إِكْرَامِ أَبِي أَيُّوبَ، وَقَالَ لَهُ: لأَجْزِيَنَّكَ عَلَى إِنْزَالِكَ النَّبِيَّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، عِنْدَكَ، فَوَصَلَهُ بِكُلِّ مَا فِي المَنْزِلِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ أَرْبَعِينَ أَلْفاً. وَيُرْوَى أَنَّهُ فَرَّغَ لَهُ البَيْتَ، وَقَالَ: لأَصْنَعَنَّ بِكَ كَمَا صَنَعْتَ بِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، كَمْ عَلَيْكَ؟ قَالَ: عِشْرُونَ أَلْفاً، فَأَعْطَاهُ أَرْبَعِينَ أَلْفاً، وَعِشْرِينَ مَمْلُوكاً، وَمَتَاعَ البَيْتِ.

وَفَاتُهُ

عَادَ الجِهَادُ بَعْدَ أَنْ تَوَحَّدَتْ كَلِمَةُ الأُمَّةِ، وَتَجَمَّعَ أَبْنَاؤُهَا تَحْتَ رَايَةٍ وَاحِدَةٍ، أَيَّامَ مُعَاوِيَةَ بنِ أَبِي سُفْيَانَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وَعَادَ أَبُو أَيُّوبَ إِلَى الجِهَادِ رَغْمَ تَقَدُّمِ سِنِّهِ وَهَرَمِ جِسْمِهِ. وَكَانَ عِنْدَمَا يُطْلَبُ مِنْهُ الرَّاحَةُ، فَقَدْ كَفَاهُ مَا غَزَاهُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، وَفِي أَيَّامِ الرَّاشِدِينَ يُجِيبُ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً ﴾، وَلاَ أَجِدُنِي إلاَّ خَفِيفاً أَوْ ثَقِيلاً.

وَانْطَلَقَ الغَزْوُ إِلَى بِلاَدِ الرُّومِ، وَكَانَتْ وِجْهَتُهُ القِسْطِنْطِينِيَّةَ عَنْ طَرِيقِ البَحْرِ، وَكَانَ عَلَى الجَيْشِ يَزِيدُ بنُ مُعَاوِيَةَ. وَانْتَظَمَ أَبُو أَيُّوبَ فِي الغَزْوِ مَعَ مَنِ انْتَظَمَ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ.

وَحَاصَرَ المُسْلِمُونَ القِسْطِنْطِينِيَّةَ، وَمَرِضَ أَبُو أَيُّوبَ، وَجَاءَ يَزِيدُ أَمِيرُ الجَيْشِ يَعُودُهُ، فَقَالَ لَهُ: مَا حَاجَتُكَ؟. قَالَ: نَعَمْ حَاجَتِي إِذَا أَنَا مِتُّ فَارْكَبْ بِي ثُمَّ سُغْ بِي فِي أَرْضِ العَدُوِّ مَا وَجَدْتَ مَسَاغاً، فَإِذَا لَمْ تَجِدْ مَسَاغاً فَادْفُنِّي ثُمَّ ارْجِعْ. وَرُوِيَ أَنَّه قَالَ لَهُ: أَقْرِىءِ النَّاسَ مِنِّي السَّلاَمَ وَلِيَنْطَلِقُوا بِي فَلْيَبْعُدُوا

مَا اسْتَطَاعُوا. فَحَدَّثَ يَزِيدُ النَّاسَ بِمَا قَالَ أَبُو أَيُّوبَ، فَاسْتَسْلَمَ النَّاسُ فَانْطَلَقُوا بِجَنَازَتِهِ مَا اسْتَطَاعُوا. فَكَانَ قَبْرُهُ بِأَصْلِ حِصْنِ القَسْطَنْطِينِيَّةِ بِأَرْضِ الرُّومِ.

لَقَدْ تُوُفِّيَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَهُوَ يُفَكِّرُ بالجِهَادِ، فَيُرِيدُ أَنْ يَكُونَ قَبْرُهُ أَقْرَبَ مَا يَكُونُ إِلَى العَدُوِّ كَأَنَّهُ فِي نِزَالٍ مَعَهُمْ، وَلِيَبْقَى المُسْلِمُونَ يَسْتَشْعِرُونَ القِتَالَ، وَأَنَّهُمْ بِحَاجَةٍ إِلَى التَقَدُّمِ، فَقَبْرُ صَاحِبِهِمْ لاَ يَزَالُ أَمَامَهُمْ، وَهَذَا مَا كَانَ يَحْدُثُ، فَقَدْ كَانَ مَدْعَاةً لِحَمَاسَةِ المُجَاهِدِينَ، وَانْطِلاَقِهِمْ نَحْوَ أَهْدَافِهِمْ.

رَوَى أَبُو أَيُّوبَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَحَادِيثَ كَثِيرَةً لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، رَوَى مِنْهَا البُخَارِيُّ حَدِيثاً وَاحِداً، وَمُسْلِمُ خَمْسَةَ أَحَادِيثَ، وَرَوى مِنْهَا (بَقِيٌّ بن مَخْلَدٍ) مَائَةً وَخَمْسِينَ حَدِيثاً.

حَدَّثَ عَنْ أَبِي أَيُّوبَ كَثِيرُونَ مِنْهُمْ: جَابِرُ بنُ سَمُرَةَ، وَالبَرَاءُ بنُ عَازِبٍ، وَسَعِيدُ بنُ المُسَيِّبِ، وَمُوسَى بن طَلْحَةَ بن عُبَيْدِ اللَّهِ، وَعُرْوَةُ بنُ الزُّبَيْرِ، وَعَطَاءُ بنُ يَزِيدَ اللَّيْثِيُّ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ أَبِي لَيْلَى، وَمُحَمَّدُ بنُ كَعْبٍ وَآخَرُونَ.

بُنَاة دَوْلَـةِ الإسْلام
٣٤

سَعْدُ بن أَبي وَقَّاص
رضي الله عنه

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:
«هَذَا خَالِي فَلْيُرِنِي امْرُؤٌ خَالَهُ»
رواه الترمذي والطبراني

أُسْرَةُ سَعْدٍ

هُوَ سَعْدُ بنُ أَبِي وَقَّاصٍ بنِ أُهَيْبِ بنِ عَبْدِ مَنَافِ بنِ زُهْرَةَ. وَبَنُو زُهْرَةَ أَحَدُ بُطُونِ قُرَيْشٍ المَعْرُوفَةُ بِنُبْلِهَا وَالمَعْدُودَةُ.

وَأَبُو وَقَّاصٍ اسْمُهُ مَالِكٌ اشْتَهَرَ بِكِنْيَتِهِ وَبِهَا عُرِفَ، كَمَا نُسِبَ إِلَيْهَا أَبْنَاؤُهُ.

أُمُّهُ:

حَمْنَةُ بِنْتُ سُفْيَانَ بنِ أُمَيَّةَ بنِ عَبْدِ شَمْسٍ بنِ عَبْدِ مَنَافِ بنِ قُصَيٍّ بنِ كِلَابٍ. فَأَبُوهُ زُهْرِيٌّ، وَأُمُّهُ أُمَوِيَّةٌ عَبْشَمِيَّةٌ.

زَوْجَاتُهُ:

تَزَوَّجَ سَعْدٌ عِدَّةَ زَوْجَاتٍ، وذَلِكَ بَعْدَ إِسْلَامِهِ، إِذْ أَسْلَمَ صَغِيراً، وَلَمْ يَكُنْ قَدْ تَزَوَّجَ بَعْدُ، كَمَا كَانَتْ عِنْدَهُ عِدَّةَ أُمَّهَاتِ أَوْلَادٍ.

١ - تزوَّجَ ابْنَةَ شِهَابِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بنِ الحَارِثِ بنِ زُهْرَةَ، وَذَلِكَ فِي مَطْلَعِ شَبَابِهِ، وَهِيَ ابْنَةُ عَمِّهِ فَهِيَ زُهْرِيَّةٌ مِثْلَهُ.

٢ - وَتَزَوَّجَ مَاوِيَةَ بِنْتَ قَيْسِ بنِ مَعْدِ يكرِبِ مِنْ كِنْدَةَ.

٣ - وَتَزَوَّجَ أُمَّ عَامِرٍ بِنْتَ عَمْرِو بنِ عَمْرٍو مِنْ قَبِيلَةِ بَهْرَاءَ.

٤ - وَتَزَوَّجَ امْرَأَةً مِنْ بَنِي بَكْرِ بنِ وَائِلٍ تُدْعَى زَبَدَ.

٥ - وَتَزَوَّجَ امْرَأَةً مِنْ بَنِي تَغْلِبِ بنِ وَائِلٍ تُسَمَّى سَلْمَى.

٦ - وَتَزَوَّجَ خَوْلَةَ بِنْتَ عَمْرِو بنِ أَوْسٍ مِنْ بَنِي تَغْلِبِ بْنِ وَائِلٍ أَيْضاً.

٧ - وَتَزَوَّجَ أُمَّ هِلَالٍ بِنْتِ رَبِيعٍ مِنْ مَذْحِجٍ.

٨ - وَتَزَوَّجَ أُمَّ حَكِيمٍ بِنْتِ قَارِظٍ مِنْ كِنَانَةَ.

٩ - وَتَزَوَّجَ امْرَأَةً تُدْعَى سَلْمَى بِنْتَ خَصَفَةَ، وَكَانَتْ زَوْجَ المُثَنَّى بنِ حَارِثَةَ قَبْلَهُ.

١٠ - وَتَزَوَّجَ امْرَأَةً تُدْعَى طَيِّبَةَ.

١١ - وَتَزَوَّجَ أُمَّ حُجَيْرٍ.

أَوْلَادُهُ:

كَانَ لِسَعْدٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثَمَانِيَةَ عَشَرَ مِنَ الوَلَدِ وَهُمْ:

١ - إِسْحَاقُ الأَكْبَرُ: وَبِهِ يُكَنَّى، وَأُمُّهُ ابْنَةُ شِهَابٍ الزُّهْرِيَّةُ.

٢ - عُمَرُ: وَهُوَ الَّذِي كَانَ عَلَى رَأْسِ جَيْشِ عُبَيْدِ اللَّهِ بنِ زِيَادٍ الَّذِي خَرَجَ لِصَدِّ الحُسَيْنِ بنِ عَلِيٍّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنْ دُخُولِ الكُوفَةِ، وَكَانَتْ فَاجِعَةُ كَرْبُلاءَ. وَقَدْ قَتَلَهُ المُخْتَارُ الثَّقَفِيُّ عِنْدَمَا سَيْطَرَ عَلَى العِرَاقِ.

٣ - مُحَمَّدُ: وَقُتِلَ فِي مَعْرَكَةِ دَيْرِ الجَمَاجِمِ، قَتَلَهُ الحَجَّاجُ بنُ يُوسُفَ الثَّقَفِيُّ. وَأُمُّهُمَا مَاوِيَةُ بِنْتُ قَيْسٍ الكِنْدِيَّةُ.

٤ - عَامِرٌ.

٥ - إِسْحَاقُ الأَصْغَرُ.

٦ - إِسْمَاعِيلُ. وَأُمُّهُمْ أُمُّ عَامِرٍ بنتُ عَمْرٍو من بَهْرَاءَ.

٧ - إِبْرَاهِيمُ.

٨ - مُوسَى. وَأُمُّهُمَا زَبَدُ البَكْرِيَّةُ.

٩ - عَبْدُ اللَّهِ الأَكْبَرُ: وَأُمُّهُ سَلْمَى التَغْلِبِيَّةُ.

١٠ - مُصْعَبُ: وَأُمُّهُ خَوْلَةُ التَغْلِبِيَّةُ.

١١ - عَبْدُاللَّهِ الأَصْغَرُ.

١٢ - بُجَيْرٌ: وَهُوَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ. وَأُمُّهُمَا أُمُّ هِلاَلٍ بنتُ رَبِيعٍ المَذْحِجِيَّةُ.

١٣ - عُمَيْرُ الأَكْبَرُ: وَقَدْ تُوفِيَ قَبْلَ أَبِيهِ. وَأُمُّهُ أُمُّ حَكِيمٍ الكِنَانِيَّةُ.

١٤ ـ عُمَيْرُ الأَصْغَرُ.
١٥ ـ عَمْرُو.
١٦ ـ عِمْرَانُ. وَأُمُّهُمْ سَلْمَى بِنْتَ خَصَفَةَ.
١٧ ـ صَالِحُ: وَأُمُّهُ طَيِّبَةُ.
١٨ ـ عُثْمَانُ: وَأُمُّهُ أُمُّ حُجَيْرٍ.

وَكَانَ لَهُ مِنَ البَنَاتِ ثَمَانِي عَشَرَةَ بِنْتاً أَيْضاً وَهُنَّ:

١ ـ أُمُّ الحَكَمِ: وَأُمُّهَا ابْنَةُ شِهَابِ الزُّهْرِيَّةُ.
٢ ـ حَفْصَةُ.
٣ ـ أُمُّ القَاسِمِ.
٤ ـ أُمُّ كُلْثُومٍ. وَأُمُّهُنَّ مَاوِيَةُ بِنْتُ قَيْسٍ الكِنْدِيَّةُ.
٥ ـ أُمُّ عِمْرَانَ: وَأُمُّهَا أُمُّ عَامِرٍ بِنْتُ عَمْرٍو مِنْ بَهْرَاءَ.
٦ ـ أُمُّ الحَكَمِ الصُّغْرَى.
٧ ـ أُمُّ عَمْرٍو.
٨ ـ هِنْدُ.
٩ ـ أُمُّ الزُّبَيْرِ.
١٠ ـ أُمُّ مُوسَى. وَأُمُّهُنَّ زَبَدُ البَكْرِيَّةُ.
١١ ـ حَمِيدَةُ: وَأُمُّهَا أُمُّ هِلَالٍ بِنْتُ رَبِيعٍ المَذْحِجِيَّةُ.
١٢ ـ حَمْنَةُ: وَأُمُّهَا أُمُّ حَكِيمٍ الكِنَانِيَّةُ.

١٣ ـ أمُّ عَمْرٍو.

١٤ ـ أمُّ أَيُّوبَ.

١٥ ـ أمُّ إسْحَاقَ. وَأُمُّهُنَّ سَلْمَى بِنْتُ خَصَفَةَ.

١٦ ـ رَمْلَةُ: وَأُمُّهَا أمُّ حُجَيْرٍ.

١٧ ـ عُمَيْرَةُ: وَهِـيَ العَمْيَاءُ. وَأُمُّهَـا أمُّ وَلَـدٍ، وَتَزَوَّجَهَـا سُهَيْلُ بنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ عَوْفٍ.

١٨ ـ عَائِشَةُ: وَأُمُّهَا أُمُّ وَلَدٍ.

إخْوَتُهُ:

وَمِنْ إخْوَتِهِ المَعْرُوفِينَ.

١ ـ عُمَيْرٌ: شَقِيقُ سَعْدٍ، وَأَصْغَرُ مِنْهُ بِسِتَّةَ عَشَرَ عَاماً، أَسْلَمَ قَبْلَ الهِجْرَةِ، وَلَم يَتَجَاوَزِ الحَادِيَةَ عَشَرة، وَهَاجَرَ مَعَ أَخِيهِ سَعْدٍ، وآخَـى رَسُـولُ اللَّـهِ، صَلَّـى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّـمَ، بَيْنَـهُ وَبَيْنَ عَمْرِو بنِ مُعَـاذٍ أَخِـي سَعْدِ بـنِ مُعَـاذٍ. شَهِـدَ عُمَيْرٌ بَدْرَاً، وَعِنْدَمَا اسْتَعْـرَضَ رَسُـولُ اللَّـهِ، صَلَّـى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّـمَ، المُسْلِمِينَ أَخَذَ يَتَوَارَى فَقَالَ لَهُ أَخُوهُ سَعْدٌ: مَا لَكَ يَا أَخِي؟ فَقَالَ: إنِّي أَخَافُ أَنْ يَرَانِي رَسُـولُ اللَّـهِ، صَلَّـى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَسْتَصْغِرَنِي فَيَرُدَّنِي، وَأَنَا أُحِبُّ الخُرُوجَ لَعَـلَّ اللَّـهَ يَرْزُقُنِي الشَّهَادَةَ. فَعُرِضَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّـهُ عَلَيْهِ

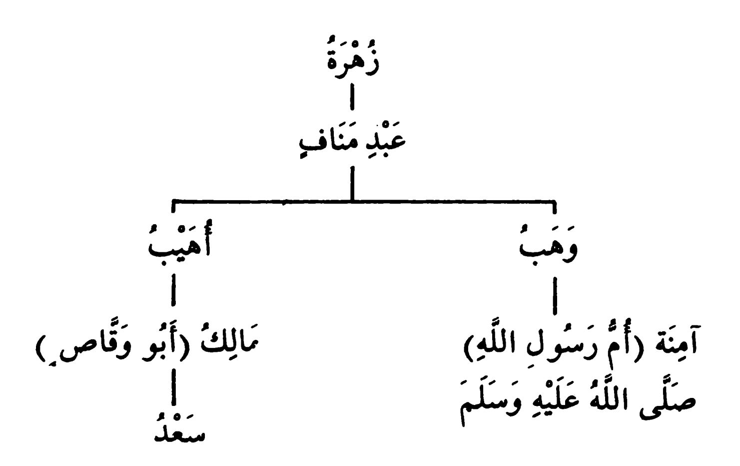
وَسَلَّمَ، فَاسْتَصْغَرَهُ فَقَالَ لَهُ: ارْجَعْ، فَبَكَى عُمَيْرٌ فَأَجَازَهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَكَانَ سَعْدٌ يَعْقِدُ لَهُ حَمَائِلَ سَيْفِهِ مِنْ صِغَرِهِ. فَقُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ وَهُوَ ابنُ سِتَّ عَشَرَةَ سَنَةً، قَتَلَهُ عَمْرُو بنُ عَبْدُوُدٍّ.

٢ ـ عُتْبَةُ: وَهُوَ أَسَنُّ مِنْ سَعْدٍ، وَشَهِدَ المَعَارِكَ مَعَ المُشْرِكِينَ، وَرَمَى يَوْمَ أُحُدٍ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَسَرَ رُبَاعِيَّتَهُ اليُمْنَى السُّفْلَى، وَجَرَحَ شَفَتَهُ السُّفْلَى، وَحَرَصَ أَخُوهُ سَعْدٌ يَوْمَئِذٍ عَلَى قَتْلِهِ.

وَعُرِفَ مِنْ أَبْنَاءِ عُتْبَةَ هَاشِمٌ، وَقَدْ وُلِدَ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَشَهِدَ اليَرْمُوكَ، وَذَهَبَتْ عَيْنُهُ يَوْمَئِذٍ، وَشَهِدَ فُتُوحَ الشَّامِ، وَكَانَ بِجَانِبِ عَلِيٍّ بنِ أَبِي طَالِبٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَانَ يَحْمِلُ رَايَتَهُ يَوْمَ صِفِّينَ، فَقُتِلَ يَوْمَئِذٍ، وَكَانَ طَوِيلاً مَوْصُوفاً بِالشَّجَاعَةِ وَالإِقْدَامِ، وَيُعْرَفُ بِـ (المِرْقَالِ).

قَرَابَةُ سَعْدٍ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

إِنَّ آمِنَةَ أُمَّ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنْ بَنِي زُهْرَةَ قَوْمِ سَعْدِ بنِ أَبِي وَقَّاصٍ، وَهِيَ ابْنَةُ عَمِّ أَبِي وَقَّاصٍ (مَالِكٍ) وَالِدِ سَعْدٍ.



إِسْلاَمُ سَعْدٍ

وُلِدَ سَعْدُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حَوَالَـيْ السَّنَـةِ الثَّـلاثِينَ قَبْـلَ الهِجْرَةِ فَهُوَ أَصْغَرُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّـمَ، بِثَلاَثٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً تَقْرِيباً. وَكَانَ عُمْرُهُ يَوْمَ البِعْثَةِ مَا يَقْـرُبُ مِنْ سَبْعَةَ عَشَرَ عَاماً.

كَانَ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ، وَكَذَلِكَ زَيْدُ بنُ حَارِثَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكَانَ هَؤُلاَءِ الاثْنَانِ فِي بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ أَسْلَمَ أَبُـو بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

دَعَا أَبُو بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، طَلْحَةَ بنَ عُبَيْدِ اللَّهِ، وَعَبْدَ

الرَّحْمَنِ بنِ عَوْفٍ، وَعُثْمَانَ بنَ عَفَّانَ، وَالزُّبَيْرَ بنَ العَوَّامَ، وَسَعْدَ بنَ أَبِي وَقَّاصٍ فاسْتَجَابُوا لِدَعْوَتِهِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جَمِيعَاً، فَكَانَ هَؤُلاَءِ الثَّمَانِيَةُ الَّذِينَ سَبَقُوا النَّاسَ بالإِسْلاَمِ، وَصَدَّقُوا رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِمَا جَاءَهُ مِنَ اللَّهِ.

وَيَبْدُو ـ وَاللَّهُ أَعْلَمُ ـ أَنَّ سَعْدَاً قَدْ أَجَابَ أَبَا بَكْرٍ فَوْرَاً عَلَى حِينَ أَمْهَلَهُ الآخَرُونَ حَتَّى الصَّبَاحِ، وَيَظْهَرُ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِ سَعْدٍ نَفْسِهِ: مَا أَسْلَمَ أَحَدٌ فِي اليَوْمِ الَّذِي أَسْلَمْتُ فِيهِ، وَلَقَدْ مَكَثْتُ سَبْعَ لَيَالٍ وَإِنِّي لَثُلُثُ الإِسْلاَمِ[1].

وَتَقُولُ عَائِشَةُ بِنْتُ سَعْدٍ: مَكَثَ أَبِي يَوْمَاً إِلَى اللَّيْلِ وَإِنَّهُ لَثُلُثُ الإِسْلاَمِ.

وَيَبْدُو أَنَّ سَعْدَاً، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كَانَ يَعُدُّ عَلِيَّاً صَغِيرَاً بَعْدُ إِذْ لَمْ يَبْلُغِ الحُلُمَ، وَيَعُدُّ زَيْدَاً مَوْلَىً، أَمَّا خَدِيجَةُ فَهِيَ امْرَأَةٌ فَلَمْ يَبْقَ سِوَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَبِي بَكْرٍ، وَسَعْدٍ نَفْسِهِ. وَكَانَ عُمْرُ سَعْدٍ يَوْمَ أَسْلَمَ مَا يَقْرُبُ مِنْ سَبْعَةَ عَشَرَ عَامَاً، أَيّ فِي العَامِ الَّذِي بُعِثَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) أخرجه البخاري، وابن ماجه، والطبراني، وأبو نعيم، وابن سعد.

وَبَقِيَتِ الدَّعْوَةُ سِرّاً ثَلاَثَ سَنَوَاتٍ، وَكَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذَا صَلُّوا خَرَجُوا إِلَى شِعَابِ مَكَّةَ فَاسْتَخْفَوْا بِصَلاَتِهِمْ مِنْ قَوْمِهِمْ، فَبَيْنَا سَعْدُ بنُ أَبِي وَقَّاصٍ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي شِعْبٍ مِنْ شِعَابِ مكَّةَ إِذْ ظَهَرَ عَلَيْهِمْ نَفَرٌ مِنَ المُشْرِكِينَ، فَنَاكَرُوهُمْ، وَعَابُوا عَلَيْهِمْ مَا يَصْنَعُونَ حَتَّى قَاتَلُوهُمْ، فَأَخَذَتِ الحَمَاسَةُ سَعْدَاً، وَهُوَ عَلَى يَقِينٍ أَنَّهُ عَلى حَقٍّ، فَضَرَبَ رَجُلاً مِنَ المُشْرِكِينَ بِلِحى بِعِيرٍ فَشَجَّهُ، فَكَانَ أَوَّلَ دَمٍ هُرِيقَ فِي الإِسْلاَمِ.

وَجَهَرَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِالدَّعْوَةِ، وَوَقَفَتْ قُرَيْشٌ فِي وَجْهِهِ، وَأَذَاقَتْ مَنْ أَسْلَمَ مُرَّ العَذَابِ، فَمَاتَ مِنْهُمْ مَنْ مَاتَ، وَهَاجَرَ إِلَى الحَبَشَةِ هَرَباً بِدِينِهِ مَنْ سَمَحَتْ لَهُ ظُرُوفُهُ بِالهِجْرَةِ، وَمَنْ بَقِيَ قُوطِعَ وَحُوصِرَ مَعَ بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي المُطَّلِبِ فِي شِعْبِ أَبِي طَالِبٍ حَتَّى جَهِدَ المُؤْمِنُونَ مِنْ ضِيقِ الحِصَارِ، حَتَّى أَنَّهُمْ كَانُوا يَأْكُلُونَ الخَبَطَ، وَوَرَقَ السَّمُرِ، حَتَّى إِنَّ أَحَدَهُمْ لَيَصْنَعُ كَمَا تَصْنَعُ الشَّاةُ، وَكَانَ فِيهِمْ سَعْدُ بنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَرُوِيَ أَنَّهُ قَالَ: لَقَدْ جُعْتُ حَتَّى إِنِّي وَطِئْتُ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى شَيْءٍ رَطْبٍ،

فَوَضَعْتُهُ فِي فَمِي وَبَلَعْتُهُ، وَمَا أَدْرِي مَا هُوَ إِلَى الآنَ. وَكَانُوا إِذَا قَدِمَتِ العِيرُ مَكَّةَ، وَأَتَى أَحَدُهُمُ السُّوقَ لِيَشْتَرِيَ شَيْئاً مِنَ الطَّعَامِ لِعِيَالِهِ، يَقُومُ أَبُو لَهَبٍ عَدُوُّ اللَّهِ فَيَقُولُ: يَا مَعْشَرَ التُّجَّارِ، غَالُوا عَلَى أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ حَتَّى لاَ يُدْرِكُوا مَعَكُمْ شَيْئاً، فَقَدْ عَلِمْتُمْ مَالِي وَوَفَاءَ ذِمَّتِي، فَأَنَا ضَامِنٌ أَنْ لاَ خَسَارَ عَلَيْكُمْ. فَيَزِيدُونَ عَلَيْهِمْ فِي السِّلْعَةِ قِيمَتَهَا أَضْعَافاً، حَتَّى يَرْجِعَ المُسْلِمُ إِلَى أَطْفَالِهِ، وَهُمْ يَتَضَاغَوْنَ مِنَ الجُوعِ، وَلَيْسَ فِي يَدَيْهِ شَيْءٌ يُطْعِمُهُمْ بِهِ، وَيَغْدُو التُّجَّارُ عَلَى أَبِي لَهَبٍ فَيُرْبِحُهُمْ فِيمَا اشْتَرَوْا مِنَ الطَّعَامِ وَاللِّبَاسِ حَتَّى جَهِدَ المُسْلِمُونَ، وَمَنْ مَعَهُمْ جُوعاً وَعُرْياً.

وَرُوِيَ عَنْ سَعْدٍ أَنَّهُ قَالَ: نَزَلَتِ الآيَةُ ﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالغَدَاةِ وَالعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[1] نَزَلَتْ فِي سِتَّةٍ أَنَا وَابْنُ مَسْعُودٍ مِنْهُمْ[2].

وَرُوِيَ عَنْهُ أَيْضاً أَنَّهُ قَالَ: نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِيَّ ﴿وَوَصَّيْنَا

---

(١) سورة الأنعام الآية ٥٢.
(٢) أخرجه مسلم، وابن ماجه، والنسائي، والحاكم، وابن حبان، والبيهقي.

الإنْسَانَ بِوَالِـدَيْهِ حُسْنَـاً، وَإِنْ جَاهَـدَاكَ لِتُشْـرِكَ بِي مَا لَيسَ لَكَ بِهِ عِلْـمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَـا، إِلَـيَّ مَرْجِعُـكُمْ فَأُنَبِّـئُكُمْ بِمَـا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)[١]. قَالَ: كُنْتُ بَرّاً بِأُمِّي، فَلَمَّا أَسْلَمْتُ قَالَتْ: يَا سَعْدُ، مَا هَذَا الدِّينُ الَّذِي قَدْ أَحْدَثْتَ؟ لَتَدَعَنَّ دِينَكَ هَذَا، أَوْ لاَ آكُلُ، وَلاَ أَشْرَبُ، حَتَّى أَمُوتَ، فَتُعَيَّرَ بِي، فَيُقَالُ: يَا قَاتِلَ أُمِّهِ، قُلْـتُ: لاَ تَفْعَلِـي يَا أُمَّـهْ، إِنِّـي لاَ أَدَعُ دِينِـي هَذَا لِشَيْءٍ، فَمَكَثَـتْ يَوْمَـاً لاَ تَأْكُلُ وَلاَ تَشْـرَبُ وَلَيْلَـةً، فَأَصْبَحَـتْ وَقَـدْ جَهِدَتْ، فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ قُلْتُ: يَا أُمَّهْ تَعْلَمِينَ وَاللَّهِ لَوْ كَانَ لَكِ مَائَةُ نَفْسٍ، فَخَرَجَتْ نَفْسَـاً نَفْسَـاً، مَا تَرَكْتُ دِينِـي. إِنْ شِئْتِ كُلِي أَوْ لاَ تَأْكُلِي. فَلَمَّا رَأَتْ ذَلِكَ أَكَلَتْ[٢].

هِجْرَةُ سَعْدٍ

وَكَانَتِ الأَيَّامُ تَمُرُّ عَلَى المُسْـلِمِينَ فِي مَكَّةَ بَطِيئَـةً مُتَثَاقِلَـةً هَكَذَا يَرَوْنَهَا لِمَا كَانُـوا يُعَانُـونَ مِنْ حَرْبٍ نَفْسِيَّةٍ وَمِـنْ حَرْبٍ اقْتِصَادِيَّةٍ وَمِنْ أَذىً فِي أَبْدَانِهِمْ، وَمِنْ ظُلْمِ ذَوِيهِمْ وَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ فِى حِمَىً أَوْ مَنْأَىً مِنْ ذَلِكَ لِوَضْعِهِ الاجْتِمَاعِيِّ أَوْ لأَنَّهُ فِي جِوَارِ أَحَدَ السَّادَةِ كَانَ قَلْبُهُ يَتَفَطَّرُ عَلَى إِخْوَانِهِ الَّذِينَ يَنَالُهُـمُ

---

(١) سورة العنكبوت الآية ٨.

(٢) أخرجه الترمذي، وأبو داود، وأحمد وغيرهم.

الأَذَى فِي كُلِّ حِيْنٍ وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ دَفْعَهُ عَنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَا لاَ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَدْفَعَهُ عَنْهُمْ، وَقُرَيْشٌ سَائِرَةٌ فِي غَيِّهَا مُتَمَادِيَةٌ فِي بَاطِلِهَا لاَ تَعْرِفُ الرَّحْمَةَ، وَلاَ تَمَسُّ الشَّفَقَةُ قَلْبَ رَجُلٍ مِنْ كُبَرَائِهَا، فَقُلُوبُهُمْ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً لاَ تَفْهَمُ مَعْنَى الإِنْسَانِيَّةِ وَلاَ تَنْطِقُ إلاَّ مِنْ خِلاَلِ مَا تُفَكِّرُ فِيْهِ وَمَا تَرَى فِيْهِ مِنْ مَصْلَحَةٍ لَهَا.

وَجَاءَتْ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ فَلَيَّنَ قُلُوبَ بَعْضِ أَهْلِ يَثْرِبَ فَدَانُوا بِالإِسْلاَمِ، وَصَدَّقُوا رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِمَا جَاءَهُ مِنْ رَبِّهِ، وَفَتَحُوا قُلُوبَهُمْ وَصُدُورَهُمْ وَبُيُوتَهُمْ وَمَدِينَتَهُمْ لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ سَبَقُوهُمْ بِالإِيمَانِ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَأَخَذَ مُسْلِمُو مَكَّةَ يَنْتَقِلُونَ إِلَى يَثْرِبَ الَّتِي غَدَتْ مَدِينَةَ الإِسْلاَمِ، يَنْتَقِلُونَ جَمَاعَةً إِثْرَ جَمَاعَةٍ حَتَّى لَمْ يَبْقَ فِي مَكَّةَ إلاَّ مَنْ حُبِسَ أَوْ فُتِنَ، وَالْتَقَى الإِخْوَةُ مَعَ إِخْوَانِهِمْ فِي الْمَدِينَةِ وَالأَحِبَّةُ بَعْضُهُمْ مَعَ بَعْضٍ.

وَهَاجَرَ سَعْدُ بنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَهَاجَرَ مَعَهُ أَخُوهُ الصَّغِيرُ عُمَيْرُ بنُ أَبِي وَقَّاصٍ وَلَمْ يَتَجَاوَزِ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ مِنَ الْعُمْرِ، وَنَزَلاَ فِي مَنْزِلٍ لأَخِيهِمَا عُتْبَةَ بنِ أَبِي وَقّاصٍ كَانَ بَنَاهُ فِي بَنِي

عَمْرِو بن عَوْفٍ وَحَائِطٍ لَهُ، وَكَانَ عُتْبَةُ أَصَابَ دَماً بِمَكَّةَ فَهَرَبَ وَنَزِلَ فِي بَنِي عَمْرِو بن عَوْفٍ وَذَلِكَ قَبْلَ يَوْمِ بُعَاثٍ. وَكَانَ ذَلِكَ خِطَّةً مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِأَمْرِ النُّزُولِ فِي دَارِ أَخِيهِمَا.

وَآخَى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَيْنَ سَعْدِ بن أَبِي وَقَّاصٍ وَبَيْنَ سَعْدِ بن مُعَاذٍ، كَمَا آخَى بَيْنَ عُمَيْرِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ وَبَيْنَ عَمْرِو بن مُعَاذٍ. وَفِي رِوَايَةٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، آخَى بَيْنَ سَعْدِ بن أَبِي وَقَّاصٍ وَبَيْنَ مُصْعَبِ بن عُمَيْرٍ.

مَعَ الجِهَادِ

أَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَرْكَانَ دَوْلَةِ الإِسْلاَمِ فِي المَدِينَةِ بَعْدَ أَنْ آخَى بَيْنَ المُسْلِمِينَ وَوَادَعَ اليَهُودَ. وَأَخَذَ بَعْدَ ذَلِكَ يَسْتَعِدُّ لِلْقِتَالِ الَّذِي لاَ بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ حَتَّى وَلَوْ سَكَنَ المُسْلِمُونَ وَانْصَرَفُوا فَإِنَّ الكُفْرَ لَنْ يَقْبَلَ وَلَنْ يَسْكُتَ عَنِ الحَقِّ بَلْ يَعْمَلُ لِدَحْضِهِ. وَكَانَ قَدْ أُذِنَ لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِالقِتَالِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ. الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ

يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَساجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ. الَّذِينَ إنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ المُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾[1].

أَخَذَ الرَّسُولُ الكَرِيمُ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلاَةِ وَالسَّلاَمِ بِتَجْرِيدِ الغَزَوَاتِ وَتَسْيِيرِ السَّرَايَا إلَى الجِهَاتِ الَّتِي سَتَكُونُ مَسْرَحاً لِلنِّزَالِ لِدِرَاسَةِ المَنْطِقَةِ وَمَعْرِفَةِ مَسَالِكِهَا والاتِّصَالِ بَأَصْحَابِهَا لَدَعْوَتِهِمْ وَالاتِّفَاقِ مَعَهُمْ أَوْ لِوُقُوفِهِمْ عَلَى الحِيَادِ عَلَى الأَقَلِّ عِنْدَمَا يَحْدُثُ اللِّقَاءُ بَيْنَ المُسْلِمِينَ وَأَعْدَائِهِمْ.

سَارَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إلَى وَدَّانَ غَازِياً، وَلَمَّا رَجَعَ إلَى المَدِينَةِ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ أَرْسَلَ سَرِيَّةً بِإِمْرَةِ عُبَيْدَةَ بنِ الحَارِثِ، وَجَمِيعُ أَفْرَادِهَا مِنَ المُهَاجِرِينَ، وَكَانَ مِنْ بَيْنِهِمْ سَعْدُ بنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَالْتَقَت بِجَمْعٍ كَبِيرٍ مِنْ قُرَيْشٍ، وَلَكِنْ لَمْ يَحْدُثْ قِتَالٌ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ، غَيْرَ أَنَّ سَعْداً قَدْ رَمَى يَوْمَئِذٍ بِسَهْمٍ، فَكَانَ أَوَّلَ سَهْمٍ رُمِيَ بِهِ فِي الإِسْلاَمِ. وَانْصَرَفَ القَوْمُ عَنْ القَوْمِ، وَلِلْمُسْلِمِينَ حَامِيَةٌ، وَيَقُولُ

---

(١) سورة الحج الآيتان ٤٠ و ٤١.

سَعْدُ بنُ أَبِي وَقَّاص ٍ فِي هَذَا :

أَلاَ هَلْ أَتَـى رَسُـولَ اللَّـهِ أَنِّي
حَمَيْتُ صَحَابَتِـي بِصُـدُورِ نَبْلِي
أَذُودُ بِهَـا أَوَائِلَهُـمْ ذِيَـاداً
بِـكُلٍّ حَزُونَـةٍ وَبِـكُلِّ سَهْلٍ
فَمَـا يَعْتَـدُّ رَامٍ فِي عَدُوٍّ
بِسَهْـمٍ يَا رَسُـولَ اللَّـهِ قَبْلِي
وَذَلِـكَ أَنَّ دِينَـكَ دِينُ صِدْقٍ
وَذُو حَقٍّ أَتَيْتَ بِهِ عَدْلِ
يُنَجَّـى المُؤْمِنُـونَ بِهِ، وَيُجْزَى
بِـهِ الكُفَّـارُ عِنْـدَ مَقَـامِ مَهْلِ
فَمَهْـلاً قَدْ غَوَيْتَ فَلاَ تَعِبْنِي
غَـوِيَّ الحَـيِّ وَيْحَـكَ يَابْـنَ جَهْلِ

وَكَانَ سَعْدُ أَيْضاً فِي عَدَادِ أَفْرَادِ السَّرِيَّةِ الَّتِي بَعَثَهَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِإِمْرَةِ حَمْزَةَبـنِ عَبْدِ المُطَّلِـبِ إِلَـى سِيْفِ البَحْـرِ مِنْ نَاحِيَةِ العِيصِ ، وَكَانَ عَدَدُهُـمْ ثَلاَثِينَ رَاكِباً، كُلُّهُمْ مِنَ المُهَاجِرِينَ، وَقَدِ انْطَلَقَتْ السَّرِيَّةُ لِمُوَاجَهَةِ أَبِي جَهْلٍ الَّذِي كَانَ مَعَهُ ثَلاَثُمائِةِ رَاكِبٍ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، وَلَمْ

يَقَعْ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ قِتَالٌ إذْ حَجَزَ بَيْنَهُمَا مَجْدِيُّ بنُ عَمْرٍو الجُهَنِيُّ.

وَكَانَ سَعْدٌ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي الغَزَوَاتِ كُلِّهَا الَّتِي غَزَاهَا الرَّسُولُ الكَرِيمُ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ، فِي هَذِهِ المَرْحَلَةِ، فَظَهَرَتْ إمْكَانَاتُ سَعْدٍ الكَبِيرَةُ وَقُدْرَاتُهُ عَلَى القِتَالِ، وَهَذَا مَا خَوَّلَهُ أَنْ يُرْسِلَهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلَى رَأْسِ سَرِيَّةٍ إلَى الخَرَّارِ، فَانْطَلَقَ إلَى وِجْهَتِهِ وَرَجَعَ وَلَمْ يَلْقَ كَيْداً.

وَسَارَ سَعْدٌ أَيْضاً فِي سَرِيَّةِ عَبْدِ اللَّهِ بن جَحْشٍ الَّتِي بَعَثَهَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إلَى نَخْلَةَ بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ، غَيْرَ أَنَّ سَعْداً وَعُتْبَةَ بنَ غَزَوَانَ قَدْ أَضَلاًّ بَعِيراً كَانَا يَعْتَقِبَانِهِ، فَتَخَلَّفَا عَنِ السَّرِيَّةِ فِي طَلَبِ البَعِيرِ. وَغَنِمَتْ هَذِهِ السَّرِيَّةُ ـ كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ فِي أَحْدَاثِ السِّيرَةِ ـ عِيراً لِقُرَيْشٍ كَانَتْ تَحْمِلُ زَبِيباً وَأَدَماً وَأَسِيرَيْنِ، وَكَانَتْ هِذِهِ أَوَّلَ غَنِيمَةٍ غَنِمَهَا المُسْلِمُونَ.

سَعْدٌ فِي مَعْرَكَةِ بَدْرٍ الكُبْرَى

انْتَهَتْ مَرْحَلَةُ دِرَاسَةِ الأَرْضِ وَالتَّعَرُّفِ عَلَيْهَا وَانْتَهَى مَعَهَا

الاتِّصَالُ بِالقَبَائِلِ وَرِجَالاَتِهَا الَّذِينَ يُقِيمُونَ فِي تِلْكَ النَّوَاحِي أَوِ انْتَهتْ مَرْحَلَةُ الاسْتِعْدَادِ، فَكَانُوا بَعْدَهَا يُرِيدُونَ أَنْ يَجُرُّوا قُرَيْشاً إِلَى مَعْرَكَةٍ يَنْتَصِفُوا فِيهَا مِنْهُمْ، ﴿وَيُرِيدُ اللَّـهُ أَنْ يُحِـقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِـهِ وَيَقْطَـعَ دَابِـرَ الكَافِـرِينَ﴾. وَتُـرِيدُ قُرَيْشٌ أَنْ تَقْضِـيَ عَلَـى التَّحَرُّشَـاتِ الَّتِــي يَقُــومُ بِهَــا المُسْلِمُــونَ أَوِ الاسْتِفْزَازَاتِ وَتُحِبُّ أَنْ يَكُونَ القَضَاءُ بِضَرْبَةٍ قَاصِمَـةٍ تُنْهِـي الصِّرَاعَ وَتُفْنِي الجَمَاعَةَ الإِسْلاَمِيَّةَ نِهَائِيّاً. وَكَانَتْ مَعْرَكَةُ بَدْرٍ الكُبْرَى الَّتِي أَرَادَهَا اللَّهُ وَالَّتِي سَيَّرَ الفَـرِيقَيْنِ إِلَيْهَـا لِتَـكُونَ النَّتِيجَـةُ الَّتِـي كَانَـتْ فَلَقَـدْ طَالَ بَغْـيُ قُرَيْشٍ وَزَادَ طُغْيَانُهَـا وَتَمَادِيهَا فِي غَيِّهَا.

بَدَأَتْ مَرْحَلَةُ المَعَارِكِ الكُبْرَى، المُسْلِمُونَ يُرِيدُونَ نَشْـرَ النُّورِ، وَبَسْـطَ الخَيْرِ، وَإِشَاعَـةَ العَـدْلِ، وَإِحْقَـاقَ الحَـقِّ، وَقُرَيْشٌ وَمَنْ وَرَاءَهَا تَبْغِـي بَقَـاءَ سَيْطَـرَةِ الظُّلْـمِ، وَتَحَـكُّمِ الظَّالِمِينَ، وَاسْتِمْـرَارِ الحَيَاةِ وَسْـطَ دَيَاجِيرِ الظَّـلاَمِ لِتَحْقِيقِ الشَّهْوَةِ وَإِطْلاَقِ عِنَانِ النَّفْسِ فِي الغَطْرَسَـةِ وَالتَّسَلُّـطِ عَلَـى عِبَادِ اللَّهِ الفُقَرَاءِ وَالمَسَاكِينَ مِنْ مَوَالِي وَضُعَفَاءَ وَبَائِسِينَ.

وَنَدَبَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّـمَ، المُسْـلِمِينَ لِلْخُرُوجِ إِلَـى قَافِلَـةِ أَبِـي سُفْيَانَ الآيِبَـةِ مِنَ الشَّـامِ وَالَّتِـي

يَنْتَظِرُونَ عَوْدَتَهَا بَعْدَ أَنْ فَاتَتْهُمْ فِي ذَهَابِهَا. فَخَفَّ بَعْضُ المُسْلِمِينَ وَثَقُلَ بَعْضُهُمْ، وَمَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَثْقُلُوا لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَلْقَى حَرْباً، وَإِنَّمَا خَرَجَ لِلْعِيرِ، إِذْ قَالَ لَهُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَذِهِ عِيرُ قُرَيْشٍ فِيهَا أَمْوَالُهُمْ، فَاخْرُجُوا إِلَيْهَا لَعَلَّ اللَّهَ يُنْفِلُكُمُوهَا».

وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَوْمَ السَّبْتِ لِثِنْتَي عَشَرَةَ لَيْلَةً خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ، وَخَرَجَ سَعْدٌ وَأَخُوهُ عُمَيْرٌ مَعَ مَنْ كَانَ قَدْ خَرَجَ. يَقُولُ سَعْدٌ: رَأَيْتُ أَخِي عُمَيْرَ بنَ أَبِي وَقَّاصٍ قَبْلَ أَنْ يَعْرِضَنَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِلْخُرُوجِ إِلَى بَدْرٍ يَتَوَارَى فَقُلْتُ: مَا لَكَ يَا أَخِي؟ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَرَانِي رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَسْتَصْغِرَنِي فَيَرُدَّنِي، وَأَنَا أُحِبُّ الخُرُوجَ لَعَلَّ اللَّهَ يَرْزُقَنِي الشَّهَادَةَ، قَالَ: فَعُرِضَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَاسْتَصْغَرَهُ فَقَالَ: ارْجِعْ، فَبَكَى عُمَيْرٌ فَأَجَازَهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ سَعْدٌ: فَكُنْتُ أَعْقِدُ لَهُ حَمَائِلَ سَيْفِهِ مِنْ صِغَرِهِ فَقُتِلَ بِبَدْرٍ، وَهُوَ ابْنُ سِتَّ عَشَرَةَ سَنَةً، قَتَلَهُ عَمْرُو بنُ عَبْدِ وُدٍّ.

وَقَبْلَ أَنْ يَصِلَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَى بَدْرٍ أَرْسَلَ ثَلاَثَةً مِنَ الشَّبَابِ الأَشِدَّاءِ الشُّجْعَانِ إِلَى مَاءِ بَدْرٍ يَلْتَمِسُونَ الخَبَرَ لَهُ عَلَيْهِ، أَرْسَلَ عَلِيَّ بنَ أَبِي طَالِبٍ، وَالزُّبَيْرَ بنَ العَوَّامِ، وَسَعْدَ بنَ أَبِي وَقَّاصٍ مَعَ نفرٍ آخَرِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ، فَوَجَدُوا عَبْدَيْنِ لِقُرَيْشٍ مَعَ إِبِلٍ يَسْتَقُونَ عَلَيْهَا المَاءَ، فَقَبَضُوا عَلَيْهِمَا وَحَمَلُوهُمَا إِلَى مُعَسْكَرِ المُسْلِمِينَ، فَسَأَلُوهُمَا وَرَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَائِمٌ يُصَلِّي. فَقَالاَ: نَحْنُ سُقَاةُ قُرَيْشٍ، بَعَثُونَا نَسْقِيهِمْ مِنَ المَاءِ. فَكَرِهَ القَوْمُ خَبَرَهُمَا، وَرَجَوْا أَنْ يَكُونَا لأَبِي سُفْيَانَ، فَضَرَبُوهُمَا، فَقَالاَ: نَحْنُ لأَبِي سُفْيَانَ فَتَرَكُوهُمَا. فَلَمَّا انْتَهَى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنْ صَلاَتِهِ، قَالَ: إِذَا صَدَقَاكُمْ ضَرَبْتُمُوهُمَا، وَإِذَا كَذَبَاكُمْ تَرَكْتُمُوهُمَا، صَدَقَا وَاللَّهِ إِنَّهُمَا لِقُرَيْشٍ! أَخْبِرَانِي عَنْ قُرَيْشٍ؟ قَالاَ: هُمْ وَاللَّهِ وَرَاءَ هَذَا الكَثِيبِ الَّذِي تَرَى بِالعُدْوَةِ القُصْوَى. فَقَالَ لَهُمَا: كَمِ القَوْمُ؟ قَالاَ: كَثِيرٌ.

قَالَ: مَا عِدَّتُهُمْ؟ قَالاَ: لاَ نَدْرِي.

قَالَ: كَمْ يَنْحَرُونَ كُلَّ يَوْمٍ؟ قَالاَ: يَوْمَاً تِسْعَاً وَيَوْمَاً عَشْرَاً.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: القَوْمُ بَيْنَ التِّسْعِمَائَةِ وَالأَلْفِ.

ثُمَّ قَالَ لَهُمَا: فَمَنْ فِيهِمْ مِنْ أَشْرَافِ القَوْمِ؟. قَالاَ: عُتْبَةُ بنُ رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةُ بنُ رَبِيعَةَ و...

فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: هَذِهِ مَكَّةُ أَلْقَتْ إِلَيْكُمْ أَفْلاَذَ كَبِدِهَا.

وَدَارَتْ مَعْرَكَةُ بَدْرٍ، وَجَالَ البَاطِلُ فِيهَا جَوْلَتَهُ وَانْدَحَرَ صَاغِرَاً مُتَرَاجِعَاً، وَدَالَتْ دَوْلَتُهُ، وَانْتَصَرَ الحَقُّ، وَارْتَفَعَتْ رَايَتُهُ، وَقَدَّمَ أَبْنَاءُ الإِسْلاَمِ فِيهَا أَنْوَاعَاً مِنَ الشَّجَاعَةِ وَالإِقْدَامِ، وَمِنْهُمْ سَعْدُ بنُ أَبِي وَقَّاصٍ الَّذِي صَرَعَ حُذَيْفَةَ بنَ أَبِي حُذَيْفَةَ بنِ المُغِيرَةِ المَخْزُومِيَّ، وَقَتَلَ نُبَيْهَ بنَ الحَجَّاجِ بنِ عَامِرٍ السَّهْمِيَّ.

وَسَعْدُ فِي قِتَالِهِ هَادِيءُ قَلِيلُ الحَرَكَةِ قَلَّمَا يَرْتَفِعُ صَوْتُهُ وَإِذَا ارْتَفَعَ فَبِالتَّكْبِيرِ أَوْ لِحَاجَةٍ مَاسَّةٍ. وَقَدْ عُرِفَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِالشَّجَاعَةِ وَالثَّبَاتِ، وَمَهَارَتِهِ فِي الرَّمِي، وَكَانَتِ الأَبْطَالُ تَخْشَاهُ وَتَخَافُ لِقَاءَهُ.

فِي مَعْرَكَةِ أُحُدٍ

عَادَ المُشْرِكُونَ يُرِيدُونَ الثَّأْرَ مِنَ المُسْلِمِينَ وَالنَّيْلَ مِنْهُمْ وَالقَضَاءَ عَلَيْهِمْ إِنْ تَمَكَّنُوا فَأَخْزَاهُمُ اللَّهُ وَلَمْ يَنَالُوا خَيْراً. وَخَالَفَ المُسْلِمُونَ فَأَعْطَاهُمُ اللَّهُ دَرْساً فَتَرَاجَعُوا بَعْدَ نَصْرٍ وَأُصِيبَ مِنْهُمْ مَنْ أُصِيبَ.

وَرَمَى سَعْدُ بنُ أَبِي وَقَّاصٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، دُونَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قَالَ سَعْدُ: فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يُنَاوِلُنِي النَّبْلَ وَهُوَ يَقُولُ: ارْمِ، فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي، حَتَّى إِنَّهُ لَيُنَاوِلُنِي السَّهْمَ مَا لَهُ نَصْلُ، فَيَقُول: ارْمِ بِهِ.

وَيَقُولُ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مَا سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَفْدِي أَحَداً بِأَبَوَيْهِ إِلاَّ سَعْداً، فَإِنِّي سَمِعْتُهُ يَقُولُ يَوْمَ أُحُدٍ: ارْمِ سَعْدُ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي.

وَقَتَلَ سَعْدُ يَوْمَ أُحُدٍ حَامِلَ لِوَاءِ المُشْرِكِينَ أَبَا سَعِيدِ بنَ أَبِي طَلْحَةَ، كَمَا قَتَلَ عَدَداً مِنَ الكُفَّارِ يَوْمَذَاكَ.

وَعِنْدَمَا انْكَشَفَ المُسْلِمُونَ رَمَى عُتْبَةُ بنُ أَبِي وَقَّاصٍ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَسَرَ رُبَاعِيَّتَهُ اليُمْنَى

السُّفْلَى، وَجَرَحَ شَفَتَهُ السُّفْلَى، وَأَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بنَ شِهَابٍ الزُّهْرِيَّ شَجَّهُ فِي جَبْهَتِهِ، وَأَنَّ ابنَ قَمِيئَةَ جَرَحَ وَجْنَتَهُ، فَدَخَلَتْ حَلْقَتَانِ مِنْ حَلَقِ المِغْفَرِ فِي وَجْنَتِهِ، وَوَقَعَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي حُفْرَةٍ مِنَ الحُفَرِ الَّتِي عَمِلَهَا أَبُو عَامِرٍ لِيَقَعَ فِيْهَا المُسْلِمُونَ، وَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ... وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عِنْدَمَا غُسِلَ عَنْ وَجْهِهِ الدَمُ: «اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى مَنْ دَمَّى وَجْهَ نَبِيِّهِ».

وَكَانَ سَعْدُ بنُ أَبِي وَقَّاصٍ يَقُولُ: وَاللَّهِ مَا حَرَصْتُ عَلَى قَتْلِ رَجُلٍ قَطُّ كَحِرْصِي عَلَى قَتْلِ عُتْبَةَ بنِ أَبِي وَقَّاصٍ، وَإِنْ كَانَ مَا عَلِمْتُ لَسِيءَ الخُلُقِ مُبْغَضاً فِي قَوْمِهِ، وَلَقَدْ كَفَانِي مِنْهُ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى مَنْ دَمَّى وَجْهَ نَبِيِّهِ».

وَحَضَرَ سَعْدُ المَشَاهِدَ كُلَّهَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَفِي صُلْحِ الحُدَيْبِيَّةِ كَانَ مِنَ الشُّهُودِ الَّذِينَ شَهِدُوا عَلَى الصُّلْحِ، وَفِي فَتْحِ مَكَّةَ كَانَ يَحْمِلُ إِحْدَى رَايَاتِ المُهَاجِرِينَ الثَّلاَثِ.

وَقَدْ بَشَّرَهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِالْجَنَّةِ، وَتُوفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ عَنْهُ رَاضٍ.

مَعَ الصِّدِّيقِ

كَانَ سَعْدُ بِجَانِبِ الصِّدِّيقِ يُنَفِّذُ رَأْيَهُ، وَيَدْعَمُهُ فِي المَوَاقِفِ، وَيُشِيرُ عَلَيْهِ، ؛ إذ كَانَتِ السِّيَاسَةُ العَامَّةُ أَنْ يَبْقَى كِبَارُ الصَّحَابَةِ فِي المَدِينَةِ حُمَاةً لَهَا، وَسَنَداً لِلْخَلِيفَةِ، وَلِيَكُونُوا قُدْوَةً لِلنَّاشِئِينَ فِيهَا وَالقَادِمِينَ إِلَيْهَا.

وَلاَ يَخْرُجُ هَؤُلاَءِ الصَّحَابَةُ إلاَّ لِقِيَادَةِ الجُيُوشِ فَقَدَ خَرَجَ أَبُو عُبَيْدَةَ، وَعَمْرُو بنُ العَاصِ، وَيَزِيدُ بنُ أَبِي سُفْيَانَ، وَشُرَحْبِيلُ بنُ حَسَنَةَ إلَى الشَّامِ أُمَرَاءَ وَخَرَجَ مَعَهُمْ مِن الصَّحَابَةِ الزُّبَيْرُ بنُ العَوَّامِ، وَسَعِيدُ بنُ زَيْدٍ، وَمُعَاذُ بنُ جَبَلٍ وَغَيْرِهُمْ. وَخَرَجَ خَالِدُ بنُ الوَلِيدِ إلَى العِرَاقِ وَمَعَهُ عَدَدٌ أَيْضاً مِنَ الصَّحَابَةِ.

وَلَكِنْ لَمْ تُنَفَّذْ هَذِهِ السِّيَاسَةُ بِدِقَّةٍ أَيَّامَ الصِّدِّيقِ لأَنَّ الصَّحَابَةَ لاَ يَزَالُونَ يُشَكِّلُونَ النِّسْبَةَ الكَبِيرَةَ فِي أَعْدَادِ المُجَاهِدِينَ لِقُرْبِ عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَمْ يَكُنْ كُلُّ أَبْنَائِهِمْ قَدْ بَلَغُوا بَعْدُ مَرْحَلَةَ الجِهَادِ، كَمَا لَمْ تَكُنْ الدَّوْلَةُ الإِسْلاَمِيَّةُ قَد امْتَدَّتْ خَارِجَ حُدُودِ الجَزِيرَةِ العَربِيةِ لَيرْفِدَهَا جُمُوعٌ جَدِيدَةٌ مِنَ المُجَاهِدِينَ.

وَكَانَ سَعْدُ بنُ أَبِي وَقَّاصٍ قَدْ بَقِيَ فِي المَدِينَةِ مَعَ مَنْ بَقِيَ

أَمْثَالِ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ، وَعُثْمَانَ بن عَفَّانَ، وَعَلِيٍّ بن أَبي طَالِبٍ، وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بن عَوْفٍ، وَطَلْحَةَ بن عُبَيْدِ اللَّهِ وَغَيْرِهِمْ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جَمِيعاً.

مَعَ الفَارُوق

تَوَسَّعَتِ الدَّوْلَةُ أَيَّامَ الفَارُوقِ وَرَفَدَتْهَا عَنَاصِرُ جَدِيدَةٌ انْخَرَطَ أَبْنَاؤُهَا فِي صُفُوفِ المُجَاهِدِينَ، وَوَفَدَتْ عَلَى المَدِينَةِ جُمُوعٌ غَرِيبَةٌ عَنْهَا وَهَذَا مَا اسْتَدْعَى العَمَل على تَنْفِيذِ سِيَاسَةِ إِبْقَاءِ كِبَارِ الصَّحَابَةِ فِي قَاعِدَةِ الدَّوْلَةِ لِلْمُحَافَظَةِ عَلَى أَسَاتِذَةِ المَدْرَسَةِ المُحَمَّدِيَّةِ فِي دَاخِلِ مَدِينَتِهِمْ لِتَلْقِينِ الجِيلِ النَّاشِيءِ وَتَرْبِيَةِ العُنْصُرِ القَادِمِ عَلَى السُّلوكِ الإِسْلاَمِيِّ بِأَخْذِهِ مِمَّنْ أَخَذَهُ مِنْ نَبْعِهِ الأَوَّلِ صَافِياً عَذْباً. غَيْرَ أَنَّ القِيَادَةَ العَامَّةَ لِلْجُيُوشِ تَحْتَاجُ إِلَى مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ المَدِينَةُ لِذَا فَقَدْ كَانَ الخَلِيفَةُ الفَارُوقُ يُعْطِي تِلْكَ القِيَادَةَ إلى أُولَئِكَ الصَّحَابَةِ أَوْ إِلَى الَّذِينَ نَهَلُوا مِنْهُمْ وَتَمَيَّزُوا بِإِمْكَانَاتِهِمْ. كَمَا خَصَّ أُولَئِكَ وَأَمْثَالِهِمْ بِإِدَارَةِ الوِلاَيَاتِ، فَقَدْ كَانَ لِلسَّبْقِ فِي الإِسْلاَمِ وَشُهُودِ بَدْرٍ وَلِلْقُدْرَاتِ الخَاصَّةِ مَيْزَةٌ لِتَسَلُّمِ المَنَاصِبِ وَالقِيَادَةِ وَالإِدَارَةِ عِنْدَ الفَارُوقِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَعَنْ بَقِيَّةِ الصَّحَابَةِ.

لَمَّا بَلَغَ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ نَبأُ مَعْرَكَةِ الجِسْرِ، وَمَقْتَلُ أَبِي عُبَيْدٍ، وَمَا أَصَابَ المُسْلِمِينَ فِيهَا مِنْ مِحْنَةٍ، وَانْتِظَامُ شَمْلِ الفُرْسِ، وَاجْتِمَاعُ أَمْرِهِمْ عَلَى يَزْدَجِرْدَ الَّذِي أَقَامُوهُ مِنْ بَيْتِ المُلْكِ، وَنَقْضُ أَهْلِ الذِّمَّةِ بِالعِرَاقِ عُهُودَهُمْ، وَنَبْذُهُمُ المَوَاثِيقَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ، وَإِيذَاءُ المُسْلِمِينَ وَإِخْرَاجُ العُمَّالِ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ لِذَا أَخَذَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ يَحُثُّ النَّاسَ وَيُحَرِّضُهُمْ عَلَى جِهَادِ أَهْلِ العِرَاقِ .

وَرَكِبَ عُمَرُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي أَوَّلِ يَوْمٍ مِنَ المُحَرَّمِ مِنَ السَّنَةِ الرَّابِعَةِ عَشْرَةَ فِي الجُيُوشِ مِنَ المَدِينَةِ، فَنَزَلَ عَلَى مَاءٍ يُقَالُ لَهُ «صِرَارُ» فَعَسْكَرَ بِهِ عَازِماً عَلَى غَزْوِ العِرَاقِ بِنَفْسِهِ، وَاسْتَخْلَفَ عَلَى المَدِينَةِ عَلِيَّ بنَ أَبِي طَالِبٍ، وَاسْتَصْحَبَ مَعَهُ عُثْمَانَ بنَ عَفَّانَ وَسَادَاتِ الصَّحَابَةِ. ثُمَّ عَقَدَ مَجْلِساً لاسْتِشَارَةِ الصَّحَابَةِ فِيمَا عَزَمَ عَلَيْهِ، وَنُودِيَ: إنَّ الصَّلاَةَ جَامِعَةٌ، وَقَدْ أَرْسَلَ إِلَى عَلِيٍّ فَقَدِمَ مِنَ المَدِينَةِ، ثُمَّ اسْتَشَارَهُمْ فَوَافَقُوهُ جَمِيعاً عَلَى الذَّهَابِ إِلَى العِرَاقِ إِلاَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بنَ عَوْفٍ فَإِنَّه قَالَ لَهُ: إِنِّي أَخْشَى إِنْ كُسِرْتَ أَنْ يَضْعُفَ المُسْلِمُونَ فِي سَائِرِ أَقْطَارِ الأَرْضِ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَبْعَثَ رَجُلاً وَتَرْجِعَ أَنْتَ إِلَى المَدِينَةِ، فَأَرْفَأَ[1] عُمَرُ وَالنَّاسُ

(١) فأرفأ: فمال إلى.

عِنْدَ ذَلِكَ وَاسْتَصْوَبُوا رَأْيَ ابنِ عَوْفٍ. فَقَالَ عُمَرُ: فَمَنْ تَرى أَنْ نَبْعَثَ إِلَى العِرَاقِ ؟ فَقَالَ: قَدْ وَجَدْتُهُ. قَالَ: وَمَنْ هُوَ؟ قَال: الأَسَدُ فِي بَرَاثِنِهِ سَعْدُ بنُ مَالِكٍ الزُّهْرِيُّ.

فَاسْتَجَادَ قَوْلَهُ وَأَرْسَلَ إِلَى سَعْدٍ فَأَمَّرَهُ عَلَى العِرَاقِ وَأَوْصَاهُ فَقَالَ: يَا سَعْدُ سَعْدُ بنُ وُهَيْبٍ لاَ يَغُرَّنَّكَ مِنَ اللَّهِ أَنْ قِيلَ: خَالُ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَصَاحِبُهُ، فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَمْحُو السَّيِّءَ بِالسَّيِّءِ، وَلَكِنْ يَمْحُو السَّيِّءَ بِالحَسَنِ، وَإِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحَدٍ نَسَبٌ إِلاَّ بِطَاعَتِهِ، فَالنَّاسُ شَرِيفُهُمْ وَوَضِيعُهُمْ فِي ذَاتِ اللَّهِ سَوَاءٌ، اللَّهُ رَبُّهُمْ وَهُمْ عِبَادُهُ، يَتَفَاضَلُونَ بِالعَافِيَةِ، وَيُدْرِكُونَ مَا عِنْدَهُ بِالطَّاعَةِ، فَانْظُرِ الأَمْرَ الَّذِي رَأَيْتَ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مُنْذُ بُعِثَ إِلَى اليَوْمِ الَّذِي فَارَقَنَا عَلَيْهِ فَالْزَمْهُ، فَإِنَّهُ الأَمْرُ. هٰذِهِ عِظَتِي إِيَّاكَ، إِنْ تَرَكْتَهَا وَرَغِبْتَ عَنْهَا حَبِطَ عَمَلُكَ وَكُنْتَ مِنَ الخَاسِرِينَ.

وَلَمَّا أَرَادَ فِرَاقَهُ قَالَ لَهُ: إِنَّكَ سَتَقْدُمُ عَلَى أَمْرٍ شَدِيدٍ، فَالصَّبْرَ عَلَى مَا أَصَابَكَ أَوْ نَابَكَ، يَجْتَمِعُ لَكَ خَشْيَةُ اللَّهِ. وَاعْلَمْ أَنَّ خَشْيَةَ اللَّهِ تَجْتَمِعُ فِي أَمْرَيْنِ: فِي طَاعَتِهِ وَاجْتِنَابِ مَعَاصِيهِ، وَإِنَّمَا طَاعَةُ مَنْ أَطَاعَهُ بِبُغْضِ الدُّنْيَا وَحُبِّ الآخِرَةِ، وَإِنَّمَا عِصْيَانُ مَنْ عَصَاهُ بِحُبِّ الدُّنْيَا وَبُغْضِ الآخِرَةِ،

وَلِلْقُلُوبِ حَقَائِقُ يُنْشِئُهَا اللَّهُ إنْشَاءً، مِنْهَا السِّرُّ وَمِنْهَا العَلاَنِيَّةُ؛ فَأَمَّا العَلاَنِيَّةُ فَأَنْ يَكُونَ حَامِدُهُ وَذَامُّهُ فِي الحَقِّ سَوَاءً، وَأَمَّا السِّرُّ فَيُعْرَفُ بِظُهُورِ الحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ وَلِسَانِهِ، وَبِمَحَبَّةِ النَّاسِ، وَمِنْ مَحَبَّةِ النَّاسِ. فَلاَ تَزْهَدْ فِي التَّحَبُّبِ فَإِنَّ النَّبِيِّينَ قَدْ سَأَلُوا مَحَبَّتَهُمْ، وَإِنَّ اللَّهَ إذَا أَحَبَّ عَبْداً حَبَّبَهُ، وَإِذَا بَغَّضَ عَبْداً بَغَّضَهُ فَاعْتَبِرْ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ اللَّهِ بِمَنْزِلَتِكَ عِنْدَ النَّاسِ.

سَارَ سَعْدٌ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، نَحْوَ العِرَاقِ فِي أَرْبَعَةِ آلاَفٍ، ثَلاَثَةُ آلاَفٍ مِنْ أَهْلِ اليَمَنِ، وَأَلْفٌ مِنْ سَائِرِ النَّاسِ، وَشَيَّعَهُمْ عُمَرُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مِن صِرَارٍ إلَى الأَعْوَصِ (١)، وَقَامَ عُمَرُ فِي النَّاسِ هُنَالِكَ خَطِيباً فَقَالَ: إنَّ اللَّهَ إنَّمَا ضَرَبَ لَكُمُ الأَمْثَالَ، وَصَرَّفَ لَكُمُ القَوْلَ لِتَحْيَا القُلُوبُ فَإِنَّ القُلُوبَ مَيِّتَةٌ فِي صُدُورِهَا حَتَّى يُحْيِيها اللَّهُ، مَنْ عَلِمَ شَيْئاً فَلْيَنْتَفِعْ بِهِ، وَإِنَّ لِلْعَدْلِ أَمَارَاتٌ وَتَبَاشِيرٌ، فَأَمَّا الأَمَارَاتُ فَالحَيَاءُ وَالسَّخَاءُ وَالهِينُ واللِّينُ، وَأَمَّا التَّبَاشِيرُ فَالرَّحْمَةُ. وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ أَمْرٍ بَاباً، وَيَسَّرَ لِكُلِّ بَابٍ مِفْتَاحاً، فَبَابُ العَدْلِ الاعْتِبَارُ، وَمِفْتَاحُهُ الزُّهْدُ والاعْتِبَارُ ذِكْرُ المَوْتِ بِتَذَكُّرِ الأَمْوَاتِ وَالاسْتَعْدَادِ لَهُ بِتَقْدِيمِ الأَعْمَالِ، وَالزُّهْدُ أَخْذُ الحَقِّ مِنْ كُلِّ

---

(١) الأعوص: موضع على خمسة كيلومترات من المدينة على طريق العراق.

أَحَدٍ قِبَلِهِ حَقٌّ، وَالاكْتِفَاءُ بِمَا يَكْفِيهِ مِنَ الكَفَافِ، فَإِنْ لَمْ يَكْفِهِ الكَفَافُ لَمْ يُغْنِهِ شَيْءٌ. إنِّي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ اللَّـهِ، وَلَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ أَحَدٌ، وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَلْزَمَنِي دَفْعَ الدُّعَاءِ عَنْهُ، فَانْهُوا شِكَاتَكُمْ إِلَيْنَا، فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِلَى مَنْ يُبَلِّغُنَاهَا نَأْخُذْ لَهُ الحَقَّ غَيْرَ مُتَعْتَعٍ.

سَارَ سَعْدٌ بِمَنْ مَعَهُ إِلَى العِرَاقِ، وَرَجَعَ عُمَرُ بِمَنْ مَعَهُ مِنَ المُسْلِمِينَ إِلَى المَدِينَةِ. وَوَصَلَ سَعْدٌ إِلَى نَهْرِ (زَرُودَ) وَلَمْ يَبْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ المُثَنَّى بنِ حَارِثَةَ إِلاَّ اليَسِيرَ، غَيْرَ أَنَّ المُثَنَّى قَدْ تُوفِّيَ إِذِ انْتَقَضَ عَلَيْهِ جُرْحُهُ، وَمَاتَ مِنْ أَثَرِهِ وَاسْتَخْلَفَ عَلَى الجَيْشِ بَشِيرَ بنَ الخَصَاصِيَّةَ.

وَصَلَ سَعْدٌ إِلَى مَكَانِ تَجَمُّعِ جُيُوشِ المُسْلِمِينَ، فَتَرَحَّمَ عَلَى المُثَنَّى، وَتَزَوَّجَ امْرَأَتَهُ سَلْمَى بِنْتَ خَصَفَةَ. وَبَدَأَ عُمَرُ يُرْسِلُ إِلَيْهِ النَّجْدَاتِ حَتَّى اجْتَمَعَ لَدَيْهِ ثَلاَثُونَ أَلْفَ مُقَاتِلٍ، كَمَا كَانَ يُرَاسِلُهُ وَيُوَجِّهُهُ، فَأَمَرَهُ أَنْ يَكُونَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ رَبِيعَةَ البَاهِلِيُّ ذُو النُّورِ عَلَى القَضَاءِ إِضَافَةً إِلَى الأَقْبَاضِ (مَا يُقْبَضُ مِنَ الغَنَائِمِ) وَقِسْمَةِ الفَيْءِ، وَأَنْ يَكُونَ سَلْمَانُ الفَارِسِيُّ دَاعِيَةَ النَّاسِ، وَزِيَادُ بنُ أَبِي سُفْيَانَ الكَاتِبَ. وَكَانَ فِي جَيْشِ سَعْدٍ ثَلاَثمائَةٌ وَبِضْعَةَ عَشَرَ صَحَابِيّاً، مِنْهُمْ

بِضْعَـةٌ وَسَبْعُـونَ بَدْرِيّاً، وَكَانَ فِيْهِ سَبْعُمائـةٌ مِنْ أَبْنَـاءِ الصَّحَابَةِ[1].

وَكَتَبَ عُمَرُ إلَى سَعْدٍ يَأْمُرُهُ بِالمُبَادَرَةِ إلَى القَادِسِيَّةِ، وَكَانَ مِمَّا كَتَبَ لَهُ: أَنْ يَكُونَ بَيْنَ الحَجَرِ وَالمَدَرِ، وَأَنْ يَأْخُذَ الطُّرُقَ وَالمَسَالِكَ عَلَى فَارِسَ، وَأَنْ يَبْدُرَهُمْ بِالضَّرْبِ وَالشِّدَّةِ، وَأَلاَّ يَهُولَهُ كَثْرَةُ عَدَدِهِمْ وَعُدَدِهِمْ، فَإِنَّهُمْ قَوْمٌ خَدَعَـةٌ مَكَرَةٌ، وَإِنْ أَنْتُمْ صَبَرْتُمْ وَأَحْسَنْتُمْ وَنَوَيْتُمُ الأَمَانَـةَ - رَجَـوْتُ أَنْ تُنْصَـرُوا عَلَيْهِمْ، ثُمَّ لَمْ يَجْتَمِعْ شَمْلُهُمْ أَبَداً - إلاَّ أَنْ يَجْتَمِعُوا وَلَيْسَتْ مَعَهُمْ قُلُوبُهُمْ. وَإِنْ كَانَتِ الأُخْرَى فَارْجِعُوا إلَى مَا وَرَاءَكُمْ حَتَّى تَصِلُوا إلَى الحَجَرِ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِ أَجْرَأُ، وَإِنَّهُمْ عَنْهُ أَجْبَـنُ وَبِهِ أَجْهَلُ، حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِالفَتْحِ عَلَيْهِمْ وَيَرُدَّ لَكُمُ الكَرَّةَ.

وَأَمَرَ عُمَرُ سَعْداً بِمُحَاسَبَةِ نَفْسِهِ وَمَوْعِظَةِ جَيْشِـهِ، وَأَمَرَهُـمْ بِالنِّيَةِ الحَسَنَةِ وَالصَّبْرِ، فَإِنَّ النَّصْـرَ يَأْتِـي مِنَ اللَّـهِ عَلَـى قَدْرِ النِّيَةِ، وَالأَجْرَ عَلَى قَدْرِ الحِسْبَةِ، وَسَلُوا اللَّهَ العَافِيَةَ، وَأَكْثِرُوا مِنْ قَوْلِ لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلاَّ بِاللَّهِ العَلِيِّ العَظِيمِ. وَقَالَ لَهُ: اكْتُـبْ إلَـيَّ بِجَمِيعِ أَحْوَالِـكُمْ وَتَفَاصِيلِهَـا، وَكَيْفَ تَنْزِلُونَ؟ وَأَيْنَ يَكُونَ مِنْـكُمْ عَدُوُّكُمْ؟ وَاجْعَلْنِـي بِكُتُبِـكَ إلَـيَّ كَأَنِّي

(1) أنظر البداية والنهاية لابن كثير.

أَنْظُـرُ إِلَيْكُمْ، وَآجْعَلْنِـي مِنْ أَمْـرِكُمْ عَلَـى الجَلِيَّةِ، وَخَفِ اللَّهَ وَارْجُهُ وَلاَ تُدِلّ بِشَيْءٍ. وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ تَوَكَّلَ لِهَذَا الأَمْرِ بِمَا لاَ خُلْفَ لَهُ، فَاحْـذَرْ أَنْ يَصْرِفَـهُ عَنْـكَ وَيَسْتَبْـدِلَ بِكُمْ غَيْرَكُمْ.

فَكَتَبَ سَعْدُ إلى عُمَرَ يَصِفُ إِلَيْهِ كَيْفِيَّةَ تِلْكَ المَنَازِلِ وَالأَرَاضِي بِحَيْثُ كَأَنَّهُ يُشَاهِدُهَا، وَكَتَـبَ إِلَيْهِ يُخْبِـرُهُ بِأَنَّ الفُـرْسَ قَدْ جَرَّدُوا لِحَرْبِهِ رُسْتُمَ وَأَمْثَالَهُ، فَهُمْ يَطْلُبُونَنَا وَنَحْنُ نَطْلُبُهُمْ، وَأَمْرُ اللَّهِ بَعْدُ مَاضٍ، وَقَضَاؤُهُ مُسَلَّمٌ، الَى مَا قَدَّرَ لَنَا وَعَلَيْنَا، فَنَسْأَلُ اللَّـهَ خَيْرَ القَضَاءِ وَخَيْرَ القَدَرِ فِي عَافِيَةٍ.

وَكَتَبَ عُمَرُ إِلَى سَعْدٍ: قَدْ جَاءَنِي كِتَابُكَ وَفَهِمْتُهُ، فَإِذَا لَقِيتَ عُدُوَّكَ، وَمَنَحَكَ اللَّهُ أَدْبَارَهُمْ، فَإِنَّهُ قَدْ أَلْقَى فِي رَوْعِي أَنَّكُمْ سَتَهْزِمُونَهُمْ فَلاَ تَشُكَّنَّ فِي ذَلِكَ، فَإِذَا هَزَمْتَهُمْ فَلاَ تَنْزِعْ عَنْهُمْ حَتَى تَقْتَحِمَ عَلَيْهِمُ المَدَائِنَ، فَإِنَّهُ خَرَابُهَا إنْ شَاءَ اللَّهُ، وَجَعَلَ عُمَرُ يَدْعُو لِسَعْدٍ خَاصَّةً وَلَهُ وَلِلْمُسْلِمِينَ عَامَّةً.

وَسَارَ سَعْدُ حَتَّى بَلَغَ العُـذَيْبَ فَاعْتَـرَضَ لِلْمُسْـلِمِينَ جَيْشٌ لِلْفُرْسِ مَعَ (شِيرَزَادْ بنِ آرَاذِيْهِ) فَغَنِمَ المُسْلِمُونَ مِمَّـا مَعَـهُ شَيْئَاً كَثِيراً، وَوَقَعَ مِنْهُمْ مَوْقِعَاً كَبِيراً، فَخَمَّسَهـا سَعْـدٌ وَقَسَّـمَ أَرْبَعَةَ أَخْمَاسِهَا فِي النَّاسِ، وَاسْتَبْشَرَ النَّاسُ بِذَلِكَ وَفَرِحُوا، وَتَفَاءَلُوا، وَأَفْـرَدَ سَعْـدُ سَرِيَّةً تَكُونُ حِيَاطَـةً لِمَـنْ مَعَهُـمْ مِنَ

الحَرِيمِ ، وَعَلَى هَذِهِ السَّرِيَّةِ غَالِبُ بنُ عَبْدِ اللَّهِ اللَّيْثِيُّ.

القَادِسِيَّةُ :

ثُمَّ سَارَ سَعْدُ فَنزَلَ القَادِسِيَّةَ ، وَبَثَّ سَرَايَاهُ ، وَأَقَامَ بِهَا شَهْرَاً لَمْ يَرَ أَحَداً مِنَ الفُرْسِ ، فَكَتَبَ إلَى أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ بِذَلِكَ ، وَالسَّرَايَا تَأْتِي بِالميرَةِ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، فَعَجَّتْ رَعَايَا الفُرْسِ مِنْ أَطْرَافِ بِلاَدِهِمْ إلَى (يَزْدَجِرْدَ) مِنَ الَّذِينَ يَلْقَوْنَ مِنَ المُسْلِمِينَ مِنَ النَّهْبِ وَالسَّبْيِ . وَقَالُوا : إنْ لَمْ تُنْجِدُونا أَعْطَيْنَا مَا بِأَيْدِينَا إلَى المُسْلِمِينَ وَسَلَّمْنَا إلَيْهِمُ الحُصُونَ . وَاجْتَمَعَ رَأْيُ الفُرْسِ عَلَى إرْسالِ (رُستُمْ) إلَيْهِمْ ، فَبَعَثَ إلَيْهِ (يَزْدَجِرْدُ) فَأَمَّرَهُ عَلَى الجَيْشِ فَاسْتَعْفَى (رُستُمُ) مِنْ ذَلِكَ ، وَقَالَ : إنَّ هَذَا لَيس بِرأيٍ فِي الحَرْبِ ، إنَّ إرْسَالَ الجُيُوشِ بَعْدَ الجُيُوشِ أَشَدُّ عَلَى العَرَبِ مِنْ أَنْ يَكْسِرُوا جَيْشَاً كَثِيفَاً مَرَّةً وَاحِدَةً ، فَأَبَى المَلِكُ إلاَّ ذَلِكَ ، فَتَجَهَّزَ (رُستُمُ) لِلْخُرُوجِ .

بَعَثَ سَعْدُ كَاشِفَاً إلَى (الحِيرَةِ) وَإلَى (صَلُوبَا) ، فَأَتَاهُ الخَبَرُ بِأَنَّ المَلِكَ قَدْ أَمَّرَ عَلَى الحَرْبِ (رُستُمَ بنَ الفَرَّخْزَاذَ الأَرْمَنِيَّ) وَأَمَدَّهُ بِالْعَسْكَرِ فَكَتَبَ سَعْدُ إلَى عُمَرَ بِذَلِكَ ، فَكَتَبَ إلَيْهِ عُمَرُ : لاَ يَكْرُبَنَّكَ مَا يَأْتِيكَ عَنْهُمْ ، وَلاَ مَا يَأْتُونَكَ بِهِ ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ، وَابْعَثْ إلَى (رُستُمَ) رِجَالاً مِنْ

أَهْلِ النَّظَرِ وَالرَّأْيِ وَالجَلَدِ يَدْعُونَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ دُعَاءَهُمْ تَوْهِيناً لَهُمْ، وَفَلْجاً عَلَيْهِمْ، وَاكْتُبْ إِلَيَّ فِي كُلِّ يَوْمٍ.

وَلَمَّا اقْتَرَبَ رُسْتُمْ بِجُيُوشِهِ وَعَسْكَرَ بِـ (سَابَاطَ) كَتَبَ سَعْدٌ إِلَى عُمَرَ يَقُولُ: إِنَّ (رُسْتُمَ) قَدْ عَسْكَرَ بِـ (سَابَاطَ) وَجَرَّ الخُيُولَ وَالفِيلَةَ وَزَحَفَ عَلَيْنَا بِهَا، وَلَيْسَ شَيْءٌ أَهَمَّ عِنْدِي، وَلاَ أَكْثَرَ ذِكْراً مِنِّي لِمَا أَحْبَبْتُ أَنْ أَكُونَ عَلَيْهِ مِنَ الاسْتِعَانَةِ وَالتَّوَكُّلِ.

وَعَبَّأَ رُسْتُمُ فَجَعَلَ عَلَى المُقَدِّمَةِ ـ وَهِيَ أَرْبَعُونَ أَلْفاً ـ الجَالِنُوسَ، وَعَلى المَيْمَنَةِ الهُرْمُزَانُ، وَعَلَى المَيْسَرَةِ مِهْرَانُ بنُ بَهْرَامِ وَذَلِكَ سِتُّونَ أَلْفاً، وَعَلَى السَّاقَةِ البَيْرُزَانُ فِي عِشْرِينَ أَلْفاً، فَالجَيْشُ كُلُّه مِائَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفاً، وَيَتْبَعُهَا ثَمَانُونَ أَلْفاً. وَكَانَ مَعَ الجَيْشِ ثَلاَثَةٌ وَثَلاَثُونَ فِيلاً، مِنْهَا فِيلٌ أَبْيَضُ كَانَ لِـ (سَابُورَ)، فَهُوَ أَعْظَمُهَا وَأَقْدَمُهَا، وَكَانَتِ الفِيلَةُ تَأْلَفُهُ.

ثُمَّ بَعَثَ سَعْدٌ جَمَاعَةً مِنَ السَّادَاتِ؛ مِنْهُمُ النُّعْمَانُ بنُ مُقَرِّنٍ، وَفُرَاتُ بنُ حَيَّانَ، وَحَنْظَلَةُ بنُ الرَّبِيعِ التَّمِيمِيُّ، وَعُطَارِدُ بنُ حَاجِبٍ، وَالأَشْعَثُ بنُ قَيْسٍ، وَالمُغِيرَةُ بنُ شُعْبَةٍ، وَعَمْرُو بنُ مَعْدِي كَرِبٍ يَدْعُونَ رُسْتُمَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ

وَجَلَّ. فَقَالَ لَهُمْ رُسْتُمُ: مَا أَقْدَمَكُمْ؟ فَقَالُوا: جِئْنَا لِمَوْعُودِ اللَّهِ إِيَّانَا، أَخْذِ بِلاَدِكُمْ وَسَبْيِ نِسَائِكُمْ وَأَبْنَائِكُمْ وَأَخْذِ أَمْوَالِكُمْ، فَنَحْنُ عَلَى يَقِينٍ مِنْ ذَلِكَ. وَقَدْ رَأَى رُسْتُمُ فِي مَنَامِهِ كَأَنَّ مَلَكاً نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ فَخَتَمَ عَلَى سِلاَحِ الفُرْسِ كُلِّهِ، وَدَفَعَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَدَفَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَى عُمَرَ.

وَيَبْدُو أَنَّ رُسْتُمَ طَاوَلَ سَعْدَاً فِي اللِّقَاءِ حَتَّى كَانَ بَيْنَ خُرُوجِهِ مِنَ المَدَائِنِ وَمُلْتَقَاهُ سَعْدَاً بِالقَادِسِيَّةِ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ، كُلُّ ذَلِكَ لَعَلَّهُ يُضْجِرُ سَعْدَاً وَمَنْ مَعَهُ، وَلَوْلاَ أَنَّ المَلِكَ اسْتَعْجَلَهُ مَا الْتَقَاهُ، لِمَا يَعْلَمُ مِنْ غَلَبَةِ المُسْلِمِينَ لَهُمْ، وَنَصْرِهِمْ عَلَيْهِمْ، لِمَا رَآهُ فِي مَنَامِهِ، وَلِمَا يَتَوَسَّمُهُ، وَلِمَا سَمِعَ مِنْهُمْ، وَلِمَا عِنْدَهُ مِنْ عِلْمِ النُّجُومِ الَّذِي يَعْتَقِدُ صِحَّتَهُ فِي نَفْسِهِ، لِمَا لَهُ مِنَ المُمَارَسَةِ لِهَذَا الفَنِّ.

وَلَمَّا تَوَاجَهَ الجَيْشَانِ بَعَثَ رُسْتُمُ إِلَى سَعْدٍ أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْهِ بِرَجُلٍ عَاقِلٍ عَالِمٍ بِمَا أَسْأَلُهُ عَنْهُ. فَبَعَثَ إِلَيْهِ المُغِيرَةَ بنَ شُعْبَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. فَلَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِ جَعَلَ رُسْتُمُ يَقُولُ لَهُ: إِنَّكُمْ جِيرَانُنَا وَكُنَّا نُحْسِنُ إِلَيْكُمْ وَنَكُفُّ الأَذَى عَنْكُمْ، فَارْجِعُوا إِلَى بِلاَدِكُمْ وَلاَ نَمْنَعُ تِجَارَتَكُمْ مِنَ الدُّخُولِ إِلَى بِلاَدِنَا. فَقَالَ

لَهُ المُغِيرَةُ: إنَّا لَيْسَ طَلَبُنَا الدُّنْيَا، وَإنَّما هَمُّنَا وَطَلَبُنَا الآخِرَةُ، وَقَدْ بَعَثَ اللَّهُ إلَيْنَا رَسُولاً قَالَ لَهُ: إنِّي قَدْ سَلَّطْتُ هَذِهِ الطَّائِفَةَ عَلَى مَنْ لَمْ يَدِنْ بِدِينِي، فَأَنَا مُنْتَقِمٌ بِهِمْ مِنْهُمْ، وَأَجْعَلُ لَهُمُ الغَلَبَةَ مَا دَامُوا مُقِرِّينَ بِهِ. وَهُوَ دِينُ الحَقِّ لاَ يَرْغَبُ عَنْهُ أَحَدٌ إلاَّ ذَلَّ، وَلاَ يَعْتَصِمُ بِهِ إلاَّ عَزَّ. فَقَالَ لَهُ رُسْتُمْ: فَمَا هُوَ؟ فَقَالَ: أَمَا عَمُودُهُ الَّذِي لاَ يَصْلُحُ شَيْءٌ مِنْهُ إلاَّ بِهِ، فَشَهَادَةُ أَنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ، والإقْرَارُ بِمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ. فَقَالَ: مَا أَحْسَنَ هَذَا! وَأَيُّ شَيْءٍ أَيْضاً؟ قَالَ: وَإخْرَاجُ النَّاسِ مِنْ عِبَادَةِ العِبَادِ إلى عِبَادَةِ اللَّهِ. قَالَ: وَحَسَنٌ أَيْضاً، وَأَيُّ شَيْءٍ أَيْضاً؟ قَالَ: وَالنَّاسُ بَنُو آدَمَ وَحَوَّاءَ، فَهُمْ إخْوَةٌ لأَبٍ وَأُمٍّ. قَالَ: وَحَسَنٌ أَيْضاً. ثُمَّ قَالَ رُسْتُم: أَرَأَيْتَ إنْ دَخَلْنَا فِي دِينِكُمْ أَتَرْجِعُونَ عَنْ بِلاَدِنَا؟ قَالَ: إيْ وَاللَّهِ ثُمَّ لاَ نَقْرَبُ بِلاَدَكُمْ إلاَّ فِي تِجَارَةٍ أَوْ حَاجَةٍ. قَالَ: وَحَسَنٌ أَيْضاً. وَلَمَّا خَرَجَ المُغِيرَةُ مِنْ عِنْدِهِ ذَاكَرَ رُسْتُمُ رُؤَسَاءَ قَوْمِهِ فِي الإسْلاَمِ فَأَنِفُوا ذَلِكَ وَأَبَوْا أَنْ يَدْخُلُوا فِيهِ، قَبَّحَهُمُ اللَّهُ وَأَخْزَاهُمْ وَقَدْ فَعَلَ.

ثُمَّ بَعَثَ إلَيْهِ سَعْدٌ رَسُولاً آخَرَ - بِطَلَبِهِ - وَهُوَ رِبْعِيُّ بنُ عَامِرٍ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ وَقَدْ زَيَّنُوا مَجْلِسَهُ بِالنَّمَارِقِ المُذَهَّبَةِ

وَالزَّرَابِيِّ وَالحَرِيرِ، وَأَظْهَرَ اليَوَاقِيتَ وَالْلآلِىءَ الثَّمِينَةَ، وَالزِّينَةَ العَظِيمَةَ، وَعَلَيْهِ تَاجُهُ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الأَمْتِعَةِ الثَّمِينَةِ، وَقَدْ جَلَسَ عَلَى سَرِيرٍ مِنْ ذَهَبٍ. وَدَخَلَ رِبْعِيٌّ بِثِيَابٍ صَفِيقَةٍ وَسَيْفٍ وَتُرْسٍ، وَفَرَسٍ قَصِيرَةٍ، وَلَمْ يَزَلْ رَاكِبَهَا حَتَّى دَاسَ بِهَا عَلَى طَرَفِ البِسَاطِ، ثُمَّ نَزَلَ وَرَبَطَهَا بِبَعْضِ تِلْكَ الوَسَائِدِ، وَأَقْبَلَ وَعَلَيْهِ سِلاَحُهُ وَدِرْعُهُ، وَبَيْضَتُهُ عَلَى رَأْسِهِ. فَقَالُوا لَهُ: ضَعْ سِلاَحَكَ، فَقَالَ: إِنِّي لَمْ آتِكُمْ فَأَضَعَ سِلاَحِي بِأَمْرِكُمْ، وَإِنَّما جِئْتُكُمْ حِينَ دَعَوْتُمُونِي، فَإِنْ تَرَكْتُمُونِي هَكَذَا وَإِلاَّ رَجَعْتُ. فَقَالَ رُسْتُمُ: ائذَنُوا لَهُ، فَأَقْبَلَ يَتَوَكَّأُ عَلَى رِمْحِهِ فَوْقَ النَّمَارِقِ، فَخَرَقَ عَامَّتَهَا، فَقَالُوا لَهُ: مَا جَاءَ بِكُمْ؟ فَقَالَ: اللَّهُ ابْتَعَثَنَا لِنُخْرِجَ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادَةِ العِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ، وَمِنْ ضِيقِ الدُّنْيَا إِلَى سَعَتِهَا، وَمِنْ جَوْرِ الأَدْيَانِ إِلَى عَدْلِ الإِسْلاَمِ، فَأَرْسَلَنَا بِدِينِهِ إِلَى خَلْقِهِ لِنَدْعُوَهُمْ إِلَيْهِ، فَمَنْ قَبِلَ ذَلِكَ مِنَّا قَبِلْنَا مِنْهُ وَرَجَعْنَا عَنْهُ، وَمَنْ أَبَى قَاتَلْنَاهُ أَبَداً حَتَّى نُفْضِيَ إِلَى مَوْعُودِ اللَّهِ. قَالُوا: وَمَا مَوْعُودُ اللَّهِ؟ قَالَ: الجَنَّةُ لِمَنْ مَاتَ عَلَى قِتَالِ مَنْ أَبَى، وَالظَّفَرُ لِمَنْ بَقِيَ. فَقَالَ رُسْتُمُ: قَدْ سَمِعْتُ مَقَالَتَكُمْ، فَهَلْ لَكُمْ أَنْ تُؤَخِّرُوا هَذَا الأَمْرَ حَتَّى نَنْظُرَ فِيهِ وَتَنْظُرُوا؟ قَالَ: نَعَمْ! كَمْ أَحَبُّ إِلَيْكُمْ؟ يَوْماً أَوْ يَوْمَيْنِ؟ قَالَ: لاَ، بَل حَتَّى نُكَاتِبَ أَهْلَ رَأْيِنَا وَرُؤَسَاءَ قَوْمِنَا. فَقَالَ:

مَاسَنَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنْ نُؤَخِّرَ الأَعْدَاءَ عِنْدَ اللِّقَاءِ أَكْثَرَ مِنْ ثَلاَثٍ، فَانْظُرْ فِي أَمْرِكَ وَأَمْرِهِمْ وَاخْتَرْ وَاحِدَةً مِنْ ثَلاَثٍ بَعْدَ الأَجَلِ ، فَقَالَ: أَسَيِّدُهُمْ أَنْتَ؟ قَالَ: لاَ، وَلَكِنِ المُسْلِمُونَ كَالجَسَدِ الوَاحِدِ يُجِيرُ أَدْنَاهُمْ عَلَى أَعْلاَهُمْ. فَاجْتَمَعَ رُسْتُمُ بِرُؤَسَاءِ قَوْمِهِ فَقَالَ: هَلْ رَأَيْتُم قَطُّ أَعَزَّ وَأَرْجَحَ مِنْ كَلاَمِ هَذَا الرَّجُلِ ؟ فَقَالُوا: مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ تَمِيلَ إِلَى شَيْءٍ مِنْ هَذَا وَتَدَعْ دِينَكَ إِلَى هَذَا الكَلْبِ؛ أَمَا تَرى إِلَى ثِيَابِهِ؟ فَقَالَ: وَيْلَكُمْ لاَ تَنْظُرُوا إِلَى الثِّيَابِ، وَانْظُرُوا إِلَى الكَلاَمِ وَالرَّأْيِ وَالسِّيَرةِ. إِنَّ العَرَبَ يَسْتَخْفُونَ بِالثِّيَابِ وَالمَأْكَلِ وَيَصُونُونَ الأَحْسَابَ.

ثُمَّ بَعَثُوا فِي اليَوْمِ الثَّانِي يَطْلُبُونَ رَجُلاً، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ حُذَيْفَةَ بنَ مِحْصَنٍ فَتَكَلَّمَ نَحْوَ مَا قَال رِبْعِيٌّ. وَفِي اليَوْمِ الثَّالِثِ المُغِيرَةَ بنَ شُعْبَةَ فَتَكَلَّمَ بِكَلاَمٍ حَسَنٍ طَوِيلٍ. قَالَ فِيْهِ رُسْتُمُ لِلْمُغِيرَةِ: إِنَّمَا مَثَلُكُمْ فِي دُخُولِ أَرْضِنَا كَمَثَلِ الذُّبَابِ رَأَى العَسَلَ، فَقَالَ: مَنْ يُوصِلُنِي إِلَيْهِ وَلَهُ دِرْهَمَانِ؟ فَلَمَّا سَقَطَ عَلَيْهِ غَرِقَ فِيْهِ، فَجَعَلَ يَطْلُبُ الخَلاَصَ فَلاَ يَجِدُهُ، وَجَعَلَ يَقُولُ: مَنْ يُخَلِّصُنِي وَلَه أَرْبَعَةُ دَرَاهِمَ؟ وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ ثَعْلَبٍ ضَعِيفٍ دَخَلَ حَجْرَاً فِي كَرْمٍ ، فَلَمَّا رَآهُ صَاحِبُ الكَرْمِ

ضَعِيفاً رَحِمَهُ فتَرَكَهُ، فَلَمَّا سَمِنَ أَفْسَدَ شَيْئاً كَثِيراً، فَجاءَ بِجَيْشِهِ وَاسْتَعانَ عَلَيْهِ بِغِلْمانِهِ، فَذَهَبَ لِيَخْرُجَ فَلَمْ يَسْتَطِعْ لِسِمَنِهِ فَضَرَبَهُ حَتَّى قَتَلَهُ، فهكَذَا تَخْرُجُونَ مِنْ بِلادِنا. ثُمَّ اسْتَشاطَ غَضَباً، وَأَقْسَمَ بِالشَّمْسِ لأَقْتُلَنَّكُمْ غَداً. فَقَالَ المُغِيرَةُ: سَتَعْلَمُ. ثُمَّ قَالَ رُسْتُمُ لِلْمُغِيرَةِ: قَدْ أَمَرْتُ لَكُمْ بِكِسْوَةٍ، وَلأَمِيرِكُمْ بِأَلْفِ دِينَارٍ وَكِسْوَةٍ وَمَرْكُوبٍ وَتَنْصَرِفُونَ عَنَّا، فَقَالَ المُغِيرَةُ: أَبَعْدَ أَنْ أَوْهَنَّا مُلْكَكُمْ وَضَعَّفْنَا عِزَّكُمْ، وَلَنَا مُدَّةٌ فِي بِلادِكُمْ، وَنَأْخُذُ الجِزْيَةَ مِنْكُمْ عَنْ يَدٍ وَأَنْتُمْ صَاغِرُونَ، وَسَتَصِيرُونَ لَنا عَبِيداً عَلَى رَغْمِكُمْ؟ فَلَمَّا قَالَ ذَلِكَ اسْتَشَاطَ غَضَباً.

وَكَانَ سَعْدٌ قَدْ بَعَثَ طَائِفَةً مِنْ أَصْحَابِهِ إِلَى كِسْرَى يَدْعُونَهُ إِلَى اللَّهِ، فَاسْتَأْذَنُوا عَلَى كِسْرَى فَأَذِنَ لَهُمْ، وَخَرَجَ أَهْلُ البَلَدِ يَنْظُرُونَ إِلَى أَشْكَالِهِمْ وَأَرْدِيَتِهِمْ عَلَى عَوَاتِقِهِمْ وَسِيَاطِهِمْ بِأَيْدِيهِمْ، وَالنِّعَالِ فِي أَرْجُلِهِمْ، وَخُيُولِهِمُ الضَّعِيفَةِ، وَخَبْطِهَا الأَرْضَ بِأَرْجُلِهَا. وَجَعَلُوا يَتَعَجَّبُونَ مِنْهَا غَايَةَ العَجَبِ؛ كَيْفَ مِثْلُ هَؤُلاَءِ يَقْهَرُونَ جُيُوشَهُمْ مَعَ كَثْرَةِ عَدَدِهَا وَعُدَدِهَا؟ وَلَمَّا اسْتَأْذَنُوا عَلَى المَلِكِ يَزْدَجِرْدَ أَذِنَ لَهُمْ وَأَجْلَسَهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَكَانَ مُتَكَبِّراً قَلِيلَ الأَدَبِ، ثُمَّ جَعَلَ يَسْأَلُهُمْ عَنْ مَلاَبِسِهِمْ هَذِهِ

مَا اسْمُهَا؟ عن الأَرْدِيَةِ، وَالنِّعَالِ، وَالسِّيَاطِ، ثُمَّ كُلَّمَا قَالُوا لَهُ شَيْئَاً عَنْ ذَلِكَ تَفَاءَلَ فَرَدَّ اللَّهُ فَأْلَهُ عَلَى رَأْسِهِ. ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: مَا الَّذِي أَقْدَمَكُمْ هَذِهِ البِلاَدِ؟ أَظَنَنْتُمْ أَنَّا لَمَّا تَشَاغَلْنَا بِأَنْفُسِنَا اجْتَرَأْتُم عَلَيْنَا؟ فَقَالَ لَهُ النُّعْمَانُ بنُ مُقَرِّنٍ: إنَّ اللَّهَ رَحِمَنَا فَأَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولاً يَدُلُّنَا عَلَى الخَيْرِ وَيَأْمُرُنَا بِهِ، وَيُعَرِّفُنَا الشَّرَّ وَيَنْهَانَا عَنْهُ، وَوَعَدَنَا عَلَى إجَابَتِهِ خَيْرَيْ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ. فَلَمْ يَدْعُ إلَى ذَلِكَ قَبِيلَةً إلاَّ صَارُوا فِرْقَتَيْنِ؛ فِرْقَةٌ تُقَارِبُهُ وَفِرْقَةٌ تُبَاعِدُهُ، وَلاَ يَدْخُلُ مَعَهُ فِي دِينِهِ إلاَّ الخَوَاصُّ، فَمَكَثَ كَذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَمْكُثَ، ثُمَّ أُمِرَ أَنْ يَنْهَدَ إِلَى مَنْ خَالَفَهُ مِنَ العَرَبِ وَيَبْدَأُ بِهِمْ، فَفَعَلَ فَدَخَلُوا مَعَهُ جَمِيعَاً عَلَى وَجْهَيْنِ: مَكْرُوهٌ عَلَيْهِ فَاغْتَبَطَ، وَطَائِعٌ إِيَّاهُ فَازْدَادَ، فَعَرَفْنَا جَمِيعَاً فَضْلَ مَا جَاءَ بِهِ عَلَى الَّذِي كُنَّا عَلَيْهِ مِنَ العَدَاوَةِ وَالضِّيقِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَبْدَأَ بِمَنْ يَلِينَا مِنَ الأُمَمِ فَنَدْعُوهُمْ إِلَى الإِنْصَافِ، فَنَحْنُ نَدْعُوكُمْ إِلَى دِينِنَا - وَهُوَ دِينُ الإِسْلاَمِ - دِينٌ حَسَّنَ الحَسَنَ وَقَبَّحَ القَبِيحَ كُلَّهُ فَإِنْ أَبَيْتُمْ فَأَمْرٌ مِنَ الشَّرِّ هُوَ أَهْوَنُ مِنْ آخِرٍ شَرٍّ مِنْهُ الجَزَاءُ فَإِنْ أَبَيْتُمْ فَالمُنَاجَزَةُ، وَإِنْ أَجَبْتُمْ إلى دِينِنَا خَلَّفْنَا فِيكُمْ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَمْنَاكُمْ عَلَيْهِ عَلَى أَنْ تَحْكُمُوا بِأَحْكَامِهِ، وَنَرْجِعَ عَنْكُمْ، وَشَأْنُكُمْ وَبِلاَدَكُمْ. وَإِنْ أَتَيْتُمُونَا بِالجَزَاءِ قَبِلْنَا وَمَنَعْنَاكُمْ، وَإلاَّ قَاتَلْنَاكُمْ.

فَتكَّلَمَ يَزْدَجِرْدُ فقَالَ: إنِّي لاَ أَعْلَمُ فِي الأَرْضِ أُمَّةً كَانَتْ أَشْقَى وَلاَ أَقَلَّ عَدَداً وَلاَ أَسْوَأَ ذَاتَ بَيْنٍ مِنْكُمْ، قَدْ كُنَّا نُوكِلُ بِكُمْ قُرَى الضَّوَاحِي لِيَكْفُونَنَا إيّاكُمْ، لاَ تَغْزُونَ فَارِسَ وَلاَ تَطْمَعُونَ أَنْ تَقُومُوا لَهُمْ. فَإِنْ كَانَ عَدَدُكُمْ كَثُرَ فَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ مِنَّا، وَإِنْ كَانَ الجَهْدُ دَعَاكُمْ فَرَضْنَا لَكُمْ قُوتاً إِلَى خَصْبِكُمْ وَأَكْرَمْنَا وُجُوهكُمْ وَكَسَوْنَاكُمْ، وَمَلَّكْنَا عَلَيْكُمْ مَلِكاً يَرْفِقُ بِكُمْ.

فَقَامَ المُغِيرَةُ بنُ شُعْبَةٍ فَقَالَ: أَيُّهَا المَلِكُ، إنَّ هَؤُلاَءِ رُؤُوسُ العَرَبِ وَوُجُوهُهُمْ، وَهُمْ أَشْرَافٌ يَسْتَحْيُونَ مِنَ الأَشْرَافِ، وَإِنَّمَا يُكْرِمُ الأَشْرَافَ الأَشْرَافُ، وَيُعَظِّمُ حُقُوقَ الأَشْرَافِ الأَشْرَافُ، وَلَيْسَ كُلُّ مَا أَرْسَلُوا بِهِ جَمَعُوهُ لَكَ، وَلاَ كُلُّ مَا تَكَلَّمْتَ بِهِ أَجَابُوكَ عَلَيْهِ، وَقَدْ أَحْسَنُوا وَلاَ يَحْسُنُ بِمِثْلِهِمْ إلاَّ ذَلِكَ، فَجَاوِبْنِي أَكُونُ أَنَا الَّذِي أُبَلِّغُكَ وَيَشْهَدُونَ عَلَى ذَلِكَ. إنَّكَ وَصَفْتَنَا صِفَةً لَمْ تَكُنْ بِهَا عَالِماً، فَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ سُوءِ الحَالِ فَمَا كَانَ أَسْوَأَ حَالاً مِنَّا، وَأَمَّا جُوعُنَا فَلَمْ يَكُنْ يُشْبِهُ الجُوعَ، كُنَّا نَأْكُلُ الخَنَافِسَ وَالجُعْلاَنَ وَالعَقَارِبَ وَالحَيَّاتِ، وَنَرَى ذَلِكَ طَعَامَنَا. وَأَمَّا المَنَازِلُ فَهِيَ ظَهْرُ الأَرْضِ، وَلاَ نَلْبِسُ إلاَّ مَا غَزَلْنَا مِنْ أَوْبَارِ الإِبِلِ وَأَشْعَارِ الغَنَمِ. دِينُنَا أَنْ يَقْتُلَ بَعْضُنَا بَعْضاً، وَأَنْ يَبْغِيَ بَعْضُنَا عَلَى

يَعْضٍ ، وَإِنْ كَانَ أَحَدُنَا لَيَدْفِنَ ابْنَتَهُ وَهِيَ حَيَّةٌ كَرَاهِيَةَ أَنْ تَأْكُلَ مِنْ طَعَامِهِ. وَكَانَتْ حَالُنَا قَبْلَ اليَوْمِ عَلَى مَا ذَكَرْتُ لَكَ فَبَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَجُلاً مَعْرُوفاً، نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَنَعْرِفُ وَجْهَهُ وَمَوْلِدَهُ، فَأَرْضُهُ خَيْرُ أَرْضِنَا، وَحَسَبُهُ خَيْرُ أَحْسَابِنَا، وَبَيْتُهُ أَعْظَمُ بُيُوتِنَا، وَقَبِيلَتُهُ خَيْرُ قَبَائِلِنَا، وَهُوَ بِنَفْسِهِ كَانَ خَيْرَنَا فِي الحَالِ الَّتِي كَانَ فِيهَا أَصْدَقَنَا وَأَحْلَمَنَا، فَدَعَانَا إِلَى أَمْرٍ فَلَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ. أَوَّلُ تِرْبٍ كَانَ لَهُ الخَلِيفَةُ مِنْ بَعْدِهِ، فَقَالَ وَقُلْنَا، وَصَدَّقَ وَكَذَّبْنَا، وَزَادَ وَنَقَصْنَا، فَلَمْ يَقُلْ شَيْئاً إِلاَّ كَانَ، فَقَذَفَ اللَّهُ فِي قُلُوبِنَا التَّصْدِيقَ لَهُ وَاتِّبَاعَهُ، فَصَارَ فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ رَبِّ العَالَمِينَ، فَمَا قَالَ لَنَا فَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ، وَمَا أَمَرَنَا فَهُوَ أَمْرُ اللَّهِ، فَقَالَ لَنَا: إِنَّ رَبَّكُمْ يَقُولُ: إِنِّي أَنَا اللَّهُ وَحْدِي لاَ شَرِيكَ لِي، كُنْتُ إِذْ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ وَكُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهِيَ، وَأَنَا خَلَقْتُ كُلَّ شَيْءٍ وَإِلَيَّ يَصِيرُ كُلُّ شَيْءٍ، وَإِنَّ رَحْمَتِي أَدْرَكَتْكُمْ فَبَعَثْتُ إِلَيْكُمْ هَذَا الرَّجُلَ لأَدُلَّكُمْ عَلَى السَّبِيلِ الَّتِى أُنْجِيكُمْ بِهَا بَعْدَ المَوْتِ مِنْ عَذَابِي، وَلأُحِلَّكُمْ دَارِي دَارَ السَّلاَمِ. فَنَشْهَدُ عَلَيْهِ أَنَّهُ جَاءَ بِالحَقِّ مِنْ عِنْدِ الحَقِّ، وَقَالَ: مَنْ تَابَعَكُمْ عَلَى هَذَا فَلَهُ مَا لَكُمْ وَعَلَيْهِ مَا عَلَيْكُمْ، وَمَنْ أَبَى فَاعْرِضُوا عَلَيْهِ الجِزْيَةَ، ثُمَّ امْنَعُوهُ مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ، وَمَنْ أَبَى فَقَاتِلُوهُ فَأَنَا الحَكَمُ بَيْنَكُمْ، فَمَنْ قُتِلَ مِنْكُمْ أَدْخَلْتُهُ جَنَّتِي، وَمَنْ بَقِيَ مِنْكُمْ أَعْقَبْتُهُ

النَّصرَ عَلَى مَنْ نَاوَأَهُ. فَاخْتَرْ إنْ شِئْتَ الجزْيَةَ وَأَنْتَ صَاغِرٌ، وَإنْ شِئْتَ فَالسَّيْفُ، أَوْ تُسْلِمُ فَتُنْجِي نَفْسَكَ.

فَقَالَ يَزْدَجِرْدُ: أَتَستَقْبِلُنِي بِمِثْلِ هَذَا؟ فَقَالَ: مَا اسْتَقْبَلْتُ إلاَّ مَنْ كَلَّمَنِي، وَلَوْ كَلَّمَنِي غَيْرُكَ لَمْ أَسْتَقْبِلْكَ بِهِ. فَقَالَ: لَوْلاَ أَنَّ الرُّسُلَ لاَ تُقْتَلُ لَقَتَلْتُكُمْ، وَلاَ شَيْءَ لَكُمْ عِنْدِي. وَقَالَ: ائْتُونِ بِوِقْرٍ مِنْ تُرَابٍ فَاحْمِلُوهُ عَلَى أَشْرَفِ هَؤُلاَءِ، ثُمَّ سُوقُوهُ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ أَبْيَاتِ المَدَائِنِ. ارْجعُوا إِلَى صَاحِبِكُمْ فَأَعْلِمُوهُ إنِّي مُرْسِلٌ إلَيْهِ رُسْتُمَ حَتَّى يَدْفُنَهُ وَجُنْدَهُ فِي خَنْدَقِ القَادِسِيَّةِ، وَيُنَكِّلَ بِهِ وَبِكُمْ مَنْ بَعْدِهِ، ثُمَّ أُورِدُهُ بِلاَدَكُمْ حَتَّى أَشْغِلَكُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ بِأَشَدَّ مِمَّا نَالَكُمْ مِنْ (سَابُورَ).

ثُمَّ قَالَ: مَنْ أَشْرَفُكُمْ؟ فَسَكَتَ القَوْمُ، فَقَالَ عَاصِمُ بنُ عَمْرٍو - وَافْتَأَتَ لِيَأْخُذَ التُّرَابَ - أَنَا أَشْرَفُهُمْ، أَنَا سَيِّدُ هَؤُلاَءِ فَحَمِّلْنِيهِ، فَقَالَ: أَكَذَلِكَ؟ قَالُوا: نَعَمْ. فَحَمَّلَهُ عَلَى عُنُقِهِ فَخَرَجَ بِهِ مِنَ الإيوانِ وَالدَّارِ حَتَّى أَتَى رَاحِلَتَهُ فَحَمَلَهُ عَلَيْهَا ثُمَّ انْجَذَبَ فِي السَّيْرِ لِيَأْتِيَ بِهِ سَعْداً، وَسَبَقَ عَاصِمُ القَوْمَ فَمَرَّ بِبَابِ قُدَيْسٍ فَطَوَاهُ وَقَالَ: بَشِّرُوا الأَمِيرَ بِالظَّفَرِ، ظَفِرْنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، ثُمَّ مَضَى حَتَّى جَعَلَ التُّرَابَ فِي الحَجْرِ ثُمَّ رَجَعَ فَدَخَلَ عَلَى سَعْدٍ فَأَخْبَرَهُ الخَبَرَ. فَقَالَ: أَبْشِرُوا فَقَدْ وَاللَّهِ

أَعْطَانَا اللَّهُ مَقَالِيدَ مُلْكِهِمْ، وَتَفَاءَلُوا بِذَلِكَ أَخْذَ بِلاَدِهِمْ.

وَلَمَّا رَجَعَ رُسْتُمُ إِلَى المَلِكِ يَسْأَلُهُ عَنْ حَالِ مَنْ رَأَى مِنَ المُسْلِمِينَ، ذَكَرَ لَهُ عَقْلَهُمْ وَفَصَاحَتِهِمْ وَحِدَّةِ جَوَابِهِمْ، وَأَنَّهُمْ يَرُومُونَ أَمْرَاً يُوشِكُ أَنْ يُدْرِكُوهْ. وَذَكَرَ مَا أَمَرَ بِهِ أَشْرَفَهُمْ مِنَ حَمْلِ التُّرَابِ، وَأَنَّهُ اسْتَحْمَقَ أَشْرَفَهُمْ فِي حَمْلِهِ التُّرَابَ عَلَى رَأْسِهِ، وَلَوْ شَاءَ اتَّقَى بِغَيْرِهِ وَأَنَا لاَ أَشْعُرُ. فَقَالَ لَهُ رُسْتُمُ: إِنَّهُ لَيْسَ أَحْمَقَ، وَلَيْسَ هُوَ بِأَشْرَفِهِمْ، وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يَفْتَدِيَ قَوْمَهُ بِنَفْسِهِ، وَلَكِنْ وَاللَّهِ ذَهَبُوا بِمَفَاتِيحَ أَرْضِنَا، وَكَانَ رُسْتُمُ مُنَجِّماً. ثُمَّ أَرْسَلَ رَجُلاً وَرَاءَهُمْ وَقَالَ: إِنْ أَدْرَكَ التُّرَابَ فَرَدَّهُ تَدَارَكْنَا أَمْرَنَا، وَإِنْ ذَهَبُوا بِهِ إِلَى أَمِيرِهِمْ غَلَبُونَا عَلَى أَرْضِنَا. فَسَاقَ وَرَاءَهُمْ فَلَمْ يُدْرِكْهُمْ، بَلْ سَبَقُوهُ إِلَى سَعْدٍ بِالتُّرَابِ. وَسَاءَ ذَلِكَ فَارِسُ، وَغَضِبُوا مِنْ ذَلِكَ أَشَدَّ الغَضَبِ، وَاسْتَهْجَنُوا رَأْيَ المَلِكِ.

المَعْرَكَةُ:

لَمَّا طَلَبَ المُغِيرَةُ بنُ شُعْبَةِ مِنْ رُسْتُمَ وَمَنْ مَعَهُ دَفْعَ الجِزْيَةِ بَعْدَ أَنْ أَبَوْا الإِسْلاَمَ نَخَرُوا وَصَاحُوا وَقَالُوا: لاَ صُلْحَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ. فَقَالَ المُغِيرَةُ: تَعْبُرُونَ إِلَيْنَا أَوْ نَعْبُرُ إِلَيْكُمْ؟ فَقَالَ

رُسْتُمُ بَلْ نَعْبُرُ إِلَيْكُمْ. فَاسْتَأْخَرَ المُسْلِمُونَ حَتَّى عَبَرُوا فَحَمَلُوا عَلَيْهِمْ.

وَكَانَ سَعْدُ قَدْ صَلَّى بِالنَّاسِ الظُّهْرَ، ثُمَّ خَطَبَ النَّاسَ فَوَعَظَهُمْ وَحَثَّهُمْ، وَتَلاَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾، وَقَرَأَ القُرَّاءُ آيَاتِ الجِهَادِ وَسُوَرِهِ، ثُمَّ كَبَّرَ سَعْدُ أَرْبَعاً، ثُمَّ حَمَلُوا بَعْدَ الرَّابِعَةِ فَاقْتَتَلُوا حَتَّى كَانَ اللَّيْلُ فَتَحَاجَزُوا.

وَكَانَ سَعْدُ قَدْ أَصَابَهُ عِرْقُ النِّسَا، وَدَمَامِلُ فِي جَسَدِهِ، فَهُوَ لاَ يَسْتَطِيعُ الرُّكُوبَ، وَإِنَّمَا هُوَ فِي قَصْرٍ مُتَكِىءٌ عَلَى صَدْرِهِ فَوْقَ وِسَادَةٍ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى الجَيْشِ وَيُدَبِّرُ أَمْرَهُ، وَقَدْ جَعَلَ أَمْرَ الحَرْبِ إِلَى خَالِدِ بنِ عُرْفُطَةَ، وَجَعَلَ عَلَى المَيْمَنَةِ جَرِيرَ بنَ عَبْدِ اللَّهِ البُجَلِيَّ، وَعَلَى المَيْسَرَةِ قَيْسَ بنَ مَكْشُوحٍ.

حَمَلَ أَصْحَابُ الفِيَلَةِ مِنَ الفُرْسِ عَلَى المُسْلِمِينَ فَفَرَّقُوا الكَتَائِبَ، وَأُصِيبَتِ الخُيُولُ بِالذُّعْرِ فَفَرَّتْ، وَصَمَدَ المُشَاةُ، وَفَزِعَتْ امْرَأَةُ سَعْدٍ وَهِيَ سَلْمَى بِنْتُ خَصَفَةَ وَذَلِكَ عِنْدَمَا فَرَّتِ الخَيْلُ، وَقَالَتْ: وَامُثَنَّيَاهُ وَلاَ مُثَنَّى لِيَ اليَوْمَ، فَغَضِبَ سَعْدُ مِنْ ذَلِكَ وَلَطَمَ وَجْهَهَا، فَقَالَتْ: أَغِيرَةً وَجُبْناً؟

وَكَانَ فِي قَصْرِ سَعْدٍ رَجُلٌ مَسْجُونٌ عَلَى الشَّرَابِ كَانَ قَدْ حُدَّ

فِيْهِ مَرَّاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ، فَأَمَرَ بِهِ سَعْدٌ فَقُيِّدَ وَأُودِعَ فِي القَصْرِ، فَلَمَّا رَأَى الخَيْلَ تَجُولُ حَوْلَ حِمَى القَصْرِ، وَكَانَ مِنَ الشُّجْعَانِ الأَبْطَالِ قَالَ:

كَفَى حَزَناً أَنْ تُدْحَمَ الخَيْلُ بِالقَنَا
وَأُتْرَكَ مَشْدُوداً عَلَيَّ وِثَاقِيَا
إِذَا قُمْتُ عَنَّانِي الحَدِيدُ وَغُلِّقَتْ
مَصَارِيعُ مِنْ دُونِي تَصُمُّ المُنَادِيَا
وَقَدْ كُنْتُ ذَا مَالٍ كَثِيرٍ وَإِخْوَةٍ
وَقَدْ تَرَكُونِي مُفْرَداً لاَ أَخَا لِيَا

ثُمَّ سَأَلَ مِنْ (زَبْرَاءَ) أُمِّ سَعْدٍ أَنْ تُطْلِقَهُ وَتُعِيرَهُ فَرَسَ سَعْدٍ، وَحَلَفَ لَهَا أَنْ يَرْجِعَ آخِرَ النَّهَارِ فَيَضَعَ رِجْلَهُ فِي القَيْدِ، فَأَطْلَقَتْهُ، وَرَكِبَ فَرَسَ سَعْدٍ وَخَرَجَ فَقَاتَلَ قِتَالاً شَدِيداً، وَجَعَلَ سَعْدٌ يَنْظُرُ إِلَى فَرَسِهِ فَيَعْرِفُهَا وَيُنْكِرُهَا، وَيُشَبِّهُهُ بِأَبِي مِحْجَنٍ الثَّقَفِيِّ وَلَكِنْ يَشُكُّ لِظَنِّهِ أَنَّهُ فِي القَصْرِ مُوثَقٌ. فَلَمَّا كَانَ آخِرَ النَّهَارِ رَجَعَ فَوَضَعَ رِجْلَهُ فِي القَيْدِ، وَنَزَلَ سَعْدٌ فَوَجَدَ فَرَسَهُ يَعْرَقُ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ فَذَكَرُوا لَهُ قِصَّةَ أَبِي مِحْجَنٍ، فَرَضِيَ عَنْهُ، وَأَطْلَقَهُ، وَقَدْ تَابَ وَأَقْلَعَ عَنْ شَرَابِهِ.

وَقَدْ قَالَ رَجُلٌ مِنَ المُسْلِمِينَ فِي سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

نُقَاتِــلُ حَتَّــى أَنْــزَلَ اللَّــهُ نَصْرَهُ
وَسَعْــدٌ بِبَــابِ القَــادِسِيَّةِ مُعْصَمُ
فَأُبْنَــا وَقَــدْ آمَــتْ نِسَــاءٌ كَثِيرَةٌ
وَنِسْــوَةُ سَعْــدٍ لَيْسَ فِيهِــنَّ أَيِّمُ

فَيُقَالُ: إنَّ سَعْدَاً نَزَلَ إِلَى النَّاسِ فَاعْتَذَرَ إِلَيْهِمْ مِمَّا فِيْهِ مِنَ القُرُوحِ فِي فَخِذَيْهِ وَإِلْيَتَيْه فَعَذَرَهُ النَّاسُ. وَيُذْكَرُ أَنَّهُ دَعَا عَلَى قَائِلِ هَذَيْنِ البَيْتَيْنِ وَقَالَ: اللَّهُمَّ إنْ كَانَ كَاذِبَاً، أَوْ قَالَ الَّذِي قَالَ رِيَاءً وَسُمْعَةً وَكَذِبَاً فَاقْطَعْ لِسَانَهُ وَيَدَهُ. فَجَاءَهُ سَهْمٌ وَهُوَ وَاقِفٌ بَيْنَ الصَّفَّيْنِ، فَوَقَعَ فِي لِسَانِهِ فَبَطَلَ شِقُّهُ فَلَمْ يَتَكَلَّمْ حَتَّى مَاتَ.

وَقَالَ جَرِيرُ بنُ عَبْدِ اللَّهِ البَجَلِيُّ:

أَنَــا جَرِيرٌ كُنْيَتِــي أَبُــو عَمْرِو
قَــدْ فَتَــحَ اللَّــهُ وَسَعْــدٌ فِي القَصْرِ

فَأَشْرَفَ سَعْدٌ مِنْ قَصْرِهِ وَقَالَ:

وَمَــا أَرْجُــو بَجِيلَــةَ غَيْرَ أَنِّي
أُؤَمِّــلُ أَجْرَهَــا يَوْمَ الحِسَابِ
فَقَــدْ لَقِيَتْ خُيُولُهُــمْ خُيُولاً
وَقَــدْ وَقَــعَ الفَــوَارِسُ فِي الضِّرَابِ

وَقَـدْ دَلَفَـتْ بِعَرْصَتِهِـمْ خُيُولٌ
كَأَنَّ زُهَاءَهَـا إِبِـلُ الجِرَابِ
فَلَـوْلاَ جَمْـعُ قَعْقَاعِ بـنِ عَمْرٍو
وَحَمَّـالٍ لَلَجُّـوا فِي الرِّكَابِ
وَلَـوْلاَ ذَاكَ أَلْفَيْتُـمْ رِعَاعاً
تَسِيلُ جُمُوعُـكُمْ مِثْـلُ الذُّبَابِ

وَكَانَ اليَوْمُ الأَوَّلُ مِنْ مَعْـرَكَةِ القَـادِسِيَّةِ وَيُعْـرَفُ بِيَوْمِ (أَرْمَاتَ) قَاسِياً عَلَى المُسْلِمِينَ شَدِيدَ الوَطْأَةِ عَلَيْهِمْ، وَكَادَتْ تَفْنَى (بَجِيلَةُ)، وَصَرَخَ سَعْدٌ فِي قَبِيلَةِ (أَسَدٍ) لِتَدْعَمَ (بَجِيلَةَ) فَحَمَلَ طُلَيْحَةُ بنُ خُوَيلِـدٍ، وَحَمَّالُ بـنُ مَالِكٍ، والرُّبِّيلُ بـنُ عَمْرٍو، وَغَالِبُ بنُ عَبْدِ اللَّهِ فِي كَتَائِبِهِمْ وَصَدُّوا الفُرْسَ، غَيْرَ أَنَّهُمْ لَمْ يَلْبَثُوا أَنْ تَعَرَّضُوا لِهُجُومٍ عَنِيفٍ مِنْ قِبَلِ أَعْدَائِهِـمْ الَّذِينَ رَأَوْا أَنَّ فيلَتَهُمْ لَمْ تَعُدْ تُغْنِ عَنْهُمْ، فَصَرَخَ سَعْدٌ فِي بَنِي تَمِيمٍ بَعْدَ أَنْ رَأَى هُجُومَ الفِيلَةِ عَلَى المَيْمَنَةِ وَالمَيْسَرَةِ فَكَانَتِ الخُيُولُ تُحْجِمُ عَنْهَا وَتَحِيدُ، وَأَرْسَلَ سَعْدٌ إِلَـى عَاصِمِ بـنِ عَمْرٍو، وَقَالَ لَهُ: يَا مَعْشَرَ بَنِي تَمِيمٍ، أَلَسْتُمْ أَصْحَابَ الإِبِلِ وَالخَيْلِ! أَمَا عِنْدَكُمْ لِهَذِهِ الفِيلَةِ مِنْ حيلَـةٍ فَقَالُـوا لَهُ: بَلَـى وَاللَّهِ؛ فَنَادَى عَاصِمٌ فِي رِجَالٍ مِنْ قَوْمِهِ رُمَاةٍ وَآخَـرِينَ لَهُـمْ

ثَقافَةٌ، فَقَالَ لَهُمْ: يَا مَعْشَرَ الرُّمَاةِ ذُبُّوا رُكْبانَ الفِيلَةِ عَنْهُم بِالنَّبْلِ، وَقَالَ: يَا مَعْشَرَ أَهْلِ الثَّقَافَةِ اسْتَدْبِرُوا الفِيلَةَ فَقطِّعُوا وُضُنَهَا، وَخَرَجَ يَحْمِيهِمْ وَالرَّحَى تَدُورُ عَلَى أَسَدٍ، وَنَشِطَتْ تَمِيمٌ فِي القِتَالِ، وَنَفَّذَتْ رَأْيَ عَاصِمٍ، فَرَدَّتْ فَارِسَ إِلَى مَوَاقِعِهَا، وَاسْتَمَرَّ القِتَالُ حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ وَذَهَبَتْ هَدْأَةٌ مِنَ اللَّيْلِ، وَتَوَقَّفَ الفَرِيقَانِ. وَأَمَرَ سَعْدٌ بِنَقْلِ الجَرْحَى وَالشُّهَدَاءِ إِلَى (العُذَيْبِ)، فَدُفِنَ الشُّهَدَاءُ، وَقَامَتِ النِّسَاءُ بِتَمْرِيضِ الجَرْحَى.

وَفِي صَبِيحَةِ اليَوْمِ الثَّانِي، وَيُعْرَفُ بِيَوْمِ (أَغْوَاثَ) وَصَلَتْ إِلَى مَيْدَانِ المَعْرَكَةِ طَلَائِعُ جُنْدِ الشَّامِ الَّذِينَ سَبَقَ لَهُمْ أَنِ انْطَلَقُوا مِنَ العِرَاقِ مَعَ خَالِدِ بنِ الوَلِيدِ لِدَعْمِ جُنْدِ الشَّامِ فِي اليَرْمُوكِ، فَلَمَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَى المُسْلِمِينَ بِالشَّامِ، طَلَبَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عُمَرُ مِنْ أَبِي عُبَيْدَةَ أَنْ يَرْجِعُوا إِلَى العِرَاقِ بِإِمْرَةِ هَاشِمِ بنِ عُتْبَةَ بنِ أَبِي وَقَّاصٍ، ابنِ أَخِي سَعْدٍ، وَهُمْ يَوْمَئِذٍ سِتَّةُ آلَافٍ، خَمْسَةُ آلَافٍ مِنْ رَبِيعَةَ وَمُضَرٍ وَأَلْفٌ مِنْ أَفْنَاءِ اليَمَنِ مِنْ أَهْلِ الحِجَازِ، وَكَانَ القَعْقَاعُ بنُ عَمْرٍو التَّمِيمِيُّ عَلَى المُقَدِّمَةِ فَأَسْرَعَ القَعْقَاعُ وَوَصَلَ يَوْمَ أَغْوَاثَ مَعَ الصَّبَاحِ. كَانَتِ الطَّلِيعَةُ مَعَ القَعْقَاعِ أَلْفَ رَجُلٍ فَقَسَّمَهَا

أَعْشَاراً، وَأَمَرَ أَنْ تَنْطَلِقَ كُلُّ عَشْرَةٍ إِثْرَ أُخْتِهَا كُلَّمَا بَلَغَتْ مَدَى البَصَرِ. وَانْطَلَقَ هُوَ عَلَى رَأْسِ المَجْمُوعَةِ الأُولَى، وَدَخَلَ المَعْرَكَةَ، وَطَلَبَ المُبَارَزَةَ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ ذُو الحَاجِبِ بَهْمَنْ جَاذَوَيْهِ، فَقَتَلَهُ القَعْقَاعُ. وَدَعَا إِلَى المُبَارَزَةِ ثَانِيَةً فَخَرَجَ إِلَيْهِ رَجُلَانِ هُمَا: البِيْرَزَانُ وَالبِنْدَوَانُ، فَانْضَمَّ إِلَى القَعْقَاعِ ظِبْيَانُ بنُ الحَارِثِ، وَقَتَلَ كُلٌّ مِنْهُمَا خَصْمَهُ الفَارِسِيَّ، وَتَنَشَّطَ النَّاسُ بِمَصْرَعِ أَبْطَالِ خُصُومِهِمْ، وَبِقُدُومِ جَمَاعَاتِ القَعْقَاعِ جَمَاعَةً إِثْرَ جَمَاعَةٍ. وَكَانَ اليَوْمُ الثَّانِي شَدِيداً عَلَى الفُرْسِ وَبِخَاصَّةٍ أَنَّهُمْ قَدْ قَاتَلُوا مِنْ غَيْرِ فِيلَةٍ إِذْ تَكَسَّرَتْ هَوَادِجُهَا فِي اليَوْمِ الأَوَّلِ. وَاسْتَمَرَّ القِتَالُ فِي اليَوْمِ الثَّانِي حَتَّى انْقَضَى شَطْرٌ مِنَ اللَّيْلِ وَسَكَنَ النَّاسُ وَعُرِفَتْ هَذِهِ اللَّيْلَةُ بِالسَّوَادِ، عَلَى حِينَ عُرِفَتِ اللَّيْلَةُ الَّتِي سَبَقَتْهَا بِالهَدْأَةِ.

وَكَانَتْ صَبِيحَةُ اليَوْمِ الثَّالِثِ، وَهُوَ يَوْمُ عَمْوَاسَ، فَاصْطَفَّ النَّاسُ، وَكَانَ قَدْ أَصْلَحَ الفُرْسُ هَوَادِجَ فِيلَتِهِمْ، وَوَصَلَ هَاشِمُ بنُ عُتْبَةَ بِمَنْ مَعَهُ فَقَسَّمَهُمْ جَمَاعَاتٍ كُلُّ جَمَاعَةٍ تَضَمُّ سَبْعِينَ رَجُلاً، وَفَعَلَ كَمَا فَعَلَ القَعْقَاعُ مِنْ قَبْلُ وَقَدْ أُخْبِرَ بِالَّذِي كَانَ فَاسْتَحْسَنَهُ فَصَنَعَهُ. وَكَانَ يَوْمُ عَمْوَاسَ شَدِيداً عَلَى الفَرِيقَيْنِ فِي أَوَّلِهِ، وَفَعَلَتِ الفِيلَةُ فِعْلَهَا فِي اليَوْمِ الأَوَّلِ.

فَسَأَلَ سَعْدٌ الفُرْسَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا : أَلَيْسَ لِلْفِيْلَةِ مَقَاتِلُ؟ فَقَالُوا : نَعَمْ ، عُيُونُهَا وَمَشَافِرُهَا . فَدَعَا عَاصِماً وَأَخَاهُ القَعْقَاعَ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ ، وَقَالَ لَهُمَا : اكْفِيَانِي الفِيلَ الأَبْيَضَ ، وَدَعَا حَمَّالَ بنَ مَالِكٍ والرُّبَيِّلَ بنَ عَمْرٍو الأَسَدِيَيْنِ ، وَقَالَ لَهُمَا : اكْفِيَانِي الفِيلَ الأَجْرَبَ ، وَدَلَّ كِلاَ الجَانِبَيْنِ عَلَى مَقَاتِلِ الفِيلَةِ ، وَتَمكَّنَ كُلُّ جَانِبٍ مِنْ فَقْءِ عَيْنَيْ الفِيلِ الَّذِي خُصِّصَ لَهُ فَكَانَ لِلْفِيلِ صِيَاحُ الخِنْزِيرِ ، وَوَلَّى الأَجْرَبُ ، وَأَلْقَى بِنَفْسِهِ فِي نُهَيْرِ العَتِيقِ وَتَبِعَتْهُ الفِيَلَةُ الأُخْرَى ، وَقُتِلَ الفِيلُ الأَبْيَضُ ، وَانْكَشَفَتْ صُفُوفُ الفُرْسِ ، وَاسْتَمَرَّ القِتَالُ بَيْنَ الفَرِيقَيْنِ حَتَّى اللَّيْلِ ، وَعُرِفَتِ اللَّيْلَةُ بِالهُرَيْرِ ، وَقَدْ عَادَ القِتَالُ فِيهَا بَعْدَ أَنْ صَلَّى المُسْلِمُونَ العِشَاءَ وَبَقِيَ القِتَالُ حَتَّى الفَجْرِ .

وَكَانَ النَّصْرُ لِمَنْ يَتَحَمَّلُ وَيَصْبِرُ حَيْثُ بَدَا التَّعَبُ وَاضِحاً عَلَى الفَرِيقَيْنِ إِذْ لَمْ يَنَمْ أَحَدٌ لَيْلَةَ الهُرَيْرِ فَنَادَى القَعْقَاعُ بِالمُسْلِمِينَ وَحَثَّ عَلَى الصَّبْرِ ، وَنَادَى أُمَرَاءُ القَبَائِلِ بِرِجَالِهِمْ . وَمَا كَانَتِ الظَّهِيرَةُ حَتَّى تَرَاجَعَ الهُرْمُزَانُ وَالبيْرُزَانُ في القَلْبِ ، وَهَبَّتْ رِيحٌ عَاصِفٌ مِنَ الدَّبُورِ فَاقْتَلَعَتْ خَيْمَةَ رُسْتُمَ وَأَلْقَتَ بِهَا فِي (العَتِيقِ) ، فَاسْتَظَلَّ بِبِغَالٍ مُحَمَّلَةٍ كَانَتْ وَاقِفَةً عِنْدَهُ وَقَدْ قَدِمَتْ تَحْمِلُ إِلَيْهِ الأَمْوَالَ ، وَوَصَلَ القَعْقَاعُ

وَمَنْ مَعَهُ إلَى مَقَرِّ رُسْتُمَ ، وَضَرَبَ هِلاَلُ بنُ عَلَّفَةَ الحِمْلَ الَّذِي تَحْتَهُ رُسْتُمَ وَهُوَ لاَ يَعْلَمُ بِهِ، فَهَرَبَ رُسْتُمُ نَحْوَ العَتِيقِ فَرَمَى بَنَفْسِهِ فِيْهِ وَأَخَذَ يَعُومُ وَأَسْرَعَ وَرَاءَهُ هِلاَلُ فَأَخَذَ بِرِجْلِهِ وَجَرَّهُ إلَى شَاطِيءِ النَّهْرِ وَقَتَلَهُ وَرَمَى بِهِ بَيْنَ البِغَالَ، وَصَعِدَ سَرِيرَ رُسْتُمَ وَنَادَى: قَتَلْتُ رُسْتُمَ وَرَبِّ الكَعْبَةِ إلَيَّ أَيُّهَا المُسْلِمُونَ، فَأَسْرَعُوا نَحْوَهُ وَشَدَّ ذَلِكَ مِنْ عَزَائِمِهِمْ، وَهَدَّ مِنْ كِيَانِ الفُرْسِ فَانْهَزَمُوا وَتَهَافَتُوا فِي العَتِيقِ ، وَشَدَّ المُسْلِمُونَ عَلَيْهِمْ فَقَتَلُوا مِنْهُمْ ثَلاَثِينَ أَلْفَاً وَهُمْ يُرِيدُونَ قَطْعَ العَتِيقِ . وَعُرِفَ هَذَا اليَوْمُ بِيَوْمِ القَادِسِيَّةِ. وَكَتَبَ سَعْدُ إلَى أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ بِخَبَرِ النَّصْرِ. وَأُخِذَ السَّوَادُ عَنْوَةً، ثُمَّ صَالَحَ أَهْلَهُ عَلَى الجِزْيَةِ، وَمَنَ أَبَى كَانَ مَالُهُ فَيْئَاً لِلْمُسْلِمِينَ.

كَانَ الجَالِنُوسُ قَدْ أَصْدَرَ الأَمْرَ إلَى الفُرْسِ بِالانْسِحَابِ بَعْدَ القَادِسِيَّةِ وَمَقْتَلِ رُسْتُمَ وَبَعْدَ أَنْ آلَ إلَيْهِ الأَمْرُ، وَفِي الوَقْتِ نَفْسِهِ أَمَرَ سَعْدُ ،زُهْرَةَ بْنَ الحُوَيَّةِ بِمُطَارَدَةِ فُلُولِ الفُرْسِ ، وَأَمَرَ القَعْقَاعَ بنَ عَمْرٍو بِالتَّوَجُّهِ جَنُوبَاً وَشُرَحْبِيلَ بنَ السَّمْطِ بِالتَّوَجُّهِ شَمَالاً ، وَأَعْطَى خَالِدَ بنَ عُرْفُطَةَ مُهِمَّةَ جَمْعِ الغَنَائِمِ وَدَفْنِ الشُّهَدَاءِ.

وَقَدْ كَانَتْ بِلاَدُ العِرَاقِ الَّتِي فَتَحَهَا خَالِدُ بنُ الوَلِيدِ نَقَضَتِ

العُهُودَ وَالمَوَاثِيقَ الَّتِي كَانُوا أَعْطُوهَا خَالِداً، ثُمَّ عَادُوا بَعْدَ مَعْرَكَةِ القَادِسِيَّةِ، وَادَّعُوا أَنَّ الفُرْسَ أَجْبَرُوهُمْ عَلَى نَقْضِ العُهُودِ وَأَخَذُوا مِنْهُمُ الخَرَاجَ، فَصَدَّقَهُمُ المُسْلِمُونَ تَأَلُّفاً لِقُلُوبِهِمْ.

بَعَثَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ إِلَى سَعْدِ بنِ أَبِي وَقَّاصٍ يَأْمُرُهُ بِالسَّيْرِ إِلَى المَدَائِنِ حَاضِرَةِ الفُرْسِ، وَأَنْ يُخَلِّفَ النِّسَاءَ وَالعِيَالَ مَعَ حِمَايَةٍ كَثِيفَةٍ مِنَ الفُرْسَانِ فِي العَتِيقِ. بَعَثَ سَعْدٌ عَلَى المُقَدِّمَةِ زُهْرَةَ بْنَ الحُوَيَّةِ، وَأَتْبَعَهُ بِالأُمَرَاءِ، ثُمَّ سَارَ هُوَ بِالجُيُوشِ، وَقَدْ جَعَلَ ابنَ أَخِيهِ هَاشِمَ بنَ عُتْبَةَ نَائِباً عَنْهُ، وَخَالِدَ بنَ عُرْفُطَةَ عَلَى السَّاقَةِ. التَقَى زُهْرَةُ فِي مَوْقِعٍ (بُرْسَ) بِـ (بُصْبُهْرَى) فَقَاتَلَهُ، وَطَعَنَ (بُصْبُهْرَى) فَهَرَبَ إِلَى (بَابِلَ) وَقَدِ اجْتَمَعَ فِيهَا فُلُولُ مَنْ فَرَّ مِنَ القَادِسِيَّةِ وَمِنْ رُؤَسَائِهِمْ (النَّخِيْرَجَانُ) و (مِهْرَانُ الرَّازِيُّ) و (الهُرْمُزَانُ) وَغَيْرِهِمْ وَقَدْ أَمَّرُوا عَلَيْهِمُ (الفَيْرُزَانَ)، ولكنَّ (بُصْبُهْرَى) لَمْ يَلْبَثْ أَنْ مَاتَ مِنْ طَعْنَتِهِ.

وَأَسْلَمَ دِهْقَانُ (بُرْسَ) وَأَخْبَرَ زُهْرَةَ عَنِ اجْتِمَاعِ الفُرْسِ فِي بَابِلَ، فَكَتَبَ إِلَى سَعْدٍ بِالخَبَرِ، فَسَارَ المُسْلِمُونَ إِلَيْهِمْ، وَانْتَصَرُوا عَلَيْهِمْ، بِإِذْنِ اللَّهِ، فِي بَابِلَ، وَفَرَّ (الهُرْمُزَانُ) نَحْوَ

الأَهْـوَازِ، وَهَـرَبَ (الفَيْرُزَانُ) إلَـى نَهَاوَنْـدَ، واتَّجَـهَ (النَّخِيْرَجَـانُ) وَ (مِهْـرَانُ الـرَّازِيُّ) نَحْـوَ المَدَائِـنِ ، وَسَـارَ المُسْلِمُونَ نَحْوَ المَدَائِـنِ ، وَكُلَّمَـا الْتَقَـوْا بَجَمْـعٍ لِلْفُـرْسِ انْتَصَرُوا عَلَيْهِمْ، وَدَخَلَ المُسْلِمُونَ (بَهُرْسِيرَ) وَقَدْ تَرَاءَى لَهُمُ القَصْـرُ الأَبْيَضُ فِي المَدَائِـنِ . وَاجْتَـازَ سَعْـدٌ بِالجَيْشِ نَهْـرَ دِجْلَةَ، وَقَدْ حَمَاهُمْ عَاصِمُ بن عَمْرٍو مَعَ سِتِّمِائَةٍ مِنَ الشُّجْعَانِ عَلَى الطَّرَفِ الثَّانِـي الَّـذِي يَخْرُجُـونَ مِنْـهُ، وَقَـدْ أَمَـرَ سَعْـدٌ المُسْلِمِينَ عِنْدَ دُخُولِ المَاءِ أَنْ يَقُولُوا: نَسْتَعِينُ بِاللَّهِ وَنَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ، حَسْبُنَا اللَّهَ وَنِعْمَ الوَكِيلُ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلاَّ بِاللَّـهِ العَلِيِّ العَظِيمِ ، ثُمَّ اقْتَحَمَ بِفَرَسِهِ دِجْلَـةَ وَاقْتَحَـمَ النَّـاسُ لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْهُ أَحَدٌ. وَعِنْدَمَا أَصْبَحُوا فِي الطَّرَفِ الآخرِ فَرَّ الفُرْسُ أَمَامَهُمْ وَدَخَلُوا المَدَائِنَ فَاقْتَحَمَهَا المُسْلِمُونَ فَلَمْ يَجِدُوا فِيهَا أَحَداً سِوَى مَنِ اعْتَصَمَ بِالقَصْرِ الأَبْيَضِ فَدَعَاهُمْ سَعْدٌ عَلَى لِسَانِ سَلْمَانَ الفَارِسِيِّ ثَلاَثَـةَ أَيَّامٍ ، فَلَمَّـا كَانَ اليَوْمُ الثَّالِـثُ نَزَلُوا مِنْهُ، وَسَكَنَهُ سَعْدٌ، وَاتَّخَذَ الإِيوَانَ مُصَلَّى، وَتَـلاَ حِينَ دُخُولِـهِ قَوْلَ اللَّـهِ تَعَالَـى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّـاتٍ وَعُيُونٍ، وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ، وَنِعْمَةٍ كَانُـوا فِيهَـا فَاكِهِينَ، كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ﴾[1] . وَصَلَّى سَعْدٌ ثَمَانِ رَكَعَاتٍ شُكْراً

(١) سورة الدخان: الآيات ٢٥ ـ ٢٨.

لِلَّهِ تَعَالَى، وَجَمَّعَ بِالإِيوَانِ فِي صَفَرٍ مِنَ العَامِ الخَامِسِ عَشَرَ لِلْهِجْرَةِ فَكَانَتْ أَوَّلَ جُمْعَةٍ فِي العِرَاقِ.

أَرْسَلَ سَعْدٌ السَّرَايَا إِثْرَ «كِسْرَى يَزْدَجِرْدَ»، وَشَرَعَ فِي جَمْعِ الغَنَائِمِ، وَأَثْمَنُ مَا جَمَعُوهُ مَلاَبِسُ كِسْرَى، وَتَاجُهُ، وَحُلِيُّهُ، وَسَيْفُهُ، وَبِسَاطُ إِيوَانِهِ وَكَانَ مُرَبَّعاً، سِتُّونَ ذِرَاعاً فِي مِثْلِهَا، مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَالبِسَاطُ مِثْلُهُ سَوَاءً، وَهُوَ مَنْسُوجٌ بِالذَّهَبِ وَاللآلِىءِ، وَفِيْهِ مُصَوَّرٌ جَمِيعِ مَمَالِكِ كِسْرَى، بِلاَدُهُ بِأَنْهَارِهَا، وَقِلاَعِهَا، وَأَقَالِيمِهَا، وَصِفَةِ الزُّرُوعِ وَالأَشْجَارِ الَّتِي فِي بِلاَدِهِ. كَمَا أَعَادَ زُهْرَةُ بَغْلاً أَدْرَكَهُ وَغَصَبَهُ مِنَ الفُرْسِ، عَلَيْهِ لِبَاسُ كِسْرَى، وَآخَرَ عَلَيْهِ أَثَاثُهُ.

خَمَّسَ سَعْدٌ الغَنَائِمَ، وَأَمَرَ سَلْمَانَ فَقَسَّمَ الأَرْبَعَةَ أَخْمَاسٍ بَيْنَ المُجَاهِدِينَ المُسْلِمِينَ فَكَانَ لِلْوَاحِدِ مِنْهُمْ اثْنَا عَشَرَ أَلْفاً، وَكُلُّهُمْ مِنَ الفُرْسَانِ، وَاسْتَوْهَبَ سَعْدٌ أَرْبَعَةَ أَخْمَاسِ البِسَاطِ مِنْ حَيْثُ لاَ يُمْكِنُ قِسْمَتُهُ، وَكَذَلِكَ لِبَاسَ كِسْرَى، وَأَرْسَلَهَا إِلَى أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ مَعَ بَشِيرِ بنِ الخَصَاصِيَّةِ، فَلَمَّا رَأَى عُمَرُ هَذَا قَالَ: إِنَّ قَوْماً أَدُّوا هَذَا لأُمَنَاءُ، فَقَالَ لَهُ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ: إِنَّكَ عَفَفْتَ فَعَفَّتْ رَعِيَّتُكَ، وَلَوْ رَتَعْتَ لَرَتَعَتْ.

كَانَ «يَزْدَجِرْدُ» قَدْ فَرَّ إِلَى حُلْوَانَ، وَجَمَعَ الجُمُوعَ أَثْنَاءَ

الطَّرِيقَ فَتَحَصَّنُوا فِي (جَلُولاَءَ) فَتَرَكَ كِسْرَى «مِهْرَانَ» أَمِيرًا عَلَيْهِمْ، وَانْطَلَقَ هُوَ هَارِبًا إِلَى حُلْوَانَ فَبَعَثَ سَعْدٌ إِلَى أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ يُخْبِرُهُ الخَبَرَ فَأَمَرَهُ أَنْ يُقِيمَ فِي المَدَائِنِ، وَأَنْ يَبْعَثَ إِلَيْهِمْ جَيْشًا بِقِيَادَةِ ابنِ أَخِيهِ هَاشِمِ بنِ عُتْبَةَ بنِ أَبِي وَقَّاصٍ، وَأَنْ يَكُونَ القَعْقَاعُ بنُ عَمْرٍو عَلَى المُقَدِّمَةِ، فَفَعَلَ، وَسَارَ إِلَيْهِمُ المُسْلِمُونَ وَأَخَذُوهُمْ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، وَقَعَدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ، وَقَتَلُوا مِنْهُمْ فِي ذَلِكَ الْمَوْقِفِ مِائَةَ أَلْفٍ حَتَّى جَلَّلُوا وَجْهَ الأَرْضِ بِالقَتْلَى، فَلِذَلِكَ سُمِّيَتْ «جَلُولاَءَ»[1] وَغَنِمُوا مِنَ الأَمْوَالِ وَالسِّلاَحِ وَالذَّهَبِ قَرِيبًا مِمَّا غَنِمُوا مِنَ المَدَائِنِ قَبْلَهَا. وَأَمَرَ هَاشِمُ أَنْ يَسِيرَ القَعْقَاعُ خَلْفَ مَنْ فَرَّ فَأَسْرَعَ فَأَدْرَكَ «مِهْرَانَ» فَقَتَلَهُ، وَأَفْلَتَ «الفَيْرُزَانُ» فَاسْتَمَرَّ مُنْهَزِمًا. وَأَرْسَلَ هَاشِمُ خُمْسَ الغَنَائِمِ إِلَى عَمِّهِ سَعْدٍ الَّذِي أَرْسَلَهَا إِلَى المَدِينَةِ مَعَ زِيَادِ بنِ أَبِي سُفْيَانَ، وَقُضَاعِيِّ بنِ عَمْرٍو، وَأَبِي مُفَرِّزٍ الأَسْوَدِ.

أَقَامَ هَاشِمُ بنُ عُتْبَةَ فِي جَلُولاَءَ، وَسَارَ القَعْقَاعُ إِلَى حُلْوَانَ بِنَاءً عَلَى أَوَامِرِ الخَلِيفَةِ إِلَى سَعْدٍ، فَدَخَلَ القَعْقَاعُ حُلْوَانَ، وَقَبِلَ السُّكَّانُ الجِزْيَةَ، وَأَقَامَ القَعْقَاعُ فِيهَا، وَفَرَّ كِسْرَى.

(١) البداية والنهاية - ابن كثير.

وَكَذَلِكَ أَرْسَلَ سَعْدٌ جُيُوشاً لِفَتْحِ «تَكْرِيتَ» وَ «المُوصِلَ» وَ «مَاسْبَذَانَ» وَ «قَرْقِيَاءَ» وَالجَزِيرَةِ.

وَلَمْ يَطِبِ العَيْشَ لِلصَّحَابَةِ فِي المَدَائِنِ فَكَتَبَ سَعْدٌ إِلَى عُمَرَ فِي ذَلِكَ. وَمَصَّرَ بَعْدَ ذَلِكَ الكُوفَةَ، وَانْتَقَلَ إِلَيْهَا فِي المُحَرَّمِ مِنَ السَّنَةِ السَّابِعَةِ عَشْرَةَ.

بَنَى سَعْدٌ المَسْجِدَ فِي الكُوفَةِ وَأَقَامَ قَصْرَهُ، وَبَيْتَ المَالِ تِلْقَاءَ المِحْرَابِ، وَبَنَى النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ عَلَى رَمْيَةِ سَهْمٍ مِنَ المَسْجِدِ. وَكَانَ البِنَاءُ بِالقَصَبِ غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَمُرَّ العَامُ حَتَّى احْتَرَقَتْ، فَبَنُوا بِاللَّبِنِ عَنْ أَمْرِ عُمَرَ، بِشَرْطِ أَنْ لاَ يُسْرِفُوا وَلاَ يُجَاوِزُوا الحَدَّ. وَبُنِيَ لِسَعْدٍ قَصْرٌ قَرِيبٌ مِنَ السُّوقِ، فَكَانَتْ غَوْغَاءُ النَّاسِ تَمْنَعُ سَعْداً مِنَ الحَدِيثِ، فَكَانَ يُغْلِقُ بَابَهُ وَيَقُولُ: سَكِّنْ عَنِّي الصُّوَيْتَ، فَلَمَّا بَلَغَتْ هَذِهِ الكَلِمَةُ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ بَعَثَ مُحَمَّدَ بنَ مَسْلَمَةَ، فَأَمَرَهُ إِذَا انْتَهَى إِلَى الكُوفَةِ أَنْ يَقْدَحَ زِنَادَهُ، وَيَجْمَعَ حَطَباً، وَيُحْرِقَ بَابَ القَصْرِ ثُمَّ يَرْجِعُ مِنْ فَوْرِهِ. فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى الكُوفَةِ فَعَلَ مَا أَمَرَهُ بِهِ عُمَرُ، وَأَمَرَ سَعْداً أَنْ لاَ يَغْلِقَ بَابَهُ عَلَى أَحَدٍ وَلاَ يَجْعَلَ عَلَى بَابِهِ أَحَداً يَمْنَعُ النَّاسَ عَنْهُ، فَامْتَثَلَ ذَلِكَ سَعْدٌ.

وَفِي عَامٍ وَاحِدٍ وَعِشْرِينَ مِنَ الهِجْرَةِ اجْتَمَعَ أَهْلُ فَارِسَ

مِنْ كُلِّ فَجٍّ بِأَرْضِ «نَهَاوَنْدَ» فَكَتَبَ سَعْدٌ إِلَى عُمَرَ يُعْلِمُهُ بِذَلِكَ. وَثَارَ أَهْلُ الكُوفَةِ عَلَى سَعْدٍ فِي هَذَا الوَقْتِ، فَشَكَوْهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَكَانَ الَّذِي نَهَضَ بِهَذِهِ الشَّكْوَى رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: الجَرَّاحُ بنُ سِنَانٍ الأَسَدِيُّ فِي نَفَرٍ مَعَهُ، فَلَمَّا ذَهَبُوا إِلَى عُمَرَ فَشَكَوْهُ قَالَ لَهُمْ عُمَرُ: إِنَّ الدَّلِيلَ عَلَى مَا عِنْدَكُمْ مِنَ الشَّرِّ نُهُوضُكُمْ فِي هَذِهِ الحَالِ عَلَيْهِ، وَهُوَ مُسْتَعِدٌّ لِقِتَالِ أَعْدَاءِ اللَّهِ، وَقَدْ جَمَعُوا لَكُمْ، وَمَعَ هَذَا لاَ يَمْنَعُنِي أَنْ أَنْظُرَ فِي أَمْرِكُمْ.

ثُمَّ بَعَثَ مُحَمَّدَ بنَ مَسْلَمَةَ ـ وَكَانَ رَسُولَ العُمَّالِ ـ فَلَمَّا قَدِمَ مُحَمَّدُ بنُ مَسْلَمَةَ عَلَى الكُوفَةِ طَافَ عَلَى القَبَائِلِ، وَالعَشَائِرِ، وَالمَسَاجِدِ بِالكُوفَةِ، فَكُلٌّ يُثْنِي عَلَى سَعْدٍ خَيْراً، إِلاَّ نَاحِيَةَ الجَرَّاحِ بْنِ سِنَانَ وَأَصْحَابِهِ فَإِنَّهُمْ سَكَتُوا لَمْ يَذُمُّوا وَلَمْ يَشْكُرُوا، حَتَّى انْتَهَى إِلَى بَنِي عَبْسٍ، فَقَامَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: أَبُو سَعْدَةَ أُسَامَةُ بْنُ قَتَادَةَ، فَقَالَ: أَمَّا إِذْ نَاشَدْتَنَا فَإِنَّ سَعْداً لاَ يَقْسِمُ بِالسَّوِيَّةِ، وَلاَ يَعْدِلُ فِي الرَّعِيَّةِ، وَلاَ يَغْزُو فِي السَّرِيَّةِ. فَدَعَا عَلَيْهِ سَعْدٌ فَقَالَ: اللَّهُمَ إِنْ كَانَ قَالَهَا كَذِباً وَرِيَاءً وَسُمْعَةً، فَأَعْمِ بَصَرَهُ، وَكَثِّرْ عِيَالَهُ، وَعَرِّضْهُ لِمُضِلاَّتِ الفِتَنِ. فَعَمِيَ وَاجْتَمَعَ عِنْدَهُ عَشْرُ بَنَاتٍ، وَكَانَ يَسْمَعُ بِخَبَرِ المَرْأَةِ فَلاَ يَزَالُ حَتَّى يَأْتِيَهَا فَإِذَا عُثِرَ عَلَيْهِ قَالَ: دَعْوَةُ

سَعْدٍ الرَّجُلِ المُبَارَكِ. ثُمَّ دَعَا سَعْدٌ عَلَى الجَرَّاحِ وَأَصْحَابِهِ فَكُلٌّ أَصَابَتْهُ قَارِعَةٌ فِي جَسَدِهِ، وَمُصِيبَةٌ فِي مَالِـهِ بَعْـدَ ذَلِكَ. وَاسْتَنْفَرَ مُحَمَّدُ بنُ مَسْلَمَةَ أَهْلَ الكُوفَةِ لِغَزْوِ أَهْلِ نَهَاوَنْدَ فِي غُضُونِ ذَلِكَ عَنْ أَمْرِ الخَلِيفَةِ. ثُمَّ سَارَ سَعْدٌ وَمُحَمَّدُ بنُ مَسْلَمَةَ وَالجَرَّاحُ وَأَصْحَابُـهُ حَتَّى جَاءُوا عُمَـرَ، فَسَأَلَـهُ عُمَـرُ: كَيْفَ يُصَلِّي؟ فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ يُطَوِّلُ فِي الأولَيَيْنِ وَيُخَفِّفُ فِي الأُخْرَيَيْنِ وَمَا آلُو مَا اقْتَدَيْتُ بِهِ مِنْ صَلاَةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: ذَاكَ الظَّنُّ بِكَ يَا أَبَا إِسْحَاقَ.

ثُمَّ قَالَ عُمَرُ لِسَعْدٍ: مَنِ اسْتَخْلَفْتَ عَلَى الكُوفَةِ؟ فَقَـالَ: عَبْدُ اللَّهِ بنُ عَبْدِ اللَّهِ بنِ عُتْبَانَ، فَأَقَرَّهُ عُمَرُ عَلَى نِيَابَتِهِ عَلَى الكُوفَـةِ، وَكَانَ عَبْدُ اللَّـهِ هَذَا شَيْخـاً كَبِيراً مِنْ أَشْـرَافِ الصَّحَابَةِ. وَاسْتَمَرَّ سَعْـدٌ مَعْـزُولاً مِنْ غَيْرِ عَجْـزٍ وَلاَ خِيَانَـةٍ. وَيُهَدِّدُ عُمَرُ أُولَئِكَ النَّفَرَ، وَكَادَ يُوقِعُ بِهِمْ بَأْساً، ثُمَّ تَرَكَ ذَلِكَ خَوْفاً مِنْ أَنْ لاَ يَشْكُو أَحَدٌ أَمِيراً. وَهَكَذَا بَقِيَ سَعْدٌ أَمِيراً عَلَى العِرَاقِ مَا يَقْرُبُ مِنْ ثَمَانِ سَنَوَاتٍ، وَلَمْ يُعْزَلْ عَنْ ضَعْفٍ وَلاَ عَنْ خِيَانَةٍ.

بَقِيَ سَعْدٌ فِي المَدِينَةِ يَعِيشُ بَيْنَ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَهُ مَكَانَتُهُ بَيْنَ النَّاسِ، وَلَهُ مَنْزِلَـتُهُ بَيْـنَ

الصَّحَابَةِ جَمِيعاً، لاَ يُقَرَّرُ أَمْرٌ إلاَّ وَيُسْتَشَارُ.

وَطُعِنَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَحَسَّ بِنِهَايَتِهِ فَجَعَلَ الأَمْرَ بَعْدَهُ شُورَى بَيْنَ سِتَّةِ نَفَرٍ، وَهُمْ: عُثْمَانُ بنُ عَفَّانَ، وَعَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ، وَطَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِ اللَّهِ، وَالزُّبَيْرُ بنُ العَوَّامِ، وَسَعْدُ بنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ عَوْفٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جَمِيعاً. وَتَحَرَّجَ عُمَرُ أَنْ يَجْعَلَهَا لِوَاحِدٍ مِنْ هَؤُلاَءِ عَلَى التَّعْيِينِ، وَقَالَ: لاَ أَتَحَمَّلُ أَمْرَهُمْ حَيّاً وَمَيْتاً، وَإِنْ يُرِدِ اللَّهُ بِكُمْ خَيْراً يَجْمَعْكُمْ عَلَى خَيْرِ هَؤُلاَءِ، كَمَا جَمَعَكُمْ عَلَى خَيْرِكُمْ بَعْدَ نَبِيِّكُمْ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَمِنْ تَمَامِ وَرَعِهِ لَمْ يَذْكُرْ فِي الشُّورَى السَّابِعَ البَاقِيَ مِنَ العَشَرَةِ المُبَشَّرِينَ بِالجَنَّةِ الَّذِينَ لاَ يَزَالُونَ عَلَى قَيْدِ الحَيَاةِ، وَهُوَ سَعِيدُ بنُ زَيْدِ بن عَمْرِو بن نُفَيلٍ لأَنَّهُ ابنُ عَمِّهِ، خَشِيَ أَنْ يُرَاعَى فَيُوَلَّى لِكَوْنِهِ ابن عَمِّهِ، فَلِذَلِكَ تَرَكَهُ، إِذْ أَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ كَانَ قَدْ تُوفِّيَ فِي طَاعُونِ «عَمْوَاسَ» عَامَ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ لِلْهِجْرَةِ، وَمَاتَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَهُمْ بَقِيَّةُ العَشَرَةِ. وَقَالَ: لَسْتُ مُدْخِلَهُ فِيهِمْ، يَعْنِي سَعِيداً. وَقَالَ لأَهْلِ الشُّورَى: يَحْضُرُكُمْ عَبْدُ اللَّهِ، يَعْنِي ابْنَهُ، وَلَيْسَ لَهُ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ - يَعْنِي بَلْ يَحْضَرُ الشُّورَى وَيُشِيرُ بِالنُّصْحِ وَلاَ يُوَلَّى

شَيْئاً ـ. وَأَوْصَى أَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ صُهَيْبُ بنُ سِنَانٍ الرُّومِيُّ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ حَتَّى تَنْقَضِيَ الشُّورَى، وَأَنْ يَجْتَمِعَ أَهْلُ الشُّورَى ويُوَكَّلُ بِهِمْ أُنَاسٌ حَتَّى يَنْبَرِمَ الأَمْرُ. وَوَكَّلَ بِهِمْ خَمْسِينَ رَجُلاً مِنَ المُسْلِمِينَ وَجَعَلَ عَلَيْهِمْ مُسْتَحِثّاً: أَبَا طَلْحَةَ الأَنْصَارِيَّ، وَالمِقْدَادَ بنَ عَمْرٍو الكِنْدِيَّ.

فَلَمَّا مَاتَ عُمَرُ، وَأُحْضِرَتْ جَنَازَتُهُ نَزَلَ فِي قَبْرِهِ ابْنُهُ عَبْدُ اللَّهِ، وَصُهَيْبُ، وَأَهْلُ الشُّورَى، أَمَّا الَّذِي صَلَّى عَلَيْهِ فَهُوَ صُهَيْبُ.

وَرُوِيَ أَنَّ عُمَرَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ عِنْدَمَا جَعَلَ الشُّورَى فِي سِتَّةِ نَفَرٍ: مَنِ اسْتَخْلَفُوهُ فَهُوَ الخَلِيفَةُ بَعْدِي، وَإِنْ أَصَابَتْ سَعْداً فَذَاكَ، وَإِلاَّ فَلْيَسْتَعِنْ بِهِ الخَلِيفَةُ بَعْدِي فَإِنَّنِي لَمْ أَنْزَعْهُ، يَعْنِي عَنِ الكُوفَةِ، مِنْ ضَعْفٍ وَلاَ خِيَانَةٍ[1].

لَمَّا فُرِغَ مِنْ شَأْنِ عُمَرَ، جَمَعَ المِقْدَادُ بنُ عَمْرٍو أَهْلَ الشُّورَى فِي بَيْتِ المِسْوَرِ بنِ مَخْرَمَةَ، وَقِيلَ فِي حُجْرَةِ عَائِشَةَ، وَقِيلَ فِي بَيْتِ المَالِ، وَقِيلَ فِي بَيْتِ فَاطِمَةَ بِنْتَ قَيْسٍ ـ أُخْتِ الضَّحَّاكِ بنِ قَيْسٍ ـ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَكَانَ

---

(١) رواه الطبراني (٣٢٠)، وابن حجر في الإصابة ٤/ ١٦٣.

طَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِ اللَّـهِ غَائِبـاً عَنِ المَدِينَـةِ. وَقَـامَ أَبُـو طَلْحَـةَ يَحْجُبُهُمْ، وَجَاءَ عَمْرُو بنُ العاصِ وَالمُغِيرَةُ بنُ شُعْبَةَ فَجَلَسَا وَرَاءَ البَابِ فَطَرَدَهُمَا سَعْدٌ.

وَجَعَلَ أَهْلُ الشُّورَى الأَمْرَ إِلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بـنِ عَوْفٍ لِيَجْتَهِدَ لِلْمُسْلِمِينَ فِي تَوْلِيَةِ أَفْضَلِهِمْ، وَقَدْ سَحَبَ نَفْسَهُ مِنْهَا، فَاسْتَشَارَ، وَأَعْمَلَ رَأْيَهُ، وَبُويِعَ عُثْمَانُ بنُ عَفَّانَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعَنْهُمْ جَمِيعاً، وَوَافَقَ أَهْلُ الشُّورَى وَسَمِعُوا وَأَطَاعُوا، كَمَا وَافَقَ المُسْلِمُونَ كُلُّهُمْ.

مَعَ ذِي النُّورَيْنِ

بَقِيَ سَعْدٌ أَيَّامَ عُثْمَانَ بنَ عَفَّانَ الأُولَى فِي المَدِينَةِ يُسْتَشَارُ فِي كُلِّ أَمْرٍ وَخَاصَّةً فِي المُلِمَّاتِ، وَمَكَانَتُـهُ مَعْرُوفَـةٌ فِي المُجْتَمَعِ الإِسْلاَمِيِّ كُلِّهِ.

ثُمَّ عَزَلَ عُثْمَانُ المُغِيرَةَ بنَ شُعْبَةَ عَنِ الكُوفَةِ وَوَلَّى عَلَيْهَا سَعْداً سَنَةَ ثَلاَثٍ وَعِشْرِينَ فَبَقِيَ فِيهَا مَا يَقْرُبُ مِنْ سَنَتَيْنِ، ثُمَّ عَزَلَهُ وَوَلَّى مَكَانَهُ عَلَيْهَا الوَلِيدَ بنَ عُقْبَةَ، وَكَذَلِكَ كَانَ عَزْلُهُ مِنْ غَيْرِ ضَعْفٍ وَلاَ خِيَانَةٍ وَرُبَّمَا كَانَ لإِقَامَتِهِ فِي المَدِينَةِ لِيَكُونَ مِنْ رِجَالِ الشُّورَى القَرِيبِينَ.

وَكَانَتْ أَيَّامُ عُثْمَانَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حَتَّى قُرْبَ نِهَايَتِهَا أَيَّامَ خَيْرٍ حَيْثُ بَزَغَ قَرْنُ الفِتْنَةِ. وَسَعْدٌ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي المَدِينَةِ يُوَجِّهُ وَيُشِيرُ، وَيَقْتَدِي بِهِ النَّاسُ فَهُوَ مِنْ أَكَابِرِ الصَّحَابَةِ وَمِنَ العَشْرَةِ المُبَشَّرِينَ بِالجَنَّةِ.

فِي الفِتْنَةِ

اعْتَزَلَ سَعْدٌ الفِتْنَةَ، فَلَمْ يَحْضُرِ الجَمَلَ وَلاَ صِفِّينَ وَلاَ التَّحْكِيمَ، وَلَقَدْ كَانَ أَهْلاً لِلإِمَامَةِ، كَبِيرَ الشَّأْنِ.

عَنْ عُمَرَ بن سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ جَاءَهُ ابْنُهُ عَامِرُ فَقَالَ: أَيْ بُنَيَّ! أَفِي الفِتْنَةِ تَأْمُرُونِي أَنْ أَكُونَ رَأْساً؟ لاَ وَاللَّهِ، حَتَّى أُعْطَى سَيْفاً، إِنْ ضَرَبْتُ بِهِ مُسْلِماً نَبَا عَنْهُ، وَإِنْ ضَرَبْتُ كَافِراً قَتَلَهُ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الغَنِيَّ الخَفِيَّ[1] التَّقِيَّ»[2].

وَعَنْ عَامِرِ بن سَعْدٍ قَالَ: كَانَ سَعْدُ بنُ أَبِي وَقَّاصٍ فِي إِبِلِهِ، فَجَاءَهُ ابْنُهُ عُمَرُ، فَلَمَّا رَآهُ سَعْدٌ قَالَ: أَعُوذُ بَاللَّهِ مِنْ شَرِّ هَذَا الرَّاكِبِ. فَنَزَلَ فَقَالَ لَهُ: أَنَزَلْتَ فِي إِبِلِكَ وَغَنَمِكَ وَتَرَكْتَ النَّاسَ يَتَنَازَعُونَ المُلْكَ بَيْنَهُمْ؟ فَضَرَبَ سَعْدٌ فِي صَدْرِهِ فَقَالَ:

---

(١) الخفي: الذي لا يرغب في الشهرة، ولا يتعرّض للناس من أجلها.
(٢) أخرجه أحمد ١/ ١٦٨، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٩٤.

اسْكُتْ. سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ العَبْدَ التَّقِيَّ، الغَنِيَّ، الخَفِيَّ»[1].

وَعَنْ حُسَين بن خَارِجَةَ الأَشْجَعِيِّ قَالَ: لَمَّا قُتِلَ عُثْمَانُ، أَشْكَلَتْ عَلَيَّ الفِتْنَةُ. فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ أَرِنِي مِنَ الحَقِّ أَمْراً أَتَمَسَّكُ بِهِ، فَرَأَيْتُ فِي النَّوْمِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ بَيْنَهُمَا حَائِطٌ، فَهَبَطْتُ الحَائِطَ، فَإِذَا أَنَا بِنَفَرٍ، فَقَالُوا: نَحْنُ الْمَلاَئِكَةُ، قُلْتُ: فَأَيْنَ الشُّهَدَاءُ؟ قَالُوا: اصْعَدِ الدَّرَجَاتِ، فَصَعِدْتُ دَرَجَةً ثُمَّ أُخْرَى، فَإِذَا مُحَمَّدٌ وَإِبْرَاهِيمُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِمَا، وَإِذَا مُحَمَّدٌ يَقُولُ لإِبْرَاهِيمَ: اسْتَغْفِرْ لأُمَّتِي، قَالَ: إِنَّكَ لاَ تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، إِنَّهُمْ أَهْرَقُوا دِمَاءَهُمْ، وَقَتَلُوا إِمَامَهُمْ، أَلاَ فَعَلُوا كَمَا فَعَلَ خَلِيلِي سَعْدٌ؟

قَالَ: قُلْتُ: رَأَيْتُ رُؤْيَا، فَأَتَيْتُ سَعْداً، فَقَصَصْتُهَا عَلَيْهِ، فَمَا كَانَ أَكْثَرَ فَرَحاً، وَقَالَ: قَدْ خَابَ مَنْ لَمْ يَكُنْ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ خَلِيلَهُ، قُلْتُ: مَعَ أَيِّ الطَّائِفَتَيْنِ أَنْتَ؟ قَالَ: مَا أَنَا مَعَ وَاحِدٍ مِنْهُمَا، قُلْتُ: فَمَا تَأْمُرُنِي؟ قَالَ: هَلْ لَكَ مِنْ غَنَمٍ؟ قُلْتُ: لاَ، قَالَ: فَاشْتَرِ غَنَماً، فَكُنْ فِيهَا حَتَّى تَنْجَلِيَ[2].

---

(١) أخرجه مسلم في أول الزهد (٢٩٦٥).

(٢) أخرجه الحاكم ٣/ ٥٠١.

وَرُوِيَ أَنَّ ابنَ أَخِيهِ هَاشِمَ بنَ عُتْبَةَ جَاءَهُ فَقَالَ لَهُ: هَا هُنَا مِائَةُ أَلفِ سَيْفٍ يَرَوْنَكَ أَحَقَّ بِهَذَا الأَمْرِ فَقَالَ: أُرِيدُ مِنْهَا سَيْفاً وَاحِداً إِذَا ضَرَبْتُ بِهِ المُؤْمِنَ لَمْ يَصْنَعْ شَيْئاً، وَإِذَا ضَرَبْتُ بِهِ الكَافِرَ قَطَعَ(١).

وَعَنْ عَامِرِ بنِ سَعْدٍ أَنْ أَبَاهُ حِينَ رَأَى اخْتِلَافَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَفَرُّقَهُمْ اشْتَرَى أَرْضاً مَيْتَةً ثُمَّ خَرَجَ وَاعْتَزَلَ فِيهَا بِأَهْلِهِ.

وَفَاةُ سَعْدٍ

اعْتَزَلَ سَعْدٌ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ فِي قَصْرٍ بَنَاهُ بِطَرَفِ حَمْرَاءِ الأَسَدِ(٢). وَتُوفِّيَ هُنَاكَ بِالعَقِيقِ وَحُمِلَ إِلَى المَدِينَةِ، وَدُفِنَ فِيهَا.

عَنْ مُصْعَبِ بنِ سَعْدٍ قَالَ: كَانَ رَأْسُ أَبِي فِي حِجْرِي، وَهُوَ يَقْضِي. فَبَكِيتُ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيَّ، فَقَالَ: أَيْ بُنَيَّ مَا يُبْكِيكَ؟ قُلْتُ: لِمَكَانِكَ وَمَا أَرَى بِكَ. قَالَ: لاَ تَبْكِ فَإِنَّ اللَّهَ

(١) الإصابة ٢/ ٣٣.
(٢) موضع يقع جنوب المدينة على بعد ثلاثة عشر كيلومتراً منها. وهو المكان الذي وصل إليه رسول الله، صلى الله عليه وسلم في مطاردته لقريش إثر غزوة أحد، والموضع بوادي العقيق.

لاَ يُعَذِّبُنِي أَبَداً، وَإِنِّي مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، إنَّ اللَّهَ يَدِينُ المُؤْمِنِينَ بِحَسَنَاتِهِمْ مَا عَمِلُوا لِلَّهِ[1].

وَعَنِ الزُّهْرِيِّ: أَنَّ سَعْداً لَمَّا احْتَضَرَ دَعَا بِخَلَقِ جُبَّةِ صُوفٍ، فَقَالَ: كَفِّنُونِي فِيهَا، فَإِنِّي لَقِيتُ المُشْرِكِينَ فِيهَا يَوْمَ بَدْرٍ، وَإِنِّي خَبَّأْتُهَا لِهَذَا اليَوْمِ[2].

وَعَنْ عَبَّادِ بنِ عَبْدِ اللَّهِ بنِ الزُّبَيْرِ عَنْ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، [أَنَّهُ لَمَّا تُوفِّيَ سَعْدُ بنُ أَبِي وَقَّاصٍ أَرْسَلَ أَزْوَاجُ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَمُرُّوا بِجِنَازَتِهِ فِي المَسْجِدِ، فَفَعَلُوا فَوُقِفَ بِهِ عَلَى حُجَرِهِنَّ فَصَلَّيْنَ عَلَيْهِ]. وَكَانَتْ أُمُّ سَلَمَةَ تَبْكِي وَتَقُولُ: بَقِيَّةُ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَكَانَ سَعْدُ آخِرُ المُهَاجِرِينَ وَفَاةً.

تُوفِّيَ سَعْدٌ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، سَنَةَ خَمْسٍ وَخَمْسِينَ لِلْهِجْرَةِ، وَعُمْرُهُ يَقْرُبُ مِنْ خَمْسَةٍ وَثَمَانِينَ عَاماً، وَصَلَّى عَلَيْهِ مَرْوَانُ بنُ الحَكَمِ أَمِيرُ المَدِينَةِ.

---

(١) طبقات ابن سعد.

(٢) أخرجه الحاكم ٣/ ٤٩٦، والطبراني في الكبير (٣١٦) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ٢٥.

وَصِيَّةُ سَعْدٍ

عَنْ عَامِرِ بن سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: مَرِضْتُ مَرَضاً أَسْقَبْتُ مِنْهُ عَلَى المَوْتِ[1]، فَأَتَانِي رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَعُودُنِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لِي مَالٌ كَثِيرٌ وَلَيْسَ يَرِثُنِي إِلاَّ ابْنَتِي[2]، أَفَأُوصِي بِثُلُثَيْ مَالِي؟ قَالَ: لاَ، قُلْتُ: فَالشَّطْرُ؟ قَالَ: لاَ، قُلْتُ: فَالثُّلُثُ؟ قَالَ: الثُّلُثُ، وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ، إِنَّكَ إِنْ تَتْرُكْ وَلَدَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَتْرُكَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ، إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً إِلاَّ أُجِرْتَ عَلَيْهَا حَتَّى اللُّقْمَةَ تَجْعَلُهَا فِي امْرَأَتِكَ، وَلَعَلَّكَ إِنْ تُخَلَّفْ حَتَّى يَنْتَفِعَ بِكَ أَقْوَامٌ وَيُضَرَّ بِكَ آخَرُونَ، اللَّهُمَّ أَمْضِ لِأَصْحَابِي هِجْرَتَهُمْ وَلاَ تَرُدَّهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ، لَكِنَّ البَائِسَ سَعْدَ بنَ خَوْلَةَ يَرْثِي لَهُ رَسُولُ اللَّهِ أَنْ مَاتَ بِمَكَّةَ[3].

كَانَ سَعْدٌ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رَجُلاً قَصِيراً، دَحْدَاحاً، غَلِيظاً، ذَا هَامَةٍ، شَثْنَ الأَصَابِعِ، أَشْعَرَ.

---

(١) كان سعد، رضي اللّه عنه، قد مرض في مكة، حين خرج رسول اللّه، صلّى اللّه عليه وسلّم، إلى حنين، فلما قدم من الجعرانة معتمراً دخل عليه، وهو وجع مغلوب.

(٢) لم يكن له يومئذٍ بعد إلا بنتاً واحدةً، ورُزق بأولاده البقية كلهم بعد ذاك.

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد.

كَانَ حَادَّ البَصَرِ، يَرَى مِنْ بَعِيدٍ، مَا لاَ يَرَى غَيْرُهُ.

كَانَ غَنِيًّاً ذَا مَالٍ كَثِيرٍ، عَنْ عَائِشَةَ بِنْتِ سَعْدٍ قَالَتْ: أَرْسَلَ أَبِي إِلَى مَرْوَانَ[1] بِزَكَاتِهِ خَمْسَةَ آلاَفٍ، وَتَرَكَ يَوْمَ مَاتَ مِائَتَيْ أَلْفٍ وَخَمْسِينَ أَلْفاً[2].

كَانَ عَلَمَاً بَيْنَ النَّاسِ، عَنْ عَلِيٍّ بن زَيْدٍ عَنِ الحَسَنِ قَالَ: لَمَّا كَانَ الهَيْجُ فِي النَّاسِ، جَعَلَ رَجُلٌ يَسْأَلُ عَنْ أَفَاضِلِ الصَّحَابَةِ، فَكَانَ لاَ يَسْأَلُ أَحَدَاً إلاَّ دَلَّهُ عَلَى سَعْدِ بنِ مَالِكٍ.

لَهُ فِي مُسْنَدِ «بَقِيٍّ بن مَخْلَدٍ» مِائَتَانِ وَسَبْعُونَ حَدِيثاً. وَلَهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْهَا ثَمَانِيَةٌ وَثَلاَثُونَ حَدِيثاً، اتَّفَقَا عَلَى خَمْسَةَ عَشَرَ، وَانْفَرَدَ البُخَارِيُّ مِنها بِخَمْسَةِ أَحَادِيثَ وَمُسْلِمٌ بِثَمَانِيَةَ عَشَرَ حَدِيثاً.

---

(١) مروان: مروان بن الحكم أمير المدينة يومذاك.

(٢) سير أعلام النبلاء.

أسدُ اللّه

حَمزَة بن عَبْدِ المطَّلِب

رضي الله عنه

الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ وَالصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِ اللَّهِ سَيِّدِ المُرْسَلِينَ وَإِمَامِ المُتَّقِينَ وَخَاتَمِ النَّبِيِّينَ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ سَارَ عَلَى دَرْبِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ وَبَعْد:

فَإِنَّ عَدَداً مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَمْ يَعِيْشُوا فِي الدَّعْوَةِ كَثِيراً وَلَمْ يَنْعَمُوا فِي ظِلِّ الدَّوْلَةِ طَوِيلاً وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ كَانُوا لَبِنَةً قَوِيَّةً فِي صَرْحِ دَوْلَةِ الإِسْلاَمِ الَّتِي قَامَتْ بِإِذْنِ اللَّهِ بِجُهُودِ أُولَئِكَ النَّفَرِ الَّذِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَمِنْ هَؤُلاَءِ الحَمْزَةُ بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ الَّذِي لَمْ تَطُلْ حَيَاتُهُ فِي الإِسْلاَمِ أَكْثَرَ مِنْ عَشْرِ سَنَوَاتٍ وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ كَانَ لَهُ دَوْرٌ بَارِزٌ فِي ذَلِكَ البِنَاءِ الشَّامِخِ الَّذِي شَادَهُ الإِسْلاَمُ، وَذَلِكَ مِنْ نَعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ بِمَا وَهَبَهُ مِنْ قُوَّةٍ، وَمَا مَنَحَهُ مِنْ شَجَاعَةٍ، وَمَا أَعْطَاهُ مِنْ ثَبَاتِ القَلْبِ، وَمَا مَنَّ عَلَيْهِ

مِنَ الصِّدْقِ وَالإِخْلاَصِ. وَلَقَدْ أَكْرَمَهُ بَعْدَ ذَلِكَ فَاخْتَارَهُ شَهِيداً وَاتَّخَذَ مِنْهُ سَيِّدَ الشُّهَدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الحَمْزَةُ هُوَ العَمُّ المُسْلِمُ الأَوَّلُ لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَفَاهُ ذَلِكَ فَخْرَاً. وَلَمْ يُسْلِمْ مِنْ عُمُومَةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سِوَى اثْنَيْنِ هُمَا: الحَمْزَةُ وَالعَبَّاسُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وَهُوَ أَخٌ لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي الرَّضَاعَةِ، وَفِي ذَلِكَ شَرَفٌ عَظِيمٌ لَهُ. إِذْ أَرْضَعَتْهُمَا ثُوَيْبَةُ جَارِيَةُ أَبِي لَهَبٍ أَخِي الحَمْزَةَ مِنْ أَبِيهِ، وَعَمٌّ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَقَدْ نَالَهَا بِذَلِكَ حَظٌّ كَبِيرٌ بِتِلْكَ الرَّضَاعَةِ. وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ تَأْخُذَهُ حَلِيمَةُ السَّعْدِيَّةُ.

أَبُوهُ عَبْدُ المُطَّلِبِ بنِ هَاشِمٍ بنِ عَبْدِ مَنَافٍ سَيِّدُ قُرَيْشٍ دُونَ مُدَافِعٍ، وَأَحَدُ أَعْلاَمِ العَرَبِ يَومَذَاكَ.

وَأُمُّهُ هَالَةُ بِنْتُ أُهَيْبِ بنِ عَبْدِ مَنَافِ بنِ زُهْرَةَ بنِ كِلاَبِ ابنِ مُرَّةَ، فَهِيَ بِنْتُ أَحَدِ سَادَاتِ زُهْرَةَ، وَهِيَ ابْنَةُ عَمٌّ آمِنَةَ بِنْتِ وَهَبٍ أُمٌّ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَعَمَّةُ سَعْدِ بنِ أَبِي وَقَّاصٍ، أُخْتُ أَبِيهِ.

وُلِدَ الحَمْزَةُ قَبْلَ عَامِ الفِيلِ بِأَرْبَعِ سَنَوَاتٍ أَيْ قَبْلَ مَوْلِدِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَرْبَعَةِ أعوامٍ ، وَذَلِكَ سَنَةَ سَبْعٍ وَخَمْسِينَ قَبْلَ الهِجْرَةِ، وَكَانَ لاَ يَزَالُ صغيراً عِنْدَمَا وُلِدَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَرَضِعَ مِثْلَهُ مِنْ ثُوَيْبَةَ.

نَشَأَ فِي كَنَفِ وَالِدِهِ السَّيِّدِ المُطَاعِ الَّذِي لَمْ يَلْبَثْ أَنْ فَارَقَ الحَيَاةَ فَعَاشَ الحَمْزَةُ فِي رِعَايَةِ إِخْوَتِهِ الَّذِينَ هُمْ أَكْبَرُ مِنْهُ. وَهُوَ أَصْغَرُ أَوْلاَدِ عَبْدِ المُطَّلِبِ لِذَا كَانَ مَوْضِعَ اهْتِمَامِهِمْ جَمِيعاً وَخَاصَّةً أَنَّ وَالِدَهُ قَدْ تُوفِّيَ[1]. فَنَشَأَ غَيْرَ مَسْؤُولٍ عَنْ شَيْءٍ، فَإِخْوَتُهُ يَكْفُلُونَ أَمْرَهُ، وَهُوَ مُنْصَرِفٌ إِلَى شُؤُونِهِ الخَاصَّةِ.

وَشَقِيقَتُهُ صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ المُطَّلِبِ وَهِيَ الوَحِيدَةُ مِنْ بَيْنِ عَمَّاتِ[2] رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، السِّتِّ الَّتِي أَسْلَمَتْ، وَإِنِ اخْتُلِفَ فِي إِسْلاَمِ بَعْضِهِنَّ.

---

(١) إخوة الحمزة: الزبير، وأبو طالب، وعبد الله أشقاء، وبنات عبد المطلب كلهن شقيقات لهم عدا صفية.
العباس، وضرار أشقاء.
المقوم، وحجل، والحمزة أشقاء.
والحارث.
وعبد العزى (أبو لهب).

(٢) عمّات رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم: عاتكة، وأُميمة، وأروى، وبرّة، وأم حكيم البيضاء، وهنّ شقيقات، وصفيّة.

زَوْجَاتُهُ وَأَوْلاَدُهُ

تَزَوَّجَ الحَمْزَةُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثَلاَثَ نِسْوَةٍ هُنَّ:

أ - بِنْتَ المِلَّةِ بن مَالِكٍ مِنَ الأَوْسِ مِنَ المَدِينَةِ، وَأَنْجَبَتْ لَهُ:

١ - يَعْلَى وَبِهِ يُكَنَّى. وَقَدْ كَانَ لِيَعْلَى مِنَ الأَوْلاَدِ: عُمَارَةُ، وَالفَضْلُ، وَالزُّبَيْرُ، وَمُحَمَّدُ، وَعَقِيلُ، وَقَدْ مَاتُوا صِغَاراً.

٢ - عَامِراً وَمَاتَ صَغِيراً.

ب - خَوْلَةَ بِنْتَ قَيْسٍ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ مِنَ الخَزْرَجِ مِنَ المَدِينَةِ، وَأَنْجَبَتْ لَهُ:

١ - عُمَارَةَ، وَقَدْ كَانَ يُكَنَّى بِهِ أَيْضاً.

ج - سَلْمَى بِنْتَ عُمَيسٍ الخَثْعَمِيَّةَ، أُخْتَ أَسْمَاء بِنْتَ عُمَيْسٍ زَوْجَ جَعْفَرَ بن أَبِي طَالِبٍ، ثُمَّ أَبِي بَكْرٍ، ثُمَّ عَلِيٍّ. وَأَنْجَبَتْ لَهُ:

١ - أُمَامَةَ: وَهِيَ الَّتِي اخْتَصَمَ فِيهَا عَلِيٌّ، وَجَعْفَرُ، وَزَيْدٌ.

وَبِذَا لَمْ يَبْقَ لِلحمزة، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَقِبٌ.

إِسْلاَمُ حَمْزَةَ

بُعِثَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّـمَ، وَبَـدَأَ يَدْعُـو قَوْمَهُ، وَعَادَتْهُ قُرَيْشٌ، وَضَجَّتْ أَنْدِيَتُهَا بِأَخْبَارِ مَا يَجْرِي عَلَى سَاحَتِهَا، وَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُ الْمُتَغَطْرِسِينَ، وَحَمْزَةُ فِي شُغْلٍ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ يَخْرُجُ إِلَى الصَّيْدِ، وَيَعُودُ مِنْهُ، وَلَكِنْ لَمْ يَرْجِعْ إِلَى أَهْلِهِ حَتَّى يَطُوفَ بِالكَعْبَةِ، وَكَانَ إِذَا فَعَـلَ ذَلِكَ لَمْ يَمُـرَّ عَلَى نَادٍ مِنْ أَنْدِيَةِ قُرَيْشٍ إِلاَّ وَقَفَ وَسَلَّـمَ وَتَحَدَّثَ مَعَهُـمْ، هَكَذَا كَانَ يَوْمُهُ، وَكَذَا كَانَتْ أَكْثَرُ أَيَّامِهِ، وَكَانَ أَعَزَّ فَتىً فِي قُرَيْشٍ وَأَشَدَّهُمْ شَكِيمَةً.

وَمَرَّ أَبُو جَهْلٍ يَوْماً مِنْ قُرْبِ الصَّفَا وَمَعَهُ عَدِيُّ بنُ الحَمْرَاءِ وَابْنُ الأَصْدَاءِ فَلَقُوا رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّـى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّـمَ، فَآذَاهُ أَبُو جَهْلٍ وَشَتَمَهُ وَنَالَ مِنْهُ بَعْضَ مَا يَكْرَهُ مِنَ العَيْبِ لِدِينِهِ وَالتَّضْعِيفِ لأَمْرِهِ، فَلَمْ يُكَلِّمْهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّـى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَوْلاَةٌ لِعَبْدِ اللَّهِ بنِ جَدْعَانَ فِي مَسْكَنٍ لَهَـا هُنَـاكَ تَسْمَعُ ذَلِكَ وَتَرَى. وَانْصَرَفَ أَبُو جَهْلٍ وَمَنْ مَعَهُ إِلَى الكَعْبَةِ، فَعَمَدَ إِلَى نَادٍ مِنْ قُرَيْشٍ هُنَاكَ فَجَلَسَ مَعَهُمْ.

لَمْ يَلْبَثْ أَنْ جَاءَ الحَمْزَةُ مُتَوَشِّحاً قَوْسَهُ رَاجِعاً مِنْ صَيْدِهِ، فَلَمَّا مَرَّ بِالْقُرْبِ مِنْ مَسْكَنِ مَوْلاَةِ عَبْدِ اللَّهِ بنِ جَدْعَانَ قَالَتْ

لَهُ: يَا أَبَا عُمَارَةَ، لَوْ رَأَيْتَ مَا لَقِيَ ابنُ أَخِيكَ مِنْ أَبِي الحَكَمِ بن هِشَامٍ، وَجَدَهُ جَالِساً هَا هُنَا فَآذَاهُ وَسَبَّهُ وَبَلَغَ مِنْهُ مَا يَكْرَهُ ثُمَّ انْصَرَفَ عَنْهُ، وَلَمْ يُكَلِّمْهُ مُحَمَّدٌ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[1].

أَخَذَ الغَضَبُ مِنَ الحَمْزَةِ كُلَّ مَأْخَذٍ، وَعَدَّ هَذَا إهَانَةً لَهُ وَتَحَدِّيَاً بَلْ إذْلاَلاً لِبَنِي هَاشِمٍ جَمِيعَاً، وَفِي هَذَا عَارٌ كَبِيرٌ، لِذَا لاَ بُدَّ مِنْ النَّيْلِ مِنْ أَبِي جَهْلٍ وَإيقَافِهِ عِنْدَ حَدِّهِ وَالأَخْذِ بِالثَّأْرِ خَوْفَاً مِنَ التَّمَادِي فِي غَيِّهِ وَالاسْتِمْرَارِ فِي تَصَرُّفِهِ السَّيْءِ الَّذِي لاَ يَكُونُ مِنْ نَتَائِجِهِ سِوَى الحَطِّ مِنْ شَأْنِ بَنِي هَاشِمٍ وَتَطَاوُلِ القَبَائِلِ وَبَقِيَّةِ البُطُونِ القُرَيْشِيَّةِ عَلَيْهِمْ. وَكَانَ هَذَا سَبَبَاً لِكَرَامَةٍ يُرِيدُهَا اللَّهُ لِلْحَمْزَةِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ.

أَسْرَعَ الحَمْزَةُ إلَى الكَعْبَةِ، وَدَخَلَ المَسْجِدَ دُونَ أَنْ يَمُرَّ عَلَى أَحَدٍ أَوْ يُكَلِّمَ أَحَدَاً وَرَأَى أَبَا جَهْلٍ جَالِسَاً مَعَ القَوْمِ فَأَقْبَلَ نَحْوَهُمْ، وَاقْتَرَبَ مِنْهُمْ فَلَمْ يُلْقِ سَلاَمَاً، وَدَهِشَ الحُضُورُ، وَاتَّجَهُوا بِأَنْظَارِهِمْ إلَيْهِ، وَسَارَ إلَى أَبِي جَهْلٍ وَوَقَفَ عَلَى رَأْسِهِ وَأَدَارَ أَبُو جَهْلٍ رَأْسَهُ لِيَنْظُرَ إلَيْهِ مَاذَا يَفْعَلُ! وَالشُّهُودُ يَنْظُرُونَ، فَضَرَبَ الحَمْزَةُ بِقَوْسِهِ رَأْسَ أَبِي جَهْلٍ

---

(١) سيرة ابن هشام.

ضَرْبَةً قَوِيَّةً فَشَجَّهُ، وَقَالَ لَهُ: أَتَشْتُمُهُ وَأَنَا عَلَى دِينِهِ، أَقُولُ مَا يَقُولُ. فَرُدَّ عَلَيَّ إن اسْتَطَعْتَ الرَّدَّ، وَانْتَصِفْ إِنْ قَدَرْتَ عَلَى ذَلِكَ. وَتَعَجَّبَ الحُضُورُ مِنْ سُكُوتِ أَبِي جَهْلٍ، فَقَدْ أَوْقَعَ اللَّهُ فِي نَفْسِهِ الخَوْفَ، وَأُلْقِيَ عَلَيْهِ الكَثِيرُ مِنَ الجُبْنِ وَالذُّلِّ فَلَمْ يَتَكَلَّمْ بِحَرْفٍ. وَقَامَ رِجَالٌ مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ يُرِيدُونَ نَصْرَهُ والانْتِصَافَ مِنَ حَمْزَةَ فَقَالَ لَهُمْ أَبُو جَهْلٍ: دَعُوا أَبَا عُمَارَةَ، فَإِنِّي وَاللَّهِ قَدْ سَبَبْتُ ابنَ أَخِيهِ سَبّاً قَبِيحاً.

وَيَبْدُو أَنَّ حَمْزَةَ قَدْ نَدِمَ عَلَى مَا قَالَ «أَنَا عَلَى دِينِهِ» أَيْ أَعْلَنَ إسْلاَمَهُ، فَهَلْ يَتَرَاجَعُ وَيَظْهَرُ أَمَامَ قَوْمِهِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ صَادِقَاً وَأَنَّهُ قَدْ قَالَ ذَلِكَ فِي حَالَةٍ مِنَ الغَضَبِ وَكَرَدِّ فِعْلٍ، أَمْ يُعْلِنُ إسْلاَمَهُ وَيَسِيرُ فِي هَذَا الدَّرْبِ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَعْتَقِدْ بَعْدُ، وَلَمْ يَدْخِلِ الإيمَانُ إلَى قَلْبِهِ؟ يَقُولُ الحَمْزَةُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ نَفْسِهِ: لَمَّا احْتَمَلَنِي الغَضَبُ وَقُلْتُ: (أَنَا عَلَى قَوْلِهِ) أَدْرَكَنِي النَّدَمُ عَلَى فِرَاقِ دِينِ آبَائِي وَقَوْمِي، وَبِتُّ مِنَ الشَّكِّ فِي أَمْرٍ عَظِيمٍ لاَ أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، ثُمَّ أَتَيْتُ الكَعْبَةَ وَتَضَرَّعْتُ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ أَنْ يَشْرَحَ صَدْرِي لِلْحَقِّ وَيُذْهِبَ عَنِّي الرَّيْبَ، فَمَا اسْتَتَمْتُ دُعَائِي حَتَّى زَاحَ عَنِّي البَاطِلَ وَامْتَلأَ قَلْبِي يَقِيناً فَغَدَوْتُ إلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا كَانَ مِنْ

أَمْرِي فَدَعَا لِي أَنْ يُثَبِّتَنِي اللَّهُ، وَقَالَ حَمْزَةُ حِينَ أَسْلَمَ أَبْيَاتًا، مِنْهَا:

حَمِدْتُ اللَّهَ حِينَ هَدَى فُؤَادِي
إِلَى الإِسْلَامِ وَالدِّينِ الحَنِيفِ
لِدِينٍ جَاءَ مِنْ رَبٍّ عَزِيزٍ
خَبِيرٍ بِالعِبَادِ بِهِمْ لَطِيفِ
إِذَا تُلِيَتْ رَسَائِلُهُ عَلَيْنَا
تَحَدَّرَ دَمْعُ ذِي اللُّبِّ الحَصِيفِ
رَسَائِلُ جَاءَ أَحْمَدُ مِنْ هُدَاهَا
بِآيَاتٍ مُبَيَّنَةِ الحُرُوفِ

فَلَمَّا أَسْلَمَ حَمْزَةُ عَرفَتْ قُرَيْشٌ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَدْ عَزَّ وَامْتَنَعَ، وَأَنَّ حَمْزَةَ سَيَمْنَعُهُ لِقُوَّتِهِ وَشَهَامَتِهِ وَاعْتِزَازِهِ فَكَفُّوا عَنْ بَعْضِ مَا كَانُوا يَنَالُونَ مِنْهُ. وَأَصْبَحَ حَمْزَةُ يَحْضُرُ فِي دَارِ الأَرْقَمِ بنِ أَبِي الأَرْقَمِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَعِنْدَمَا كَتَبَ اللَّهُ لِعُمَرَ بنِ الخَطَّابِ الخَيْرَ أَنَارَ قَلْبَهُ لِلإِيْمَانِ فَقَرَأَ الصَّحِيفَةَ الَّتِي كَانَتْ مَعَ أُخْتِهِ فَاطِمَةَ وَقَدْ أَخْفَتْهَا خَوْفًا مِنْهُ حَتَّى إِذَا ضَرَبَهَا عَلَى إِيمَانِهَا أَخْرَجَتْهَا مُتَحَدِّيَةً لَهُ،

وَسَأَلَ عَنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ خَبَّابُ الَّذِي كَانَ مُخْتَبِئاً أَيْضَاً فِي بَيْتِ فَاطِمَةَ فَرَقاً مِنْ عُمَرَ، وَكَانَ يُعَلِّمُهَا وَزَوْجَهَا سَعِيدَ بنَ زَيْدٍ، ابنَ عَمِّهَا، وَنُعَيْمَ بنَ عَبْدِ اللَّهِ القُرْآنَ، وَدَلَّ خَبَّابُ عُمَرَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلَى أَنَّهُ فِي بَيْتٍ عِنْدَ الصَّفَا، مَعَهُ فِيهِ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَأَخَذَ عُمَرُ سَيْفَهُ فَتَوَشَّحَهُ، ثُمَّ عَمِدَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَصْحَابِهِ فَضَرَبَ عَلَيْهِمُ البَابَ، فَلَمَّا سَمِعُوا صَوْتَهُ، قَامَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَنَظَرَ مِنْ خَلَلِ البَابِ، فَرَآهُ مُتَوَشِّحاً السَّيْفَ، فَرَجَعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ فَزِعٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ مُتَوَشِّحاًالسَّيْفَ، فَقَالَ حَمْزَةُ بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ: فَأْذَنْ لَهُ، فَإِنْ كَانَ جَاءَ يُرِيدُ خَيْراً بَذَلْنَاهُ لَهُ، وَإِنْ كَانَ جَاءَ يُرِيدُ شَرّاً قَتَلْنَاهُ بِسَيْفِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ائْذَنْ لَهُ. فَأَذِنَ لَهُ الرَّجُلُ، وَنَهَضَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[1]، وَأَسْلَمَ عُمَرُ.

وَعَزَّ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِأَمْرِ اللَّهِ بِإِسْلَامِ

---

(١) سيرة ابن هشام.

حَمْزَةَ وَعُمَرَ إذْ كَانَا بِجَانِبِهِ، وَاحْتَمَلَ حَمْزَةُ كَمَا احْتَمَلَ غَيْرُهُ الأَذَى النَّفْسِيَّ وَالحَرْبَ النَّفْسِيَّةَ والاقْتِصَادِيَّةَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَاسْتَمَرَّ ذَلِكَ مُدَّةَ بَقَائِهِ فِي مَكَّةَ.

فِي المَدِينَةِ

وَأُذِنَ بِالهِجْرَةِ، وَبَدَأَ المُسْلِمُونَ فِي مَكَّةَ يَأْخُذُونَ طَرِيقَهُمْ إِلَى المَدِينَةِ أَفْرَاداً وَجَمَاعَاتٍ، بَعْضُهُمْ سِرّاً مُتَخَفِّيَاً مِنْ أَهْلِهِ وَخَائِفَاً مِنْ قُرَيْشٍ، وَبَعْضُهُمْ عَلَنَاً مُعْتَزَّاً بِإِسْلاَمِهِ وَمُتَحَدِّيَاً لِقُرَيْشٍ وَلِلْعَالَمِ بِأَسْرِهِ وَمِنْ هَؤُلاَءِ حَمْزَةُ وَعُمَرُ وَعَدَدٌ مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَصَلَ حَمْزَةُ إِلَى المَدِينَةِ وَنَزَلَ عَلَى كُلْثُومِ بنِ الهِدْمِ، وَفِي رِوَايَةٍ أَنَّهُ نَزَلَ عَلَى سَعْدِ بنِ خَيْثَمَةَ.

وَهَاجَرَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَفِي المَدِينَةِ آخَى بَيْنَ المُسْلِمِينَ، فَآخَى بَيْنَ حَمْزَةَ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ وَبَيْنَ زَيْدِ بنِ حَارِثَةَ(١).

---

(١) كانت المؤاخاة بين المسلمين ولم تكن بين المهاجرين والأنصار كما هو شائع فهاهما أخوان مهاجران حمزة وزيد، رضيّ الله عنهما.
وكانت المؤاخاة مؤاخاةً في الإسلام لترسيخ معنى الأخوة لا لأسباب اقتصادية كما هو شائع فيجب الانتباه إلى ذلك. يرجع إلى سلسلة التاريخ الإسلامي الجزء الثاني.

وَقَامَتْ دَوْلَةُ الإِسْلاَمِ فِي المَدِينَـةِ، وَكَانَ عَلَيْهَـا أَنْ تُبَيِّنَ قِيَامَهَا، وَتُثْبِتَ كَيَانِهَا بِبَثِّ السَّرَايَا فِي مَنَازِلِ القَبَائِلِ المُحِيطَةِ بِالمَدِينَةِ وَفِي أَرَاضِي تِلْكَ الجِهَاتِ حَتَّى تَعْلَمَ القَبَائِلُ بِمَا تَمَّ، وَتَعْرِفَ مَاذَا حَدَثَ دَاخِلَ عَاصِمَةِ الدَّوْلَـةِ الجَـدِيدَةِ، وَفِـي الوَقْتِ نَفْسِهِ فَإِنَّ هَذِهِ السَّـرَايَا تَدْرُسُ الأَرْضَ الَّتِـي تَجُـوسُ خِلاَلَهَا وَتَتَحَرَّكُ فَوْقَهَا فَإِنَّ عَلَى سَاحَتِهَا سَتَكُونُ أَحْدَاثٌ، إِذْ أَنَّ قُرَيْشاً لاَ بُدَّ مِنْ أَنْ يُزْعِجَهَا قِيَامُ دَوْلَةِ الإِسْلاَمِ وَسَتَعْمَلُ عَلَى خَنْقِهَا قَبْلَ أَنْ يَشْتَدَّ سَاعِدُهَا، لأَنَّهَا قَدْ قَامَـتْ عَلَـى كَوَاهِـلِ الفَارِّينَ مِنْ بَطْشِهَا وَالمُغَادِرِينَ دِيَارَهَا مِنْ ظُلْمِهَـا، وَكَذَلِكَ فَإِنَّ هَذِهِ الأَرْضَ هِيَ مَجَالُ حَرَكَةِ قَوَافِلِ قُرَيْشٍ الذَّاهِبَةِ إِلَى الشَّامِ وَالآيِبَةِ مِنْهَـا، وَلاَ تُرِيدُ قُرَيْشٌ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ البُقْعَـةُ تَحْتَ حِمَايَةِ أَعْدَائِهَا وَمَكَانِ نُفُوذِهِمْ لِذَا يَجِـبُ أَنْ تُزِيحَهُـمْ عَنْهَـا بِكُلِّ مَا أَمْكَنَهَـا مِنْ وَسَائِـلَ، وَمِـنْ نَاحِيَةٍ ثَانِيَةٍ فَإِنَّ المُسْلِمِينَ الَّـذِينَ غَادَرُوا دِيَارَهُـمْ فِي مَكَّةَ فَسَطَـتْ عَلَيْهَـا قُرَيْشٌ، وَتَرَكُوا أَمْوَالَهُمْ فَانْتَهَبَتْهَا الجَاهِلِيَّةُ، كَمَا حَالَ الكُفَّارُ فِي مَكَّةَ بَيْنَ مَنْ بَقِيَ مِن المُسْلِمِينَ فِيهَا وَبَيْنَ الهِجْرَةِ، فَعَاشَ هَؤُلاَءِ تَحْتَ الإِقَامَةِ الجَبْرِيَّةِ فِي ظِلِّ الظُّلْـمِ وَتَحْـتَ وَاقِـعِ الأَذَى، يُحَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الحَيَاةِ مَعَ إِخْوَانِهِمْ فِي المَدِينَـةِ، فَإِنْ وَقَعَتْ فِي أَيْدِي المُسْلِمِينَ فِي المَدِينَةِ قَافِلَةٌ لِقُرَيْشٍ لاَ بُدَّ

لَهُمْ مِنْ أَنْ يَأْخُذُوهَا كَشَيءٍ مِنَ التَّعْوِيضِ عَمَّا فَقَدُوهُ وَعَمَّا وَضَعَتِ الجاهِلِيَّةُ يَدَهَا عَلَيْهِ.

انْطَلَقَتِ الغَزَوَاتُ وَالسَّرَايَا تَجُوسُ تِلْكَ الدِّيَارِ، فَغَزَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، غَزْوَةَ (وَدَّانَ)، وَتُسَمَّى غَزْوَةَ (الأَبْوَاءِ) أَيْضاً، بَيْنَ مَكَّةَ وَالمَدِينَةِ، وَلَمْ يَجِدْ كَيْداً وَقَدْ وَادَعَ بَنِي ضَمْرَةَ.

وَأَرْسَلَ عُبَيْدَةَ ينَ الحَارِثِ فِي ثَمَانِينَ رَاكِباً مِنَ المُهَاجِرِينَ إِلَى مَاءٍ بِالحِجَازِ، وَقَدْ لَقِيَ جَمْعاً عَظِيماً مِنْ قُرَيْشٍ، وَلَمْ يَجْرِ قِتَالٌ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ، غَيْرَ أَنَّ سَعْدَ بنَ أَبِي وَقَّاصٍ قَدْ رَمَى يَوْمَئِذٍ بِسَهْمٍ. وَفِي الوَقْتِ نَفْسِهِ بَعَثَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحَمْزَةَ إِلَى سِيفِ البَحْرِ مِنْ نَاحِيَةِ العِيصِ فِي ثَلاثِينَ رَاكِباً مِنَ المُهَاجِرِينَ. وَكَانَتْ سَرِيَّةُ الحَمْزَةِ وَسَرِيَّةُ عُبَيْدَةَ فِي آنٍ وَاحِدٍ لِيَتَنَاقَلَ الأَعْرَابُ أَخْبَارَ السَّرَايَا الإِسْلَامِيَّةِ وَكَثْرَتَهَا وَهِيَ تَتَّجِهُ إِلَى كُلِّ نَاحِيَةٍ، وَكُلُّهَا مِنَ المُهَاجِرِينَ وَهَذَا مَا يَدُلُّ عَلَى القُوَّةِ وَالكَثْرَةِ. وَلَقِيَ الحَمْزَةُ أَبَا جَهْلٍ فِي ثَلاثِمِائَةِ رَاكِبٍ أَيْ عَشْرَةُ أَمْثَالِ المُسْلِمِينَ الَّذِينَ مَعَ الحَمْزَةِ فِي العَدَدِ، وَكَانَ هَذَا اللِّقَاءُ بَيْنَ أَحَدِ وُجُوهِ المُسْلِمِينَ وَصَنَادِيدِهِمْ وَبَيْنَ أَحَدِ رُؤُوسِ المُشْرِكِينَ وَجَبَابِرَتِهِمْ، وَأَظْلَمَ المَوْقِفُ، وَأَصَرَّ

حَمْزَةُ عَلَى القِتَالِ رَغْمَ قِلَّةِ من مَعَهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى المُشْرِكِينَ إِذْ شَعَرَ أَنَّهُ أَقْوَى مِنْ جُنُودِ الأَرْضِ جَمِيعاً لِمَا يَحْمِلُ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ إِيمَانٍ. غَيْرَ أَنَّ مَجْدِيَّ بنَ عَمْرٍو الجُهَنِيَّ حَجَزَ بَيْنَهُمَا وَكَانَ مُوَادِعاً لِلطَّرَفَيْنِ، فَانْصَرَفَ بَعْضُ القَوْمِ عَنْ بَعْضٍ، وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمْ قِتَالٌ.

فِي بَدْرٍ

انْتَهَتْ مَرْحَلَةُ الاسْتِطْلاَعِ، وَانْتَهَتْ مَرْحَلَةُ إِثْبَاتِ الكَيَانِ، وَانْتَهَتْ مَرْحَلَةُ الاسْتِعْدَادِ وَشَحْذِ الهِمَمِ، وَانْتَهَتْ مَرْحَلَةُ التَّحَرُّشِ بَعْدَ سَرِيَّةِ عَبْدِ اللَّهِ بن جَحْشٍ، حَيْثُ جَرَى فِيهَا قَتْلٌ وَاسْتِيلاَءٌ عَلَى تِجَارَةٍ لِقُرَيْشٍ، وَجَاءَ الإِذْنُ بِالقِتَالِ فَعَمَدَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلَى المُوَاجَهَةِ، وَالبَدْءِ بِأَخْذِ القَوَافِلِ، فَقَرَّرَ التَّعَرُّضَ لِقَافِلَةِ أَبِي سُفْيَانَ الذَّاهِبَةِ إِلَى الشَّامِ غَيْرَ أَنَّهَا قَدْ فَاتَتْهُ، فَوَضَعَ رِجَالاً يَتَرَصَّدُونَهَا حِينَ العَوْدَةِ.

وَعَادَتِ القَافِلَةُ، وَأُخْبِرَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَنَدَبَ المُسْلِمِينَ لِلْخُرُوجِ لَهَا، فَخَفَّ بَعْضُهُمْ وَثَقُلَ بَعْضُهُمْ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمْ يَظُنُّوا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَلْقَى حَرْباً.

خَرَجَ ثَلاَثُمِائَةٍ وَأَرْبَعَةَ عَشَرَ رَجُـلاً مِنَ المُسْـلِمِينَ، مِنْهُـمْ ثَلاَثَةٌ وَثَمَانُونَ مِنَ المُهَاجِرِينَ، وَمِائَتَانِ وَوَاحِدٌ وَثَلاَثُونَ مِنَ الأَنْصَارِ، وَكَانَ حَمْزَةُ بْـنُ عَبْدِ المُطَّلِـبِ مِنْ طَلِيعَـةِ الَّـذِينَ خَرَجُوا. وَكَانَتْ حَالَتُهُمْ تَدُلُّ عَلَى ضَعْفِهِمْ بِمِقْيَاسِ المَادَّةِ، حَيْثُ لَمْ يَكُنْ معهم سِوَى ثَلاَثَةِ جِيَادٍ هِيَ لِلزُّبَيْرِ، وَالمِقْدَادِ، وَمَرْثَدٍ، وَسَبْعِينَ بَعِيراً. يَعْتَقِبُ كُلُّ عَدَدٍ مِنْهُمْ وَاحِـداً مِنْهَـا. فَكَانَ حَمْـزَةُ، وَزَيْدٌ، وَأَبُـو كَبْشَـةَ، وَأَنَسَـةَ يَعْتَقِبُـونَ بَعِيراً، وَعُمَرُ بْـنُ الخَطَّـابِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْـنُ عَوْفٍ، وَأَبُـو بَكْرٍ يَعْتَقِبُونَ بَعِيراً. وَرَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَعَلِيٌّ، وَمِرْثَدُ يَعْتَقِبُونَ بَعِيراً. أَمَّا مِنَ النَّاحِيَةِ المَعْنَوِيَّةِ فَهُمْ أَقْوَى مِنَ الأَرْضِ كُلِّهَا بِإِيمَانِهِمْ، وَمَكَانَتِهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ، وَهُمْ أَكْثَرُ وَزْناً مِنَ الجِبَالِ الرَّوَاسِـي تَكَادُ الأَرْضُ تَنْحَنِـي تَحْتَهُـمْ لِثِقْلِهِـمْ، تَكْلَؤُهُمْ عَيْنُ اللَّهِ، وَتَنْظُرُ إِلَيْهِمْ مَخْلُوقَاتُهُ فِي المَلأُ الأَعْلَى.

وَعَلِمَ أَبُو سُفْيَانَ بُخُرُوجِهِمْ فَغَيَّرَ طَرِيقَهُ وَنَجَا بِقَافِلَتِهِ وَأَنْبَأَ قُرَيْشاً فَخَرَجَتَ تَحْمِي قَافِلَتَهَا، وَتَنْصُـرُ رِجَالَهَـا، وَتَثْـأَرُ مِمَّـا لَحِقَهَا، وَتَقْضِي عَلَى عَدُوِّهَا، وَالْتَقَى الخَارِجُونَ لِلْقَافِلَةِ مَعَ الخَارِجِينَ لِلْقِتَالِ، وَتَوَاجَـهَ الذَّاهِبُـونَ لِلْعِيرِ مَعَ المُسْتَعِـدِّينَ لِلنِّزَالِ، وَاصْطَدَمَ أَصْحَابُ الإِمْكَانَاتِ وَالطَّاقَـاتِ مَعَ النَّفَـرِ

الفُقَرَاءِ الَّذِينَ لَيْسَتْ لَدَيْهِمْ أَيَّةُ إِمْكَانَاتٍ، وَتَقَابَلَتِ القِلَّةُ القَلِيلَةُ مَعَ الكَثْرَةِ الكَثِيرَةِ، وَكُلُّ ذَلِكَ بِتَدْبِيرِ اللَّهِ وَتَهْيِئَتِهِ لِيَمْحَقَ الكَافِرِينَ، وَلِيُبْطِلَ البَاطِلَ، وَلِيُبَيِّنَ أَنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ بِيَدِ اللَّهِ وَلَيْسَ لِلْبَشَرِ مِنْ شَيْءٍ مَهْمَا كَثُرَ عَدَدُهُمْ، أَوْ تَعَاظَمَ سِلاَحُهُمْ، أَوْ ضَخُمَتْ إِمْكَانَاتُهُمْ. وَعِنْدَمَا وَقَفَ الطَّرَفَانِ وَجْهاً لِوَجْهٍ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ أَيُّ تَكَافُؤٍ فِي مِيزَانِ الأَرْضِ وَحِسَابِ أَهْلِ الأَرْضِ غَيْرَ أَنَّ حِسَابَ السَّمَاءِ غَيْرُ حِسَابِ الخَلْقِ، وَمَا هِيَ إِلاَّ جَوْلَةٌ حَتَّى ظَهَرَ الحَقُّ وَانْدَحَرَ البَاطِلُ بِجُمُوعِهِ وَسِلاَحِهِ وَطَاقَاتِهِ وَأَيْقَنَ سَاعَتَئِذٍ أُولُو الأَلْبَابِ أَنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ بِيَدِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ، وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ، وَلاَ صِحَّةَ أَبَداً لِمَا يَقِيسُ بِهِ أَهْلُ الأَرْضِ، وَمَا يَزِنُونَ بِهِ، وَمَا يُطْلِقُونَ أَحْكَامَهُمْ عَلَيْهِ.

وَلَمَّا التَقَى الجَمْعَانِ خَرَجَ مِنْ بَيْنِ المُشْرِكِينَ الأَسْوَدُ بنُ عَبْدِ الأَسَدِ المَخْزُومِيُّ، وَكَانَ رَجُلاً شَرِساً سَيِّءَ الخُلُقِ، فَقَالَ: أُعَاهِدُ اللَّهَ لأَشْرَبَنَّ مِنْ حَوْضِهِمْ أَوْ لأَهْدِمَنَّهُ، أَوْ لأَمُوتَنَّ دُونَهُ فَخَرَجَ إِلَيْهِ حَمْزَةُ بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ فَضَرَبَهُ ضَرْبَةً فَأَصَابَتْ سَاقَهُ فَأَطَاحَتْ بِهَا مَعَ القَدَمِ فَوَقَعَ يَنْزِفُ دَمُهُ وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ أَخَذَ يَحْبُو نَحْوَ الحَوْضِ يُرِيدُ أَنْ يَبَرَّ بِقَسَمِهِ ـ حَسْبَ زَعْمِهِ ـ فَضَرَبَهُ حَمْزَةُ ضَرْبَةً أُخْرَى قَضَتْ عَلَيْهِ.

ثُـمَّ خَرَجَ مِنْ بَيْنِ المُشْـرِكِينَ عُتْبَةُ بـنُ رَبِيعَـةَ بَيْنَ أَخِيهِ شَيْبَةَ بن رَبِيعَةَ وَابْنِهِ الوَلِيدِ بـنِ عُتْبَـةَ فَدَعَـا إلَـى المُبَـارَزَةِ فَخَرَجَ إلَيْهِمْ فِتْيَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ، وَهُمْ: عَبْدُ اللَّهِ بنُ رَوَاحَةَ، وَعَوْفُ بنُ الحَارِثِ، وَمُعَوِّذُ بـنُ الحَـارِثِ. فَقَـالَ عُتْبَةُ بـنُ رَبِيعَةَ: مَنْ أَنْتُمْ؟ قَالُوا: فِتْيَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَالَ لَهُمْ: أَكْفَاءٌ كِرَامٌ، مَا لَنَا بِكُمْ مِنْ حَاجَةٍ، إِنَّمَا نُرِيدُ قَوْمَنَا. ثُمَّ نَادَى: يَا مُحَمَّدُ أَخْرِجْ إلَيْنَا أَكْفَاءَنَا مِنْ قَوْمِنَا؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قُمْ يَا عُبَيْدَةُ بنُ الحَارِثِ، قُمْ يَا حَمْزَةُ بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ، قُمْ يَا عَلِيٌّ. فَقَامُوا، وَدَنَوْا مِنْهُمْ، قَالَ عُتْبَةُ: مَنْ أَنْتُمْ؟ فَانْتَسَبُوا لَهُ؛ قَالَ: نَعَمْ، أَكْفَاءٌ كِرَامٌ. فَبَارَزَ عُبَيْدَةُ عُتْبَةَ، وَحَمْزَةُ شَيْبَةَ، وَعَلِيٌّ الوَلِيدَ. وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ قَتَلَ حَمْـزَةُ وَعَلِيٌّ صَاحِبَيْهُمَـا، وَاخْتَلَفَ عُبَيْدَةُ وَعُتْبَـةُ ضَرْبَتَيْنِ بَيْنَهُمَـا، كِلاَهُمَا أَثْبَتَ صَاحِبَهُ، وَكَرَّ حَمْزَةُ وَعَلِيٌّ بِأَسْيَافِهِمَا عَلَى عُتْبَـةَ فَقَتَلاَهُ وَحَمَلاَ عُبَيْدَةَ إلَى صُفُوفِ المُسْلِمِينَ.

ثُمَّ تَزَاحَفَ النَّاسُ وَاشْتَبَكَ بَعْضُهُمْ مَعَ بَعْضٍ، وَلَفَّتْ رِيحُ الحَرْبِ المُشْـرِكِينَ لَفَّـةً وَاحِـدَةً فَأَلْقَـتْ سَبْعِينَ قَتِيلاً مِنْهُـمْ، وَرَمَتْ مِثْلَهُمْ بِأَيْدِي المُسْلِمِينَ.

لَقَدْ كَانَ حَمْزَةُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَتَحَرَّكُ إلَـى كُلِّ مَوْقِـعٍ

فَيُثْخِنُ فِي المُشْرِكِينَ، ثُمَّ يَنْتَقِلُ إِلَى مَكَانٍ آخَرَ فَيَقْتُلُ مَنْ يَجِدُهُ أَمَامَهُ مِنَ الأَعْدَاءِ، وَيَنْثَنِي إِلَى جِهَةٍ ثَانِيَةٍ لِيُشَارِكَ فِي قَتْلِ المُشْرِكِينَ إِنْ وَجَدَ الأَمْرَ يَحْتَاجُ إِلَى مَعُونَةٍ. لَقَدْ قَتَلَ سِتَّةً مِنْ أَعْدَاءِ اللَّهِ وَحْدَهُ، وَشَارَكَ فِي قَتْلِ خَمْسَةٍ آخَرِينَ.

وَلَقَدْ أَسَرَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ عَوْفٍ يَوْمَذَاكَ أُمَيَّةَ بنَ خَلَفٍ وَابْنَهُ عَلِيّاً[1]، فَقَالَ أُمَيَّةُ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ: مَنِ الرَّجُلُ مِنْكُمْ المُعَلَّمُ بِرِيشَةِ نَعَامَةٍ فِي صَدْرِهِ؟ فَقَالَ لَهُ: حَمْزَةُ بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ؛ قَالَ: ذَاكَ الَّذِي فَعَلَ بِنَا الأَفَاعِيلَ.

وَبَعْدَ بَدْرٍ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ نَقَضَ بَنُو قَيْنُقَاعَ عَهْدَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَارَ إِلَيْهِمْ، وَأَعْطَى إِلَى عَمِّهِ حَمْزَةَ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ اللِّوَاءَ، فَحَاصَرَهُمْ حَتَّى نَزَلُوا عَلَى حُكْمِهِ، فَأَجْلَاهُمْ عَنِ المَدِينَةِ.

اسْتِشْهَادُ الحَمْزَةِ

مَا كَادَ يَسْتَدِيرُ العَامُ عَلَى بَدْرٍ حَتَّى خَرَجَتْ قُرَيْشٌ حَاقِدَةً

---

(١) أخذا بعدئذٍ من عبد الرحمن بن عوف وقتلا بعد أن عرفهما بلال فصرخ بأعلى صوته: يا أنصار الله، رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا، فأحاط المسلمون بهما، ولم يستطع عبد الرحمن بن عوف الدفاع عنهما.

نَاقِمَةً ثَائِرَةً، قد جَمَعَتْ سِلاَحَهَا وَأَعْدَادَهَا وَمَا اسْتَطَاعَتْ ضَمَّهُ إلَيْهَا مِنْ رِجَالِ القَبَائِلِ وَالأَحْلاَفِ وَمَنْ وَالاَهَا وَكُلٍّ مَنْ سَارَ بِرَأْيِهَا، وَاتَّجَهَتْ نَحْوَ المَدِينَةِ تُرِيدُ الثَّأْرَ، وَإِزَالَةَ كِيَانِ الدَّوْلَةِ الإِسْلاَمِيَّةِ الفَتِيَّةِ مِنْ جُذُورِهِ إنْ تَمَكَّنَتْ مِنْ ذَلِكَ. وَوَصَلَتْ تِلْكَ الجُمُوعُ إلَى شَمَالِ المَدِينَةِ وَنَزَلَتْ «مَجْمَعَ الأَسْيَالِ» بِالقُرْبِ مِنْ جَبَلِ أُحُدٍ إلَى الغَرْبِ أَوِ الجَنُوبِ الغَرْبِيِّ مِنْهُ.

وَتَرَدَّدَتْ أَصْدَاءُ تِلْكَ الحَمْلَةِ، وَرَأَى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الاعْتِصَامَ فِي المَدِينَةِ، وَمُقَاتَلَةَ الأَعْدَاءِ مِنْ دَاخِلِهَا، غَيْرَ أَنَّ حَمَاسَةَ الشَّبَابِ، وَحُبَّ الجِهَادِ، وَالرَّغْبَةَ فِي الشَّهَادَةِ، وَالخَوْفَ مِنَ ارْتِفَاعِ مَعْنَوِيَّاتِ قُرَيْشٍ لِظَنِّهَا أَنَّ المُسْلِمِينَ قَدْ جَبُنُوا عَنِ الخُرُوجِ لِلنِّزَالِ كُلُّ ذَلِكَ قَدْ دَفَعَ بَعْضَهُمْ لإِبْدَاءِ رَأْيِهِمْ بِالخُرُوجِ وَرُبَّمَا كَانَ حَمْزَةُ بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ أَحَدَهُمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَكَلَّمَ، فَمَا كَانَ لَهُ أَنْ يُبْدِيَ وَجْهَةَ نَظَرٍ تُخَالِفُ رَأْياً لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَإِنْ كَانَتِ الرُّجُولَةُ وَالشَّهَامَةُ وَالرَّغْبَةُ فِي قِتَالِ أَعْدَاءِ اللَّهِ خَارِجَ المَدِينَةِ تَبْدُو كُلُّها عَلَيْهِ.

وَقَرَّرَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الخُرُوجَ لِلِقَاءِ

الأَعْدَاءِ خَارِجَ المَدِينَةِ وَحَيْثُ يُعَسْكِرُونَ، وَتَحَرَّكَ نَحْوَهُمْ، وَوَصَلَ إِلَيْهِمْ، وَالتَقَى الجَمْعَانِ، وَاحْتَدَمَ القِتَالُ، وَكَانَ حَمْزَةُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يُقَاتِلُ يَوْمَئِذٍ بَسيفَيْنِ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَجَعَلَ يُقْبِلُ وَيُدْبِرُ، وَيَقُولُ: أَنَا أَسَدُ اللَّهِ.

وَقَاتَلَ حَمْزَةُ بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ فَقَتَلَ عُثْمَانَ بنَ أَبِي طَلْحَةَ مِنْ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ، وَقَتَلَ أَرْطَأَةَ بنَ عَبْدِ شُرَحْبِيلَ مِنْ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ أَيْضاً، وَكَانَ أَحَدَ النَّفَرِ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ لِوَاءَ المُشْرِكِينَ، وَقَتَلَ عَمْرَو بنَ نَضْلَةَ، ثُمَّ مَرَّ بِهِ سِبَاعُ بنُ عَبْدِ العُزَّى، وَكَانَ يُكَنَّى بِأَبِي نِيَار، فَقَالَ لَهُ حَمْزَةُ: هَلُمَّ إِلَيَّ يَا ابنَ مُقَطِّعَةِ البُظُورِ[1]، فَلَمَّا التَقَيَا ضَرَبَهُ حَمْزَةُ فَقَتَلَه، ثُمَّ تَعَثَّرَ حَمْزَةُ فَكَانَ أَنْ رَمَاهُ وَحْشِيٌّ بِحَرْبَتِهِ فَوَقَعَتْ فِي ثُنَّتِهِ[2] فَقَتَلَتْهُ. يَقُولُ وَحْشِيٌّ: وَاللَّهِ إِنِّي لأَنْظُرُ إِلَى حَمْزَةَ يَهُدُّ النَّاسَ بِسَيْفِهِ مَا يُلِيقُ[3] بِهِ شَيْئاً مِثْلَ الجَمَلِ الأَوْرَقِ[4]، إِذْ تَقَدَّمَنِي إِلَيْهِ سِبَاعُ بنُ عَبْدِ العُزَّى، فَقَالَ لَهُ حَمْزَةُ: هَلُمَّ إِلَيَّ يَا ابْنَ مُقَطِّعَةِ البُظُورِ،

(١) كانت أمّه أمّ أنمار ختّانة بمكّة، وهي مولاة شريق بن عمرو بن وهب الثّقفيّ.
(٢) الثنّة: من أسفل البطن إلى العانة.
(٣) ما يُليق: ما يُبقي.
(٤) الأورق: ذو اللون الأغبر.

فَضَرَبَهُ ضَرْبَةً فَكَأَنَّ مَا أَخْطَأَ رَأْسَهُ، وَهَزَزْتُ حَرْبَتِي حَتَّى إِذَا رَضِيتُ مِنْهَا دَفَعْتُهَا عَلَيْهِ، فَوَقَعَتْ فِي ثُنَّتِهِ حَتَّى خَرَجَتْ مِنْ بَيْنِ رِجْلَيْهِ، فَأَقْبَلَ نَحْوِي، فَغُلِبَ فَوَقَعَ، وَأَمْهَلْتُهُ حَتَّى إِذَا مَاتَ جِئْتُ فَأَخَذْتُ حَرْبَتِي، ثُمَّ تَنَحَّيْتُ إِلَى العَسْكَرِ، وَلَمْ تَكُنْ لِي بِشَيْءٍ حَاجَةٌ غَيْرَهُ.

وَحَدَّثَ وَحْشِيٌّ عُبَيْدَ اللَّهِ بنَ عَدِيٍّ بنِ الخِيَارِ، وَجَعْفَرَ بنَ عَمْرِو بنِ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيَّ فِي حِمْصَ، فَقَالَ: كُنْتُ غُلاَماً لِجُبَيْرِ بنِ مُطْعِمٍ، وَكَانَ عَمُّهُ طُعَيْمَةُ بنُ عَدِيٍّ قَدْ أُصِيبَ يَوْمَ بَدْرٍ، فَلَمَّا سَارَتْ قُرَيْشٌ إِلَى أُحُدٍ، قَالَ لِي جُبَيْرٌ إِنْ قَتَلْتَ حَمْزَةَ عَمَّ مُحَمَّدٍ بِعَمِّي فَأَنْتَ عَتِيقٌ؛ قَالَ: فَخَرَجْتُ مَعَ النَّاسِ، وَكُنْتُ رَجُلاً حَبَشِيّاً أَقْذِفُ بِالحَرْبَةِ قَذْفَ الحَبَشَةِ، قَلَّمَا أُخْطِىءُ بِهَا شَيْئاً، فَلَمَّا التَقَى النَّاسُ خَرَجْتُ أَنْظُرُ حَمْزَةَ وَأَتَبَصَّرُهُ، حَتَّى رَأَيْتُهُ فِي عُرْضِ النَّاسِ مِثْلَ الجَمَلِ الأَوْرَقِ، يَهُدُّ النَّاسَ بِسَيْفِهِ هَدّاً، مَا يَقُومُ لَهُ شَيْءٌ، فَوَاللَّهِ إِنِّي لأَتَهَيَّأُ لَهُ، أُرِيدُهُ وَأَسْتَتِرُ مِنْهُ بِشَجَرَةٍ أَوْ حَجَرٍ لِيَدْنُوَ مِنِّي، إِذْ تَقَدَّمَنِي إِلَيْهِ سِبَاعُ بنُ عَبْدِ العُزَّى، فَلَمَّا رَآهُ حَمْزَةُ قَالَ لَهُ: هَلُمَّ إِلَيَّ يَا ابْنَ مُقَطِّعَةِ البُظُورِ. قَالَ: فَضَرَبَهُ ضَرْبَةً كَأَنَّ مَا أَخْطَأَ رَأْسَهُ. قَالَ: وَهَزَزْتُ حَرْبَتِي، حَتَّى إِذَا رَضِيتُ مِنْهَا،

دَفَعْتُهَا عَلَيْهِ، فَوَقَعَتْ فِي ثُنَّتِهِ، حَتَّى خَرَجَتْ مِنْ بَيْنِ رِجْلَيْهِ، وَذَهَبَ لِيَنُوءَ نَحْوِي، فَغُلِبَ فَتَرَكْتُهُ وَإِيَّاهَا حَتَّى مَاتَ ثُمَّ أَتَيْتُهُ فَأَخَذْتُ حَرْبَتِي، ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى العَسْكَرِ، فَقَعَدْتُ فِيهِ، وَلَمْ يَكُنْ لِي بِغَيْرِهِ حَاجَةٌ، وَإِنَّمَا قَتَلْتُهُ لأُعْتَقَ. فَلَمَّا قَدِمْتُ مَكَّةَ أُعْتِقْتُ، ثُمَّ أَقَمْتُ، حَتَّى إِذَا فَتَحَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَكَّةَ هَرَبْتُ إِلَى الطَّائِفِ، فَمَكَثْتُ بِهَا، فَلَمَّا خَرَجَ وَفْدُ الطَّائِفِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِيُسْلِمُوا تَعَيَّتْ عَلَيَّ المَذَاهِبُ، فَقُلْتُ: أَلْحَقُ بِالشَّامِ، أَوِ اليَمَنِ، أَوْ بِبَعْضِ البِلاَدِ، فَوَاللَّهِ إِنِّي لَفِي ذَلِكَ مِنْ هَمِّي إِذْ قَالَ لِي رَجُلٌ: وَيْحَكَ! إِنَّهُ وَاللَّهِ مَا يَقْتُلُ أَحَداً مِنَ النَّاسِ دَخَلَ فِي دِينِهِ، وَتَشَهَّدَ شَهَادَتَهُ.

فَلَمَّا قَالَ لِي ذَلِكَ، خَرَجْتُ حَتَّى قَدِمْتُ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، المَدِينَةَ، فَلَمْ يَرُعْهُ إِلاَّ بِي قَائِماً عَلَى رَأْسِهِ أَتَشَهَّدُ بِشَهَادَةِ الحَقِّ، فَلَمَّا رَآنِي قَالَ: أَوَحْشِيٌّ؟ قُلْتُ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: اقْعُدْ فَحَدِّثْنِي كَيْفَ قَتَلْتَ حَمْزَةَ؛ قَالَ فَحَدَّثْتُهُ كَمَا حَدَّثْتُكُمَا، فَلَمَّا فَرَغْتُ مِنْ حَدِيثِي، قَالَ: وَيْحَكَ! غَيِّبْ عَنِّي وَجْهَكَ، فَلاَ أُرِيَنَّكَ. قَالَ: فَكُنْتُ أَتَنَكَّبُ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَيْثُ كَانَ، لِئَلاَّ يَرَانِي حَتَّى

قَبَضَهُ اللَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(١).

فَلَمَّا انْكَشَفَ المُسْلِمُونَ وَتَرَاجَعُوا، وَأَصَابَ فِيهِمُ العَدُوُّ، قَامَتْ هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ وَالنِّسْوَةُ اللاَّتِي مَعَهَا يُمَثِّلْنَ بِالقَتْلَى مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يُجَدِّعْنَ الآذَانَ وَالأُنُفَ، وَأَعَطْتَ قَلاَئِدَهَا وَحُلِيِّهَا وَحْشِيّاً غُلاَمَ جُبَيْرِ بنِ مُطْعِمٍ، وَبَقَرَتْ عَنْ كَبِدِ حَمْزَةَ، فَلاَكَتْهَا، فَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَسِيغَهَا، فَلَفَظَتْهَا، ثُمَّ عَلَتْ عَلَى صَخْرَةٍ مُشْرِفَةٍ، فَصَرَخَتْ بِأَعْلَى صَوْتِهَا فَقَالَتْ:

نَحْنُ جَزَيْنَاكُمْ بِيَوْمِ بَدْرِ
وَالحَرْبُ بَعْدَ الحَرْبِ ذَاتُ سُعْرِ
مَا كَانَ عَنْ عُتْبَةَ لِي مِنْ صَبْرِ
وَلاَ أَخِي وَعَمِّهِ وَبِكْرِي(٢)

---

(١) وخرج وحشي مع المجاهدين لقتال المرتدين، وكانت جهته اليمامة، وقتل مسيلمة الكذّاب، وكان يقول: قتلت خير النّاس بعد رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، وقد قتلت شرّ الناس. ثم خرج إلى الشام وأقام في حمص. وكان مدمناً على الخمر، ولم يزل يحدّ فيها حتى خلع من الديوان، فكان عمر بن الخطاب يقول: قد علمت أن الله تعالى لم يكن ليدع قاتل حمزة.

(٢) عتبة بن ربيعة: أبو هند، وأخوها الوليد بن عتبة، وعمّها شيبة، وبكرها: حنظلة بن أبي سفيان وقد قتل حمزة عمّها شيبة وشارك في قتل أبيها عتبة وبكرها حنظلة. =

شَفَيْتُ نَفْسِي، وَقَضَيْتُ نَذْرِي
شَفَيْتَ وَحْشِيُّ غَلِيلَ صَدْرِي
فَشُكْرُ وَحْشِيٍّ عَلَى عُمْرِي
حَتَّى تَرِمَّ أَعْظُمِي فِي قَبْرِي

فَأَجَابَتْهَا هِنْدُ بِنْتُ أُثَاثَةَ بنِ عَبَّادِ بنِ المُطَّلِبِ، فَقَالَتْ:

خَزِيتِ فِي بَدْرٍ وَبَعْدَ بَدْرِ
يَا بِنْتَ وَقَّاعٍ عَظِيمِ الكُفْرِ
صَبَّحَكِ اللَّهُ غَدَاةَ الفَجْرِ
مِلْهَاشِمِيِّينَ الطِّوَالِ الزُّهْرِ
بِكُلِّ قَطَّاعٍ حُسَامٍ يَفْرِي
حَمْزَةُ لَيْثِي وَعَلِيٌّ صَقْرِي[1]
إِذْ رَامَ شَيْبُ وَأَبُوكِ غَدْرِي
فَخَضَّبَا مِنْهُ نَوَاحِيَ النَّحْرِ
وَنَذْرُكِ السُّوءُ فَشَرُّ نَذْرِ

= ثم أسلمت يوم فتح مكة، وبايعت رسول اللّه، صلّى اللّه عليه وسلّم، وحسن إسلامها، وإسلام زوجها أبي سفيان، وهي أم معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنهم جميعاً.

(١) قتل عليّ بن أبي طالب: الوليد بن عتبة، أخا هندٍ، وشارك حمزة في قتل أبيها عتبة، وشارك حمزة وزيداً في قتل ابنها البكر حنظلة.

وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَلْتَمِسُ حَمْزَةَ بن عَبْدِ المُطَّلِبِ، فَوَجَدَهُ بِبَطْنِ الوَادِي قَدْ بُقِرَ بَطْنُهُ عَنْ كَبِدِهِ، وَمُثِّلَ بِهِ، فَجُدِعَ أَنْفُهُ وَأُذُنَاهُ، فَقَالَ حِينَ رَأَى مَا رَأَى: «لَوْلاَ أَنْ تَحْزَنَ صَفِيَّةُ، وَيَكُونَ سُنَّةً مِنْ بَعْدِي لَتَرَكْتُهُ، حَتَّى يَكُونَ فِي بُطُونِ السِّبَاعِ، وَحَوَاصِلِ الطَّيْرِ، وَلَئِنْ أَظْهَرَنِي اللَّهُ عَلَى قُرَيْشٍ فِي مَوْطِنٍ مِنَ المَوَاطِنِ لأُمَثِّلَنَّ بِثَلاَثِينَ رَجُلاً مِنْهُمْ». فَلَمَّا رَأَى المُسْلِمُونَ حُزْنَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَغَيْظِهِ عَلَى مَنْ فَعَلَ بِعَمِّهِ مَا فَعَلَ، قَالُوا: وَاللَّهِ لَئِنْ أَظْفَرَنَا اللَّهُ بِهِمْ يَوْماً مِنَ الدَّهْرِ لَنُمَثِّلَنَّ بِهِمْ مُثْلَةً لَمْ يُمَثِّلْهَا أَحَدٌ مِنَ العَرَبِ.

وَلَمَّا وَقَفَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى حَمْزَةَ قَالَ: لَنْ أُصَابَ بِمِثْلِكَ أَبَداً! مَا وَقَفْتُ مَوْقِفاً قَطُّ أَغْيَظَ إليَّ مِنْ هَذَا! ثُمَّ قَالَ: جَاءَنِي جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي أَنَّ حَمْزَةَ بنَ عَبْدِ المُطَّلِبِ مَكْتُوبٌ فِي أَهْلِ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ: حَمْزَةُ أَسَدُ اللَّهِ، وَأَسَدُ رَسُولِهِ.

وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي المُثْلَةِ، مِنْ قَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَوْلِ أَصْحَابِهِ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ. وَاصْبِرْ

وَمَا صَبْرُكَ إلاَّ بِاللَّهِ، وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ، وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾[1]. فَعَفَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَصَبَرَ وَنَهَى عَنِ المُثْلَةِ. وَمَا قَامَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَعْدَهَا مِنْ مَقَامٍ قَطُّ وَفَارَقَهُ، حَتَّى يَأْمُرَ بِالصَّدَقَةِ وَيَنْهَى عَنِ المُثْلَةِ.

وَأَقْبَلَتْ صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ المُطَّلِبِ لِتَنْظُرَ إلَيْهِ، وَكَانَ شَقِيقاً لَهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لاِبْنِهَا الزُّبَيْرِ بنِ العَوَّامِ: القَهَا فَأَرْجِعْهَا لاَ تَرَى مَا بِأَخِيهَا؛ فَقَالَ لَهَا: يَا أُمَّهْ، إنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَأْمُرُكِ أَنْ تَرْجِعِي، قَالَتَ: وَلِمْ؟ وَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّه قَدْ مُثِّلَ بِأَخِي، وَذَلِكَ فِي اللَّهِ، فَمَا أَرْضَانَا بِمَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ! لأَحْتَسِبَنَّ وَلأَصْبِرَنْ - إنْ شَاءَ اللَّهُ - فَلَمَّا جَاءَ الزُّبَيْرُ إلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ؛ قَالَ: خَلِّ سَبِيلَهَا، فَأَتَتْهُ، فَنَظَرتْ إلَيْهِ، فَصَلَّتْ عَلَيْهِ، وَاسْتَرْجَعَتْ، وَاسْتَغْفَرَتْ لَهُ. ثُمَّ أَمَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَدُفِنَ. وَكُفِّنَ فِي نَمِرَةٍ إذَا خُمِّرَ رَأْسُهُ بَدَتْ رِجْلاَهُ، وَإذَا خُمِّرَتْ رِجْلاَهُ بَدَا رَأْسُهُ، وَلَمْ يُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الشُّهَدَاءِ. وَقَالَ: «وَأَنَا شَهِيدٌ

---

(١) سورة النحل: الآيتان ١٢٦ و ١٢٧.

عَلَيْكُمْ»، وَكَانَ يَجْمَعُ الثَّلاَثَةَ فِي قَبْرٍ، وَالاثْنَيْنِ، وَيَسْأَلُ: أَيُّهُمَا أَكْثَرُ قُرْآناً فَيُقَدِّمُهُ فِي اللَّحْدِ، وَكُفِّنَ الرَّجُلَيْنِ وَالثَّلاَثَةَ فِي ثَوْبٍ.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ عُقْبَةَ بنِ عَامِرٍ أَنَّ النَّبِيَّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، صَلَّى عَلَى قَتْلَى أُحُدٍ صَلاَتَهُ عَلَى المَيِّتِ. فَهَذَا كَانَ قَبْلَ مَوْتِهِ بِأَيَّامٍ[١].

وَفِي رِوَايَةٍ: أَنَّهُ صَلَّى عَلَى حَمْزَةَ، ثُمَّ أَمَرَ بِالقَتْلَى، فَجَعَلَ يُصَلِّي عَلَى الوَاحِدِ مِنْهُمْ بِسَبْعِ تَكْبِيرَاتٍ وَيُرْفَعُ وَيُتْرَكُ حَمْزَةُ، حَتَّى صَلَّى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ صَلاَةً حَيْثُ فَرَغَ مِنْهُمْ[٢].

وَقَدْ دُفِنَ حَمْزَةُ وَابْنُ أُخْتِهِ عَبْدُ اللَّهِ بنُ جَحْشٍ[٣] فِي قَبْرٍ وَاحِدٍ.

ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رَاجِعاً إِلَى المَدِينَةِ. فَلَقِيَتْهُ حَمْنَةُ بِنْتُ جَحْشٍ، فَلَمَّا لَقِيتِ النَّاسَ نُعِيَ إِلَيْهَا أَخُوهَا عَبْدُ اللَّهِ بنُ جَحْشٍ، فَاسْتَرْجَعَتْ وَاسْتَغْفَرَتْ لَهُ، ثُمَّ نُعِيَ لَهَا خَالُهَا حَمْزَةُ بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ، فَاسْتَرْجَعَتْ

---

(١) أخرجه أبو داود، والترمذي، وأحمد، والبيهقي.
(٢) ضعيف.
(٣) عبدالله بن جحش: أمه أميمة بنت عبد المطلب، أخت حمزة.

وَاسْتَغْفَرَتْ لَهُ، ثُمَّ نُعِيَ إِلَيْهَا زَوْجُهَا مُصْعَبُ بنُ عُمَيْرٍ، فَصَاحَتْ وَوَلْوَلَتْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ زَوْجَ الْمَرْأَةِ مِنْهَا لَبِمَكَان! لِمَا رَأَى مِنْ تَثَبُّتِهَا عِنْدَ أَخِيهَا وَخَالِهَا، وَصِيَاحِهَا عَلَى زَوْجِهَا.

وَمَرَّ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِدَارٍ مِنْ دُورِ الأَنْصَارِ مِنْ بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ وَظَفِرٍ، فَسَمِعَ النَّوَائِحَ وَالبُكَاءَ عَلَى قَتْلاَهُمْ، فَذَرَفَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَبَكَى، ثُمَّ قَالَ: لَكِنَّ حَمْزَةَ لاَ بَوَاكِيَ لَهُ! فَلَمَّا رَجَعَ سَعْدُ بنُ مُعَاذٍ، وَأُسَيْدُ بنُ الحَضِيرِ إِلَى دَارِ بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ أَمَرَا نِسَاءَهُمْ أَنْ يَتحَزَّمْنَ، ثُمَّ يَذْهَبْنَ فَيَبْكِينَ عَلَى عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَلَمَّا سَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بُكَاءَهُنَّ عَلَى حَمْزَةَ خَرَجَ عَلَيْهِنَّ، وَهُنَّ عَلَى بَابِ مَسْجِدِهِ يَبْكِينَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: ارْجِعْنَ يَرْحَمْكُنَّ اللَّهُ، فَقَدْ آسَيْتُنَّ بِأَنْفُسِكُنَّ.

وَرُوِيَ أَنَّهُ قَالَ: رَحِمَ اللَّهُ الأَنْصَارَ! فَإِنَّ المُوَاسَاةَ مِنْهُمْ مَا عَتِمَتْ لَقَدِيمَةٌ، مُرُوهُنَّ فَلْيَنْصَرِفْنَ.

وَنَهَى يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّوْحِ.

الخَاتِمَةُ

اسْتُشْهِدَ حَمْزَةُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَهُوَ ابنُ تِسْعٍ وَخَمْسِينَ سَنَةً، فَكَانَ أَسَنَّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِأَرْبَعِ سِنِينَ. وَكَان رَجُلاً لَيْسَ بِالطَّوِيلِ وَلاَ بِالقَصِيرِ.

كَانَ اسْتِشْهَادُ حَمْزَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَاجِعَةً كَبِيرَةً لِلْمُسْلِمِينَ، وَنَصْرَاً عَظِيماً لِلْمُشْرِكِينَ، فَهُوَ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ عَمُّ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيْهِ، وَكَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَلاَذاً قَوِيّاً لِلْمُسْلِمِينَ وَقتَ الشِّدَّةِ، فَقَدْ أَعَزَّهُمُ اللَّهُ بِهِ فِي مَكَّةَ، وَنَصرَهُمْ بِبِسَالَتِهِ وَأَمْثَالِهِ فِي المَدِينَةِ، فَكَانَ بَطَلَهُمْ فِي كُلِّ مَيْدَانٍ، وَأَمَامَهُمْ فِي النِّزَالِ، وكَانَ شَوْكَةً فِي عَيْنِ المُشْرِكِينَ ذَاقُوا مِنْهُ الوَيْلاَتِ فَقَدَ حَطَّمَ غُرُورَهُمْ بقَتْلِ صَنَادِيدِهِمْ إِذْ لَمْ يَقِفْ أَمَامَهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ إلاَّ قَتَلَهُ، وَلَمْ يَبْرُزْ لَهُ فَارِسٌ مِنْهُمْ إلاَّ صرَعَهُ، لِذَا لَيْسَ غَرِيباً أَنْ يَفْخَرَ المُسْلِمُونَ بِشَجَاعَتِهِ وَيُبَاهُونَ المُشْرِكِينَ بِهِ، وَيَبْكُونَهُ، وَيَرْثِيهِ شُعَرَاؤُهُمْ بِأَحَرِّ قَصَائِدِهِمْ وَأَصْدَقِهَا، وَفِي الوَقْتِ نَفْسِهِ لَيْسَ غَرِيباً أَنْ يَبْتَهِجَ المُشْرِكُونَ بِقَتْلِهِ، وَيَفْرَحُونَ بِمَصْرَعِهِ، وَيَعُدُّونَ قَتْلَهُ نَصْرَاً لَهُمْ. بَلْ إنَّ مُعْظَمَ مَا قِيلَ مِنْ شِعْرٍ مِنْ كِلاَ الطَّرَفَيْنِ إِنَّمَا كَانَ يَدُورُ فِي هَذَا المَنْحَى وَيَذْكُرُ حَمْزَةَ، رَضِيَ

اللَّهُ عَنْهُ.

وَلَيْسَ لِقُرَيْشٍ أَنْ تَفْخَرَ بِقَتْلِ حَمْزَةَ، إذْ قُتِلَ غَدْراً، وَلَمْ يَجْرُؤْ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى مُنَازَلَتِهِ، لِذَا فَقَدْ أَغَرَوْا بِهِ عَبْداً حَبشيّاً، وَمَنَّوْهُ بِالعِتْقِ وَهَذَا أَكْبَرُ أُمْنِيَةٍ لَهُ وَأَعَزَّهَا عِنْدَهُ فَاغْتَالَهُ غَدْرَاً، وَقَدْ جَبُنَ أَسْيَادُهُ عَلَى مُوَاجَهَـةِ ذَلِكَ الغَضَنْفَـرِ، وَخَافُـوا مِنْ لِقَائِهِ، رَضِيَ اللَّه عَنْهُ وَأَرْضَـاهُ فَقَـدْ كَانَ أُنْمُوذَجـاً لِشَجَاعَـةِ المُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

بُنَاة دَولَـةِ الإسلام

٣٦

عَاصِم بن ثابت

رضي الله عنه

عَاصِمُ: أَحَدُ رِجَالِ الأَوْسِ المَعْرُوفِينَ، وَأَبْرَزِ الرُّمَاةِ المَعْدُودِينَ، أَسْلَمَ مَعَ وُصُولِ الدَّعْوَةِ إِلَى المَدِينَةِ، وَأَخْلَصَ وَبَذَلَ كُلَّ طَاقَاتِهِ فِي سَبِيلِ فِكْرَتِهِ حَتَّى نَالَ الشَّهَادَةَ فِي شَهْرِ صَفَرَ مِنَ السَّنَةِ الرَّابِعَةِ لِلْهِجْرَةِ.

أَبُوهُ:

ثَابِتُ بنُ قَيْسٍ، وَيُلَقَّبُ «قَيْسُ» بِأَبِي الأَقْلَحِ، وَلِذَا يُدْعَى عَاصِمُ بِـ (عَاصِمِ بنِ ثَابِتِ بنِ أَبِي الأَقْلَحِ).

أُمُّهُ:

الشُّمُوسُ بِنْتُ أَبِي عَامِرِ بنِ صَيْفِيّ مِنْ الأَوْسِ أَيْضاً.

زَوْجَتُهُ:

تَزَوَّجَ عَاصِمُ هِنْدَ بِنْتَ مَالِكِ بنِ عَمْرٍو حُذَيْفَةَ، وَأَنْجَبَتْ لَهُ مُحَمَّداً، وَكَانَ لِمُحَمَّدٍ هَذَا وَلَدٌ يُدْعَى عَبْدَ اللَّهِ، وَيُلَقَّبُ

بِالأَحْوَصِ ، وَهُوَ الشَّاعِرُ المَشْهُورُ.

كُنْيَتُهُ:

يُكَنَّى عَاصِمُ بِـ (أَبِي سُلَيْمَانَ).

وَتَزَوَّجَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ أُخْتَ عَاصِمٍ جَمِيلَةَ بِنْتَ ثَابِتٍ، وَأَنْجَبَتْ لَهُ عَاصِماً، وَتَزَوَّجَ عَاصِمُ الفَتَاةَ الَّتِي لَمْ تَسْتَمِعْ مِنْ أُمِّهَا، فَلَمْ تَقْبَلْ مَزْجَ المَاءِ مَعَ الحَلِيبِ، وَقَالَتْ لَهَا: إنْ لَمْ يَرنَا عُمَرُ فَإِنَّ رَبَّ عُمَرَ يَرَانَا، وَأَنْجَبَتْ هَذِهِ لِعَاصِمٍ مُحَمَّداً وَفَتَاةً تُدْعَى «أُمَّ عَاصِمٍ» تَزَوَّجَهَا عَبْدُ العَزِيزِ بنُ مَرْوَانَ فَأَنْجَبَتْ لَهُ «عُمَرَ بنَ عَبْدِ العَزِيزِ» الخَلِيفَةَ المَعْرُوفَ.

فِي الجِهَادِ

هَاجَرَ المُسْلِمُونَ مِنْ مَكَّةَ إِلَى المَدِينَةِ، وَلَمَّا هَاجَرَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، آخَى بَيْنَ المُسْلِمِين لِتَمْتِينِ الصِّلَةِ بَيْنَهُمْ جَمِيعاً، وَلِتَحْقِيقِ أُخُوَّةِ الإِيمَانِ، وَقَدْ آخَى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، بَيْنَ عَبْدِ اللَّهِ بنِ جَحْشٍ وَبَيْنَ عَاصِمِ بنِ ثَابِتٍ.

وَلَمَّا نَدَبَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، المُسْلِمِينَ

لِلْخُرُوجِ إلَى قَافِلَةِ أَبِي سُفْيَانَ كَانَ عَاصِمُ مِنْ أَوَائِلِ الَّذِينَ خَرَجُوا، غَيْرَ أَنَّ تَقْدِيرَ اللَّهِ كَانَ أَنِ التقَى المُسْلِمُونَ مَعَ جُمُوعِ قُرَيْشٍ الَّتِي جَاءَتْ لِحِمَايَةِ القَافِلَةِ، وَكَانَت القَافِلَةُ قَدْ نَجَتْ بِتَغْيِيرِ خطِّ سَيْرِهَا، وَكَانَتْ مَعْرَكَةُ بَدْرٍ، وَقَدْ أَبْلَى فِيهَا عَاصِمُ بَلاَءً حَسَناً، وَبَعْدَ المَعْرَكَةِ قَتَلَ عُقْبَةَ بنَ أَبِي مُعَيطٍ صَبْرَاً بِأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَقَاتَلَ عَاصِمُ يَوْمَ أُحُدٍ، فَقَتَلَ مُسَافِعَ بنَ طَلْحَةَ وَأَخَاهُ الجُلاَسَ بنَ طَلْحَةَ، كِلاَهُمَا يَرْمِيهِ بِسَهْمٍ، فَيَأْتِي أُمَّهُ سُلاَفَةَ فَيَضَعُ رَأْسَهُ فِي حِجْرِهَا، فَتَقُولُ: يَا بُنَيَّ مَنْ أَصَابَكَ؟ فَيَقُولُ: سَمِعْتُ رَجُلاً حِينَ رَمَانِي وَهُوَ يَقُولُ: خُذْهَا وَأَنَا ابنُ أَبِي الأَقْلَحِ. فَنَذَرَتْ: إنْ أَمْكَنَهَا اللَّهُ مِنْ رَأْسِ عَاصِمٍ أَنْ تَشْرَبَ فِيهِ الخَمْرَ، وَجَعَلَتْ مِائَةَ نَاقَةٍ لِمَنْ يَأْتِيهَا بِرَأْسِهِ. وَكَانَ عَاصِمُ قَدْ عَاهَدَ اللَّهَ أَنْ لاَ يَمَسَّ مُشْرِكاً أَبَداً، وَلاَ يَمَسُّهُ مُشْرِكٌ.

وَثَبتَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حِينَ وَلَّى النَّاسُ، وَبَايَعَهُ عَلَى المَوْتِ.

وَبَعْدَ أَنْ لاَحَقَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قُرَيْشاً بَعْدَ أُحُدٍ إلَى حَمْرَاءِ الأَسَدِ، وَقَدْ بَلَغَهُ أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ الإغَارَةَ

عَلَى المَدِينَةِ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَجْرُؤُوا عَلَى الثَّبَاتِ لِلْمُسْلِمِينَ فَفَرَّ أَبُو سُفْيَانَ بِمَنْ مَعَهُ، وَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي جِهَةِ ذَلِكَ، قَبْلَ رُجُوعِهِ إِلَى المَدِينَةِ، مُعَاوِيَةَ بن المُغِيرَةِ بن أَبِي العَاصِ بن أُمَيَّةَ، وَأَبَا عَزَّةَ الجُمَحِيَّ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَدْ أَسَرَهُ بِبَدْرٍ، ثُمَّ مَنَّ عَلَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّه، أَقِلْنِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَاللَّهِ لاَ تَمْسَحْ عَارِضَيْكَ بِمَكَّةَ بَعْدَهَا، وَتَقُولُ: خَدَعْتُ مُحَمَّداً مَرَّتَيْنِ ، إِنَّ المُؤْمِنَ لا يُلْدَغُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ ، اضْرِبْ عُنُقَهُ يَا عَاصِمُ بنُ ثَابِتٍ، فَضَرَبَ عُنُقَهُ. وَفِي رِوَايَةٍ أَنَّ الزُّبَيْرَ بنَ العَوَّامِ هُوَ الَّذِي تَوَلَّى قَتْلَ أَبِي عَزَّةَ.

اسْتِشْهَادُ عَاصِمٍ

بَعْدَ أُحُدٍ اسْتَأْسَدَتِ القَبَائِلُ عَلَى المَدِينَةِ، وَطَمِعَتْ بِأَهْلِهَا، وَظَنَّتْ أَنَّ نصرَ قُرَيشٍ الظَّاهِرِيَّ عَلَى المُسْلِمِينَ قَدْ جَعَلَهُمْ فِي مَهَبِّ الرِّيحِ ، وَلَنْ يَلْبَثَ أَمْرُهُمْ أَنْ يَتَفَرَّقَ، فَبَدَأَتْ كُلُّ قَبِيلَةٍ وَكُلُّ جَمَاعَةٍ تَعْمَلُ لِلنَّيْلِ مِنْهُمْ وَلأَخْذِ نَصِيبِهَا حَتَّى إِذَا زَادَ ضَعْفُهُمْ انْقَضَّ الجَمِيعُ عَلَى المَدِينَةِ فَانْتَهَبُوهَا وَسَبَوْا نِسَاءَهَا وَقَتَلُوا رِجَالَهَا وَقَضَوْا عَلَى الدَّوْلَةِ النَّاشِئَةِ وَتَخَلَّصُوا

مِنْهَا، وَهَذِهِ طِبَاعُ النُّفُوسِ المَرِيضَةِ.

غَيْرَ أَنَّ أَصْحَابَ هَذِهِ النُّفُوسِ لاَ يَمْلِكُونَ الشَّجَاعَةَ أَبَدَاً، وَتَنْقُصُهُمُ الحِكْمَةُ، وَعِنْدَهُمْ مِنَ الخِسَّةِ والدَّنَاءَةِ الكَثِيرُ، وَلَدَيْهِمْ مِنَ الجُبْنِ والحَقَارَةِ مَا لاَ يُوْصَفُ، وَبِهَذِهِ الطِّبَاعِ يُرِيدُونَ الحُصُولَ عَلَى المَغْنَمِ وَيَظُنُّونَ فِي ذَلِكَ شَجَاعَةً وَذَكَاءً. وَمِنْ هَؤُلاَءِ عَضَلٌ وَالقَارَةُ.

قَدِمَتْ جَمَاعَةٌ مِنْ هَؤُلاَءِ إِلَى المَدِينَةِ وَأَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ فِينَا إِسْلاَمَاً، فَابْعَثْ مَعَنَا نَفَرَاً مِنْ أَصْحَابِكَ يُفَقِّهُونَنَا فِي الدِّينِ، وَيُقْرِئُونَنَا القُرْآنَ، وَيُعَلِّمُونَنَا شَرَائِعَ الإِسْلاَمِ. إِنَّهُمْ لَمْ يَسْتَطِيعُوا مُوَاجَهَةَ المُسْلِمِينَ فَرَغِبُوا أَنْ يَنْفَرِدُوا بِنَفَرٍ مِنْهُمْ، وَلَمْ يَجْرُؤُوا عَلَى لِقَاءِ عَدَدٍ مِنَ المُسْلِمِينَ مُنْفَرِدِينَ فِي مَكَانٍ فَلَجَؤُوا إِلَى المُرَاوَغَةِ والحِيلَةِ.

بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَعَ هَذَا الرَّهْطِ مِنَ الكَذَّابِينَ المُرَاوِغِينَ نَفَراً سِتَّةً مِنْ أَصْحَابِهِ وَهُمْ: عَاصِمُ بنُ ثَابِتِ بنِ أَبِي الأَقْلَحِ، وَمَرْثَدُ بنُ أَبِي مَرْثَدٍ الغَنَوِيُّ، وَخَالِدُ بنُ البُكَيْرِ اللَّيْثِيُّ، وَخُبَيْبُ بنُ عَدِيٍّ، وَزَيْدُ بنُ الدَّثِنَّةِ، وَعَبْدُ اللَّهِ بنُ طَارِقٍ. وَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ،

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلَى القَوْمِ عَاصِمُ بنُ ثَابِتٍ، وَقِيلَ: مَرْثَدُ بنُ أَبِي مَرْثَدٍ.

وَانْطَلَقَ الرَّكْبُ، وَكَانَ الصَّحَابَةُ يَعْمَلُونَ عَلَى تَعْلِيمِ مَنْ مَعَهُمْ، غَيْرَ أَنَّ عُقُولَ أُولَئِكَ لَمْ تَكُنْ مَعَهُمْ إِذْ كَانُوا يُفَكِّرُونَ فِي حِيلَةٍ لِلتَّمَكُّنِ مِنَ الصَّحَابَةِ دُونَ مُوَاجَهَةٍ رَغْمَ كَثْرَتِهِمْ وَقِلَّةِ عَدَدِ القُرَّاءِ المُعَلِّمِينَ، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِالحِجَازِ بَيْنَ عُسْفَانَ وَمَكَّةَ عَلَى مَاءٍ لِهُذَيْلٍ يُقَالُ لَهُ «الرَّجِيعُ» عِنْدَ صُدُورِ «الهَدْأَةِ» غَدَرُوا بِهِمْ، وَلَمْ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ كُفْئاً لِمُوَاجَهَتِهِمْ، وَلاَ قُدْرَةً عَلَى مُقَابَلَتِهِم، فَاسْتَصْرَخُوا عَلَيْهِمْ هُذَيْلاً، وَاجْتَمَعَتْ هُذَيْلُ وَرَهْطُ عَضَلٍ وَالقَارَةِ وَحَمَلُوا السُّيُوفَ وَأَشْرَعُوا الرِّمَاحَ وَكَأَنَّهُمْ يَسِيرُونَ لِلِقَاءِ جَيْشٍ عَرَمْرَمٍ، فَلَمْ يَرُعِ الصَّحَابَةُ، وَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ، إِلاَّ الرِّجَالُ بِأَيْدِيهِمُ السُّيُوفُ وَالرِّمَاحُ قَدْ غَشُوهُمْ، فَأَسْرَعَ الصَّحَابَةُ إِلَى سُيُوفِهِمْ فَأَخَذُوهَا لِيُقَاتِلُوهُمْ.

وَيَقَعُ الخَوْفُ الشَّدِيدُ فِي نُفُوسِ المُعْتَدِينَ رَغْمَ كَثْرَتِهِمْ لِمَا يَعْلَمُوهُ مِنْ قُوَّةِ المُسْلِمِينَ وَشِدَّةِ بَأْسِهِمْ، وَتَضْحِيَتِهِمْ، وَحُبِّ الشَّهَادَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ غَيْرَ مُبَالِينَ بِكَثْرَةِ عَدَدٍ أَوْ مَضَاءِ سِلاَحٍ، فَقَالُوا لَهُمْ: إِنَّا وَاللَّهِ مَا نُرِيدُ قَتْلَكُمْ، وَلَكِنَّا نُرِيدُ أَنْ

نُصِيبَ بِكُمْ شَيْئاً مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، وَلَكُمْ عَهْدُ اللَّهِ وَمِيثَاقُهُ أَنْ لاَ نَقْتُلَكُمْ.

فَقَالَ عَاصِمُ بنُ ثَابِتٍ، وَمَرْثَدُ بنُ أَبِي مَرْثَدٍ، وَخَالِدُ بنُ البُكَيْرِ: وَاللَّهِ لاَ نَقْبَلُ مِنْ مُشْرِكٍ عَهْداً وَلاَ عَقْداً أَبَداً، وَقَالَ عَاصِمُ: إِنِّي نَذَرْتُ أَلاَّ يَمَسَّنِي مُشْرِكٌ أَبَداً وَلاَ أَمَسُّهُ، وَبَدَأَ الثَّلاَثَةُ يُقَاتِلُونَ، وَكَانَ عَاصِمُ يُقَاتِلُ وَيَرْتَجِزُ:

مَا عِلَّتِي وَأَنَا جَلْدٌ نَابِلُ[1]
وَالقَوْسُ فِيْهَا وَتَرٌ عَنَابِلُ[2]
تَزِلُّ عَنْ صَفْحَتِهَا المَعَابِلُ[3]
المَوْتُ حَقٌّ وَالحَيَاةُ بَاطِلُ
وَكُلُّ مَا حَمَّ[4] الإِلَهُ نَازِلُ
بِالمَرْءِ وَالمَرْءُ إِلَيْهِ آيِلُ[5]
إِنْ لَمْ أُقَاتِلْكُمْ فَأُمِّي هَابِلُ[6]

وَيَقُولُ:

---

(١) نابل: رام، صاحب نبل.
(٢) عنابل: شديد.
(٣) معابل: النصل العريض الطويل.
(٤) حمّ: قضى.
(٥) آيل: راجع.
(٦) هابل: ثكلى.

أَبُـو سُلَيْمَـانَ وَرِيشُ المُقْعَدِ[1]
وَضَالَـةٌ[2] مِثْـلُ الجَحِيمِ المُوقَدِ
إِذَا النَّوَاجِـي[3] افْتُرِشَـتْ[4] لَم أُرْعَدِ
وَمُجْنَـأٌ[5] مِنْ جِلْـدِ ثَوْرٍ أَجْرَدِ
وَمُؤْمِنٌ بِمَا عَلَى مُحَـمَّدِ

وَيَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

أَبُـو سُلَيْمَـانَ وَمِثْلِـي رَامَى
وَكَانَ قَوْمِـي مَعْشَـراً كِرَامَا
أُصِيبَ مَرْثَدٌ وَخَالِدٌ قِيَامَا

وَبَقِيَ عَاصِمٌ يَرْمِيهِمْ حَتَّى فَنِيَتْ نَبْلُهُ، ثُمَّ طَاعَنَهُمْ بِرُمْحِهِ حَتَّى انْكَسَرَ رُمْحُهُ، وَبَقِيَ السَّيْفُ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي حَمَيْتُ دِينَكَ أَوَّلِ النَّهَارِ فَاحْمِ لِي لَحْمِي آخِرَهُ، وَكَانَ العَدُوُّ يُجَرِّدُونَ مَنْ قَتَلُوا مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَدْ قُتِلَ مَرْثَدٌ، وَخَالِدٌ قَبْلَهُ. وَهَجَمَ عَاصِمٌ عَلَيْهِمْ بالسَّيْفِ فَقَتَلَ رَجُلاً مِنْهُمْ وَجَرَحَ اثْنَيْنِ ،

---

(١) المقعد: رجل كان يصنع النبل (يريش النبل).
(٢) ضالة: الشجر الذي تصنع منه السهام.
(٣) النواجي: الإبل السريعة.
(٤) افترشت: عمرت.
(٥) المجنأ: الترس الذي لا حديد له.

ثُمَّ شَرَعُوا فِيهِ الأَسِنَّةَ حَتَّى قَتَلُوهُ.

أَرَادَتْ هُذَيْلُ أَخْذَ رَأْسِهِ لِيَبِيعُوهُ مِنْ سُلاَفَةَ بِنْتِ سَعْدِ بنِ شُهَيْدٍ، وَكَانَتْ قَدْ نَذَرَتْ حِينَ أَصَابَ ابْنَيْهَا (مُسَافِع والجُلاَس) يَوْمَ أُحُدٍ: لَئِنْ قَدَرَتْ عَلَى رَأْسِ عَاصِمٍ لَتَشْرَبَنَّ فِي قِحْفِهِ الخَمْرَ، وَجَعَلَتْ مِائَةَ نَاقَةٍ لِمَنْ يَأْتِيهَا بِرَأْسِهِ. فَبَعَثَ اللَّهُ الدَّبْرَ فَمَنَعَتْهُم مِنْهُ. فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: دَعُوهُ حَتَّى يُمْسِيَ فَتَذْهَبَ عَنْهُ الدَّبْرُ فَنَأْخُذُهُ. فَبَعَثَ اللَّهُ سَيْلاً فَاحْتَمَلَ عَاصِماً، فَذَهَبَ بِهِ. وَقَدْ كَانَ عَاصِمُ قَدْ أَعْطَى اللَّهَ عَهْداً أَنْ لاَ يَمَسَّهُ مُشْرِكٌ، وَلاَ يَمَسُّ مُشْرِكاً أَبَداً، تَنَجُّساً؛ فَكَانَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَقُولُ، حِينَ بَلَغَهُ أَنَّ الدَّبْرَ مَنَعَتْهُ: يَحْفَظُ اللَّهُ العَبْدَ المُؤْمِنَ، كَانَ عَاصِمُ نَذَرَ أَنْ لاَ يَمَسَّهُ مُشْرِكٌ، وَلاَ يَمَسُّ مُشْرِكاً أَبَداً فِي حَيَاتِهِ، فَمَنَعَهُ اللَّهُ بَعْدَ وَفَاتِهِ، كَمَا امْتَنَعَ مِنْهُ فِي حَيَاتِهِ.

وَأَمَّا زَيْدُ بنُ الدَّثِنَّةَ، وَخُبَيْبُ بنُ عَدِيٍّ، وَعَبْدُ اللَّهِ بنُ طَارِقٍ، فَلاَنُوا وَرَقُّوا وَرَغِبُوا فِي الحَيَاةِ عَلَى مَا يَبْدُوا ـ واللَّهُ أَعْلَمُ ـ فَأَعْطَوْا أَيْدِيَهُمْ إِلَى عَدُوِّهِمْ فَأَسَرُوهُمْ، ثُمَّ خَرَجُوا بِهِمْ إِلَى مَكَّةَ لِيَبِيعُوهُمْ بِهَا، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِالظَّهْرَانِ[1] انْتَزَعَ

(١) الظهران أو مرّ الظهران عند الحديبية، أو الشميسي اليوم، ويقع عندما يمرّ =

عَبْدُ اللَّهِ بنُ طَارِقٍ يَدَهُ مِنَ القِرانِ ثُمَّ أَخذَ سَيْفَهُ، فَتَنَحَّى عَنْهُ القَوْمُ، فَرَمُوهُ بِالحِجَارَةِ حَتَّى قَتَلُوهُ، وَقَبَرُوهُ هُنَاكَ. وَأَمَّا خُبَيْبٌ وَزَيْدٌ فَقَدْ بِيعَا وَقُتِلاَ فِي التَّنْعِيمِ[1] كُلٌّ مِنْهُمَا وَحْدَهُ فِي فَاجِعَةٍ رَهِيبَةٍ فِيهَا حِكَمٌ بَلِيغَةٌ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جَمِيعاً.

وَكَانَ لِهَذِهِ الحَادِثَةِ أَثَرٌ سَيْءٌ لَدَى المُسْلِمِينَ مِنْ هُذَيْلٍ، وَعَضَلَ والقَارَةِ، لِمَا أَصَابَ إِخْوَانَهُمْ، وَقَدْ هَجَا الشُّعَرَاءُ المُسْلِمُونَ هَذِهِ الأَقْوَامَ، وَرَثَوْا الَّذِينَ ذَهَبُوا ضَحِيَّتَهَا، وَقَدْ أَكْثَرَ حَسَّانُ بنُ ثَابِتٍ مِنَ النَّظْمِ فِيهَا.

= وادي فاطمة من غرب مكة، وهو عند حدود الحرم من جهة الغرب.

(١) التنعيم: بعد حدود الحرم من جهة الشمال، بين مكة وسرف، ويبعد عن مكة ما يقرب من فرسخين.

بُنَاة دَوْلَةِ الإسلام

٣٧



إنَّ مِنَ الفِطْرَةِ الَّتِي فطَرَ اللَّهُ النَّـاسَ عَلَيْهَا حُبُّ الأَبْنَـاءِ، فَهُمْ قُرَّةُ العَيْنِ ، وَمِنْ زِينَـةِ الحَيَاةِ الـدُّنْيَا، يَسْعَـدُ الإِنْسَـانُ بِأَوْلاَدِهِ، وَيُسَرُّ عِنْدَمَا يرْزُقُهُ اللَّهُ وَاحِدَاً مِنْهُمْ لِيَكُونُوا سَلْوَتَـهُ وَهَنَاءَهُ فِي صِغَرِهِمْ وَعَوْنَاً لَهُ فِي شَبَابِهِمْ، وَخَاصَّةً أَنَّ السِّـنَّ تَكُونُ قَدْ تَقَدَّمَتْ بِهِ وَبِحَاجَةٍ هُوَ وَزَوْجُهُ إِلَى مَنْ يُسَاعِدُهُ فِي أُمُورِ الحَيَاةِ، فَيَجِدُ عِنْدَهَا أَبْنَاءَهُ بِجَانِبِهِ. وَإِذَا مَا مَاتَ الأَبُ لَمْ يَنْقَطِعْ عَمَلُهُ مِنْ تَرْبِيَتِهِ لِوَلَدِهِ وَتَعَهُّدِهِ لَهُ إِذْ يَدْعُو الوَلَدَ لِوَالِدِهِ وَيَنَالُ الأَبُ أَجْرَ دُعَاءِ ابْنِهِ يَقُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاَثَةٍ: صَدَقَـةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُـو لَهُ»(١). وَمِـنَ النَّـاحِيَةِ الثَّانِيَةِ فَإِنَّ الوَلَدَ الَّذِي تَعِبَ عَلَيْهِ وَالِدُهُ فِي صِغَرِهِ، وَتَعَهَّدَهُ فِي نَشْأَتِهِ، وَلَقِيَ مِنْهُ العَطْفَ والحَنَانَ والمَحَبَّةَ والإِحْسَانَ، فَهُوَ

---

(١) أخرجه مسلم رقـم (١٦٣١) في الـوصية، باب ما يلحـق الإنسـان من الثواب بعد وفاته.

يُقَابِلُهُ كَذَلِكَ بِالتَّقْدِيرِ والاحْتِرَامِ ، والحُبِّ والطَّاعَةِ مَدَى الحَيَاةِ، والخِدْمَةِ والمُسَاعَدَةِ وَخَاصَّةً عِنْدَمَا يُصْبِحُ قَادِراً، وَيكُونُ الوَالِدُ بِحَاجَةٍ إلَى ذَلِكَ. فَرَدُّ الجَمِيلِ وَمَا جُبِلَ عَلَيْهِ البَشَرُ مِنْ حَنَانِ الأُبُوَّةِ وَطَاعَةِ الأَبْنَاءِ، قَدْ أَمَرَ اللَّهُ الأَوْلاَدَ بِالالْتِزَامِ بِهَذَا، إذْ هُمُ الأَوْلَى بِهَا مَا دَامَ قَدْ أُسْدِيَ لَهُمُ المَعْرُوفُ، ثُمَّ يَكُونُ لَهُمْ أَبْنَاءُ مُلْزَمِينَ بِمَا أُلْزِمُوا هُمْ بِهِ تِجَاهَ آبَائِهِمْ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إيَّاهُ وَبِالوَالِدَيْنِ إحْسَاناً، إمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً. وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾[1]. وَيَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إلاَّ اللَّهَ وَبِالوَالِدَيْنِ إحْسَاناً. . .﴾[2]. وَيَقُولُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وبِالوَالِدَيْنِ إحْسَاناً. . .﴾[3]. وَيَقُولُ سُبْحَانَهُ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالوَالِدَينِ إحْسَاناً﴾[4]. وَيَقُولُ: ﴿وَوَصَّيْنَا الإنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً، وَإِنْ جَاهَدَاكَ

---

(١) سورة الإسراء: ٢٣ ـ ٢٤.
(٢) سورة البقرة: ٨٣.
(٣) سورة النساء: ٣٦.
(٤) سورة الأنعام: ١٥١.

لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا، إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[١]. وَيَقُولُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ. وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا، وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ، ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٢]. وَيَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً، حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً. . .﴾[٣]. وَيَقُولُ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾[٤]. وَيَقُولُ: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَاراً﴾[٥].

وَلَكِنَّ عَاطِفَةَ الأُبُوَّةِ تَزُولُ، وَالْحَنَانُ يَنْعَدِمُ، وَالْمَحَبَّةُ تَضْمُرُ فِيمَا إِذَا نَشَأَ الْوَلَدُ عَلَى مَا يُخَالِفُ أَمْرَ اللَّهِ أَوْ عَلَى عَقِيدَةٍ فَاسِدَةٍ، وَيُعْطِينَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ أُنْمُوذَجاً فِي وَلَدِ نُوحٍ عَلَيْهِ

(١) سورة العنكبوت: ٨.
(٢) سورة لقمان: ١٤ ـ ١٥.
(٣) سورة الأحقاف: ١٥.
(٤) سورة إبراهيم: ٤١.
(٥) سورة نوح: ٢٨.

السَّلاَمُ الَّذِي لَمْ يَسِرْ عَلَى نَهْجِ أَبِيهِ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِمَا آمَنَ بِهِ أَبُوهُ، وَعِنْدَمَا غَلَبَتِ العَاطِفَةُ عَلَى نُوحٍ، وَدَعَا رَبَّهُ لِيُنْجِيَ ابْنَهُ جَاءَهُ الرَّدُّ: إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالجِبَالِ وَنَادَى نُوحُ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلاَ تَكُنْ مَعَ الكَافِرِينَ. قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الماءِ، قَالَ لاَ عَاصِمَ اليَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ، وَحَالَ بَيْنَهُمَا المَوْجُ فَكَانَ مِنَ المُغْرَقِينَ. وَقِيلَ يَا أَرْضُ ٱبْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ المَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى الجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. وَنَادَى نُوحُ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الحَاكِمِينَ. قَالَ: يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ، فَلاَ تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ، إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ﴾[1].

وَتَنْكَمِشُ المَودَّةُ وَتَخِفُّ الطَّاعَةُ إِذَا كَانَ الأَبُ فِي مَعْصِيَةٍ أَوْ عَلَى شِرْكٍ وَإِنْ كَانَتِ الطَّاعَةُ وَاجِبَةً وَلَكِنْ لاَ تَصِلُ إِلَى دَرَجَةِ المُوَافَقَةِ عَلَى المَعْصِيَةِ أَوِ الشِّرْكِ ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا﴾، وَيَضْرِبُ اللَّهُ لَنَا مَثَلاً فِي

---

(١) سورة هود: ٤٢ ـ ٤٦.

إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ الَّذِي كَانَ يُهِمُّهُ كُفْرُ أَبِيهِ فَيَحْرَصُ عَلَى هِدَايَتِهِ، وَيَدْعُوهُ فَيُعَانِدُه، وَيُكَرِّرُ الدَّعْوَةَ لَهُ فَيُصِرُّ عَلَى الكُفْرِ، وَيَعِدُهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُ فَلَمْ يُجْدِهِ شَيْئاً ﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَت لِمَ تَعْبُدُ مَالاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيئاً. يَا أَبَت إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ العِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً. يَا أَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ، إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً. يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً. قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ، وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً. قَالَ سَلاَمٌ عَلَيْكَ، سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّه كانَ بي حَفِيّاً. وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيّاً﴾[1]. كَانَ إبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ حَزِيناً عَلَى أَبِيهِ خَائِفاً عَلَيْهِ مُتَأَلِّماً مِنْ كُفْرِهِ مُتَضَايِقاً مِنْ شِرْكِهِ يَخْشَى عَلَيهِ مِنَ النَّارِ لِحُبِّهِ لَهُ، وَيَخَافُ عَلَيْهِ مِنَ العَذَابِ عَطْفاً عَلَيْهِ. وَلَمْ يُطِعْهُ فِي عِبَادَتِهِ لِلأَصْنَامِ وَلَمْ يُوَافِقْهُ عَلَى تَقْدِيرِهَا حَتَّى هَجَرَهُ واعْتَزَلَ قَوْمَهُ، وَقَلْبُهُ يَكَادُ يَتَفَطَّرُ عَلَى مَا عَلَيْهِ أَبُوهُ.

وَيَضْرِبُ التَّارِيخُ لَنَا مَثَلاً آخَرَ فِي عَبْدِ اللَّهِ بنِ

---

(١) سورة مريم: ٤٢ ـ ٤٨.

عَبْدِ اللَّهِ بن ِ أُبَيٍّ بن ِ سَلُولٍ. كَانَ أَبُوهُ عَبْدُ اللَّهِ بَنُ أُبيٍّ سَيِّدِ الخَـزْرَجِ فِي آخِـرِ جَاهِلِيَّتِهِـمْ، وَبَعْـدَ يَوْمِ بُعَـاثٍ الَّذِي وَقَـعَ بَيْنَ الخَـزْرَجِ وَالأَوْسِ، وَآنْتَصَـرَتْ فِيهِ الأَوْسُ وَكَادَتْ تَقْضِـي عَلَـى الخَـزْرَجِ، وَتَـمَّ الصُّلْـحُ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ وَعَمِلَ أَهْلُ المَدِينَـةِ عَلَـى إِنْهَاءِ الحَـرْبِ بَيْنَ أَبْنَائِهَـا وَاتَّفَقُوا عَلَـى تَتْـوِيجِ عَبْدِ اللَّهِ بْـنِ أُبَـيّ مَلِـكاً عَلَـى المَدِينَـةِ فَهُوَ زَعِيمُ الخَزْرَجِ أَكْثَرُ العَرَبِ الَّذِينَ يُقِيمُونَ فِي المَدِينَةِ، وَقَدْ بَدَؤُوا يُهَيِّئُـونَ لَهُ التَّـاجَ وَيَنْظِمُـونَ الخَـرَزَ لَهُ، غَيْرَ أَنَّـهُ قَدْ تَمَّـتْ بَيْعَـةُ العَقَبَـةِ الأُولَى وَتَلَتْهَـا الثَّانِيَةُ، وَيَمَّمَ المُسْلِمُونَ فِي مَكَّةَ وَجْهَهُمْ مُهَاجِرِينَ إِلَى المَدِينَةِ، وَقَدْ فَشَا الإِسْلاَمُ فِيهَا، وَهَاجَـرَ رَسُـولُ اللَّـهِ، صَلَّـى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالْتَفَّ الأَنْصَـارُ حَوْلَـهُ، وَالتَقَـى المُسْلِمُـونَ عَلَيْهِ، وَاتَّجَهَتِ الأَنْظَارُ نَحْوَهُ، وَنُسِـيَ عَبْدُ اللَّهِ بْـنُ أُبَـيٍّ، وَنُسِـيَ مُلْكُهُ، وَضَاعَ تَاجُـهُ، فَحَقَـدَ عَلَـى الإِسْلاَمِ وَنَبِيِّهِ، وَعَلَـى المُسْلِمِينَ جَمِيعاً، وَخَاصَةً الأَنْصَارَ الَّـذِينَ تَرَكُوهُ، فَيَعُدُّهُـمْ أَنَّهُمْ قَدْ خَذَلُوهُ، وَنَقَضُوا مَا سَبَقَ لَهُمْ أَنْ أَبْرَمُوهُ. وَأَسْلَمَ ابْنُهُ عَبْـدُ اللَّـهِ، وَحَسُنَ إِسْلاَمُهُ، وَتَـرَكَ أَبَـاهُ، وَسَـارَ فِي الصَّفِ رَغْمِ أَنَّهُ كَانَ أَكْثَرَ رِجَالِ المَدِينَةِ بَرّاً بِوَالِـدِهِ، وَاحْتَفَـظَ لأَبِيهِ بِالطَّاعَةِ مِنْ غَيْرِ مَعْصِيَةٍ وَبِالاحْتِرَامِ وَالتَّقْدِيرِ، وَالرَّغْبَةِ لَهُ بِالهِدَايَةِ.

وَأَمَّا (سَلُولُ) فَهُوَ اسْمُ أُمِّ أَبِيهِ أُبَيِّ بن مَالِكٍ، وَهِيَ مِنْ خُزَاعَةَ، وَقَدْ نُسِبَ إِلَيْهَا، وَأَصْبَحَ يُعْرَفُ باسْمِ (عَبْدِ اللَّهِ بنِ أُبَيِّ بنِ سَلُولٍ).

وَأَمَّا أُمُّ عَبْدِ اللَّهِ الابْنِ فَهِيَ خَوْلَةُ بِنْتُ المُنْذِرِ بنِ حَرَامٍ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ مِنَ الخَزْرَجِ فَهِيَ خَزْرَجِيَّةٌ مِثْلُهُ.

كَانَ اسْمُ عَبْدُ اللَّهِ فِي الجَاهِلِيَّةِ (الحُبَابَ) وَبِهِ يُكَنَّى أَبُوهُ، فَلَمَّا أَسْلَمَ سَمَّاهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَبْدَ اللَّهِ فَأَصْبَحَ اسْمُهُ (عَبْدَ اللَّهِ بنَ عَبْدِ اللَّهِ بنِ أُبَيٍّ).

كَانَ لِعَبْدِ اللَّهِ الابْنِ عَدَدٌ مِنَ الأَوْلاَدِ هُمْ: عُبَادَةُ، وَجُلَيْحَةُ، وَخَيْثَمَةُ، وَخوَلِيٌّ، وَأُمَامَةُ، وَلَمْ تُسْعِفْنَا المَصَادِرُ بِمَعْرِفَةِ أُمّهَاتِهِمْ، وَيَبْدُو أَنَّهُ قَدْ أَسلَمَ وَعُمْرُهُ أَكْثَرُ مِنْ ثَلاَثِينَ، وَأَنَّهَ كَانَ مُتَزَوِّجاً، وَأَوْلاَدُهُ قَدْ وُلِدُوا جَمِيعاً بِاسْتِثْنَاءِ أُمَامَةَ قَبْلَ إِسْلاَمِهِ.

مَعْرَكَةُ بَدْرٍ

وَقَامَتْ دَوْلَةُ الإِسْلاَمِ فِي المَدِينَةِ، وَأَخَذَتْ تُمَارِسُ صَلاَحِيَّاتِهَا، وَجَاءَتْ قُرَيْشٌ لِمُهَاجَمَةِ المَدِينَةِ والقَضَاءِ عَلَى الدَّوْلَةِ فِيْهَا - حَسْبَ زَعْمِهَا - لأَنَّ المُسْلِمِينَ قَدْ خَرَجُوا لِلتَعَرُّضِ لِقَافِلَةِ أَبِي سُفْيَانَ فَكَانَ أَنِ التَقَى المُسْلِمُونَ

الخَارِجُونَ لِلْقَافِلَةِ مَعَ جَيْشِ قُرَيْشٍ القَادِمِ لِلْقِتَالِ، وَكَانَتْ مَعْرَكَةُ بَدْرٍ الَّتِي أَعزَّ اللَّهُ فِيهَا عِبَادَهُ المُسْلِمِينَ وَأَذَلَّ المُشْرِكِينَ وَأَخْزَاهُمْ. وَشَهِدَ عَبْدُ اللَّهِ بنُ عَبْدِ اللَّهِ هَذِهِ المَعْرَكَةَ بِجَانِبِ المُسْلِمِينَ، أَمَّا أَبُوهُ فَقَدْ بَقِيَ عَلَى شِرْكِهِ وَحِقْدِهِ. وَلَكِنْ عِنْدَمَا رَأَى قَوْمَهُ قَدْ أَبَوْا إِلاَّ الإِسْلاَمَ، وَقَدِ انْتَصَرُوا فِي بَدْرٍ دَخَلَ فِيهِ كَارِهاً مُصِرّاً عَلَى النِّفَاقِ وَالضِّغْنِ. وَكَذَلِكَ كَانَ ابْنُ خَالَتِهِ أَبُو عَامِرٍ عَبْدُ عَمْرِ بنِ صَيْفِيٍّ بنِ النُّعْمَانِ مِنَ الأَوْسِ، وَكَانَ قَدْ تَأَلَّهَ فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَلَبِسَ المُسُوحَ وَتَرَهَّبَ لِذَا عُرِفَ بِالرَّاهِبِ، وَيَدَّعِي أَنَّهُ عَلَى الحَنِيفِيَّةِ، وَيَذْكُرُ النَّبِيَّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيَعِدُ النَّاسَ بِظُهُورِهِ، وَيُعَدُّ أَبُو عَامِرٍ مِنْ أَشْرَافِ الأَوْسِ. فَلَمَّا جَاءَ الإِسْلاَمُ وَهَاجَرَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَبَى أَبُو عَامِرٍ إِلاَّ الكُفْرَ ومُفَارَقَةَ قَوْمِهِ حِينَ اجْتَمَعُوا عَلَى الإِسْلاَمِ، وَمَا ذَلِكَ إِلاَّ حِقْداً وَغَيْرَةً وَحَسَداً، وَسَارَ مَعَ بِضْعَةِ عَشَرَ رَجُلاً إِلَى مَكَّةَ وَحَضَرَ أُحُداً مَعَ المُشْرِكِينَ، وَأَقَامَ بِمَكَّةَ، فَلَمَّا فَتَحَهَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، غَادَرَهَا أَبُو عَامِرٍ إِلَى الطَّائِفِ، فَلَمَّا أَسْلَمَ أَهْلُ الطَّائِفِ لَحِقَ بِالشَّامِ. فَمَاتَ بِهَا طَرِيداً غَرِيباً وَحِيداً. وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عِنْدَمَا ذُكِرَ أَمَامَهُ وَوُصِفَ بِالرَّاهِبِ: «لاَ تَقُولُوا: الرَّاهِبَ، وَلَكِنْ قُولُوا: الفَاسِقَ».

وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ الابْنُ يُهِمُّهُ شِرْكُ أَبِيهِ قَبْلَ بَدْرٍ، فَلَمَّا أَظْهَرَ ابنُ أُبَيٍّ الإِسْلاَمَ ظَنَّ الوَلَدُ بِأَبِيهِ خَيْراً وَاسْتَبْشَرَ، وَلَكِنْ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ ظَهَرَتْ لَهُ الحَقِيقَةُ وَعَرَفَ أَنَّ أَبَاهُ مُنَافِقٌ فَأَغَمَّهُ الأَمْرُ، وَثَقُلَ عَلَيْهِ رُؤْيَةُ المُنَافِقِينَ يُلاَزِمُونَ أَبَاهُ وَيُحَاوِلُونَ حَبْكَ المُؤَامَرَاتِ وَدَسَّ الدَّسَائِسَ. وَبَقِيَ الابْنُ يَدْعُو لأَبِيهِ وَيَتَمَنَّى لَهُ الهِدَايَةَ، وَيُبْدِي لَهُ المَحَبَّةَ والتَّقْدِيرَ عَسَى أَنْ يَهْدِيَهُ اللَّهُ وَيُدْخِلَ الإِيْمَانَ إِلَى قَلْبِهِ.

فِي أُحُدٍ

وَجَاءَ المُشْرِكُونَ إِلَى أُحُدٍ، وَكَانَ رَأْيُ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الاعْتِصَامَ فِي المَدِينَةِ، وَمُقَاتَلَةِ الأَعْدَاءِ مِنْ دَاخِلِهَا، وَكَذَا كَانَ رَأْيُ عَبْدِ اللَّهِ بنِ أُبَيٍّ غَيْرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، رَأَى أَنَّ بَعْضَ المُسْلِمِينَ يَرْغَبُونَ بِالخُرُوجِ لِمُلاَقَاةِ العَدُوِّ، وَأَنَّ الحَمَاسَةَ قَوِيَّةٌ عِنْدَهُمْ فَقَرَّرَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَكِنَّ ابْنَ أُبَيٍّ اعْتَرَضَ عَلَى ذَلِكَ وَانْتَقَدَ، وَأَبْدَى مُخَالَفَتَهُ وَعَرَّضَ، ثُمَّ امْتَثَلَ وَخَرَجَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَفَرِحَ ابْنُهُ، وَاسْتَبْشَرَ، وَظَنَّ خَيْراً غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ خَابَ أَمَلُهُ فَرَجَعَ وَالِدُهُ بِثُلْثِ الجَيْشِ مِنْ مُنْتَصَفِ الطَّرِيقِ مُظْهِراً

سَخَطَهُ، وَمُبَيِّناً نَقْدَهُ، وَمُخَالَفَتَهُ لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَلَكِنَّ ابْنَهُ عَبْدَ اللَّهِ قَدْ تَابَعَ السَّيْرَ مَعَ رَسُولِهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَاتَلَ، وَأَبْلَى، وَأَحْسَنَ. وَلَمْ يُفَارِقِ القَلَقُ نَفْسَهُ جَزَعاً عَلَى أَبِيهِ، وَخَوْفاً مِنْ أَنْ تَكُونَ النَّارُ مَصِيراً لَهُ لِمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ النِّفَاقِ.

فِي غَزْوَةِ بَنِي المُصْطَلِقِ

وَقَفَ ابنُ أُبَيٍّ مَعَ يَهُودَ بَنِي قَيْنُقَاعَ، وَشَدَّ فِي أَزْرِ يَهُودِ بَنِي النَّضِيرِ، وَوَعَدَهُمْ بِالنَّصْرِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ بَقِيَ ابْنُهُ يَدْعُو لَهُ وَيَتَمَنَّى لَهُ الهِدَايَةَ وَالرَّشَادَ، وَيُبْدِي لَهُ الطَّاعَةَ وَلَكِنَّهُ فِي الوَقْتِ نَفْسِهِ لَمْ يَتَخَلَّفِ الابْنُ عَنْ غَزْوَةٍ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَدْ شَهِدَ مَعَهُ المَشَاهِدَ كُلَّهَا، وَكَانَ حَسَنَ الإِسْلَامِ، صَادِقَ النِّيَّةِ، وَبَارّاً بِوَالِدِه رَغْمَ مَعَاصِيهِ وَنِفَاقِهِ.

وَبَلَغَ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّ بَنِي المُصْطَلِقِ مِنْ خُزَاعَةَ يَجْمَعُونَ لَهُ بِإِمْرَةِ كَبِيرِهِمْ الحَارِثِ بنِ أَبِي ضِرَارٍ فَسَارَ إِلَيْهِمْ فِي شَعْبَانَ مِنَ السَّنَةِ السَّادِسَةِ لِلْهِجْرَةِ، فَلَقِيَهُمْ عَلَى مَاءٍ لَهُمْ يُقَالُ لَهُ «المُرَيْسِيعُ»، فَانْتَصَرَ عَلَيْهِمْ، وَقَتَلَ مِنْهُمْ مَنْ قَتَلَ، وَنَفَّلَ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ، أَبْنَاءَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ. وَكَانَ ابنُ أُبَيٍّ قَدْ سَارَ مَعَ المُسْلِمِينَ فِي هَذِهِ الغَزْوَةِ، فَاسْتَبْشَرَ وَلَدُهُ خَيْراً، وَلَكِنْ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ حَدَثَ مَا حَدَثَ فَظَهَرَ النِّفَاقُ.

فَبَيْنَمَا كَانَ المُسْلِمُونَ عَلَى مَاءِ «المُرَيْسِيعِ» اخْتَلَفَ وَازْدَحَمَ عَلَى المَاءِ أَجِيرٌ لِعُمَرَ بنِ الخَطَّابِ يُدْعَى «جَهْجَاه» وَ «سِنَانُ بْنُ وَبَرٍ الجُهَنِيُّ» حَلِيفُ الأَنْصَارِ مِنْ الخَزْرَجِ فَصَرَخَ «جَهْجَاهُ» يَا مَعْشَرَ المُهَاجِرِينَ، وَصَرَخَ «سِنَانُ» يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، فَغَضِبَ ابْنُ أُبَيٍّ، وَقَالَ لِرَهْطٍ عِنْدَهُ مِنْ قَوْمِهِ فِيهِمْ «زَيْدُ بنُ أَرْقَمَ» وَهُوَ غُلَامٌ حَدَثٌ: أَوَقَدْ فَعَلُوهَا، قَدْ نَافَرُونَا وَكَاثَرُونَا فِي بِلَادِنَا، وَاللَّهِ مَا أَعُدُّنَا وَجَلَابِيبَ[1] قُرَيْشٍ إِلاَّ كَمَا قَالَ الأَوَّلُ: «سَمِّنْ كَلْبَكَ يَأْكُلْكَ!» أَمَا وَاللَّهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ. ثُمَّ اتَّجَهَ إِلَى مَنْ عِنْدَهُ وَقَالَ: هَذَا مَا فَعَلْتُمْ بِأَنْفُسِكُمْ، أَحْلَلْتُمُوهُمْ بِلَادَكُمْ، وَقَاسَمْتُمُوهُمْ أَمْوَالَكُمْ، أَمَا وَاللَّهِ لَوْ أَمْسَكْتُمْ عَنْهُمْ مَا بِأَيْدِيكُمْ لَتَحَوَّلُوا إِلَى غَيْرِ دَارِكُمْ. فَمَشَى زَيْدُ بنُ أَرْقَمَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَوَجَدَ عِنْدَهُ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ، فَأَخْبَرَ الرَّسُولَ الخَبَرَ. فَقَالَ عُمَرُ: مُرْ عَبَّادَ بنَ بِشْرٍ فَلْيَقْتُلْهُ؛

---

(١) جلابيب: لقب أطلقته قريش على من أسلم منها، نسبةً إلى الأزر الغليظة التي يلتحفون بها.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَكَيْفَ يَا عُمَرُ إِذَا تَحَدَّثَ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّداً يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ! لا وَلَكِنْ أَذِّنْ بِالرَّحِيلِ، وَذَلِكَ فِي سَاعَةٍ لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَرْتَحِلُ فِيهَا، فَارْتَحَلَ النَّاسُ[1].

وَجَاءَ عَبْدُ اللَّهِ بنُ أُبَيٍّ بن سَلُولٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حِينَ بَلَغَهُ أَنَّ زَيْدَ بنَ أَرْقَمَ قَد خَبَّرَهُ بِمَا سَمِعَ مِنْهُ، وَحَلَفَ بِاللَّهِ: مَا قُلْتُ مَا قِيلَ لَكَ، وَلاَ تَكَلَّمْتُ بِهِ، وَقَالَ بَعْضُ الحُضُورِ لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَعَلَّ الغُلاَمَ أَوْهَمَ فِي حَدِيثِهِ، لَعَلَّهُ لَمْ يَسْتَوْعِبْ مَا قِيلَ تَمَاماً، وَذَلِكَ حِرْصاً عَلَى ابن أُبيٍّ وَذَلِكَ لِشَرَفِهِ فِي قَوْمِهِ.

وَاسْتَعْلَى عَبْدُ اللَّهِ بنُ عَبْدِ اللَّهِ بِإِيمَانِهِ، وَتَحَرَّكَ فِي نَفْسِهِ حُبُّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَأَلْقَى بِعَاطِفَةِ البُنُوَّةِ، وَمَحَبَّةِ الأَبِ، وَاحْتِرَامِ الأَبِ، وَطَاعَةِ الأَبِ وَسَارَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّكَ تُرِيدُ قَتْلَ عَبْدِ اللَّهِ بن أُبيٍّ «لَمْ يَقُلْ أَبِي أَوْ وَالِدِي وَإِنَّمَا سَمَّاهُ بِاسْمِهِ حَتَّى لاَ يَكُونَ هُنَاكَ أَيُّ أَثَرٍ لِلأُبُوَّةِ وَمَا يَرْتَبِطُ بِهَا» فِيمَا

---

(١) لم تكن قضية أجيرين تستحق هذه الثورة والغضب ولكن النفاق تحرّك فأثار.

بَلَغَكَ عَنْهُ، فَإِنْ كُنْتَ لاَ بُدَّ فَاعِلاً فَمُرْنِي بِهِ، فَأَنَا أَحْمِلُ رَأْسَهُ إِلَيْكَ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمَتِ الخَزْرَجُ مَا كَانَ لَهَا مِنْ رَجُلٍ أَبَرَّ بِوَالِدِهِ مِنِّي، وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ تَأْمُرَ بِهِ غَيْرِي فَيَقْتُلَهُ، فَلاَ تَدَعُنِي نَفْسِي أَنْظُرُ إِلَى قَاتِلِ عَبْدِ اللَّهِ بن أُبَيٍّ يَمْشِي فِي النَّاسِ، فَأَقْتُلَهُ، فَأَقْتُلَ رَجُلاً مُؤْمِناً بِكَافِرٍ فَأَدْخُلُ النَّارَ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بَلْ نَتَرَفَّقُ بِهِ، وَنُحْسِنُ صُحْبَتَهُ مَا بَقِيَ مَعَنَا.

وَشَعَرَ ابنُ أُبَيٍّ بالضِّعَةِ بَعْدَ ذَلِكَ وَخَاصَّةً أَنَّ قَوْمَهُ أَصْبَحُوا هُمُ الَّذِينَ يُعَنِّفُونَهُ وَيُعَاتِبُونَهُ فِيمَا إِذَا أَقْدَمَ عَلَى عَمَلٍ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الحَطِّ مِنْ شَأْنِ الإِسْلاَمِ أَوْ أَهْلِهِ مَهْمَا كَانَ قَلِيلاً، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِعُمَرَ بنِ الخَطَّابِ، حِينَ بَلَغَهُ ذَلِكَ مِنْ شَأْنِهِمْ؛ كَيْفَ تَرَى يَا عُمَرُ؛ أَمَا وَاللَّهِ لَوَ قَتَلْتُهُ يَوْمَ قُلْتَ لِي اقْتُلْهُ، لأُرْعِدَتْ لَهُ أُنُفٌ، لَوْ أَمَرْتُهَا اليَوْمَ بِقَتْلِهِ لَقَتَلَتْهُ؛ فَقَالَ عُمَرُ: قَدْ وَاللَّهِ عَلِمْتُ لأَمْرُ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْظَمَ بَرَكَةً مِنْ أَمْرِي.

وَلَمَّا انْتَهَى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَى وَادِي العَقِيقِ فِي طَرِيقِ العَوْدَةِ إِلَى المَدِينَةِ شَعَرَ عَبْدُ اللَّهِ بنُ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ نَفْسَهُ لَمْ تَرْتَحْ، وَأَنَّهُ لَمْ يُؤَدِّ مَا كَانَ عَلَيْهِ، فَإِنَّ مَا

عَلَيْهِ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ أَعَزُّ بِكَثِيرٍ مِنْ مَوَدَّةِ الأَبِ أَوْ أَيٍّ وَشِيجَةٍ مِنْ وَشَائِجِ القُرْبَى الأُخْرَى وَمِنْ أَيَّةِ صِلَةٍ مِنْ صِلاَتِ الدُّنْيَا، يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ باللَّهِ واليَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ، أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ، وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيْهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ، أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ، أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ المُفْلِحُونَ﴾[1].

فَتَقَدَّمَ عَبْدُ اللَّهِ بنُ عَبْدِ اللَّهِ، وَجَعَلَ يَتَصَفَّحُ الرَّكَائِبَ حَتَّى مَرَّ أَبُوهُ، فَأَنَاخَ بِهِ، ثُمَّ وَطِىءَ عَلَى يَدِ رَاحِلَتِهِ، فَقَالَ أَبُوهُ: مَا تُرِيدُ يَا لُكَعُ؟ فَقَالَ: وَاللَّهِ لاَ تَدْخُلُهَا حَتَّى يَأْذَنَ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَحَتَّى تُقِرَّ أَنَّكَ الذَّلِيلُ وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، العَزِيزُ، وَلِتَعْلَمَ أَيْضاً الأَعَزَّ مِنَ الأَذَلِّ، أَنْتَ أَوْ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ: أَنْتَ مِنْ بَيْنِ النَّاسِ؟ فَقَالَ: نَعَمْ أَنَا مِنْ بَينِ النَّاسِ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ لأَضْرِبَنَّ عُنُقَكَ. فَصَارَ الأَبُ يَقُولُ: لأَنَا أَزلُّ مِنَ الصِّبْيَانِ،

(١) سورة المجادلة: ٢٢.

لَأَنَا أَزَلُّ مِنَ النِّسَاءِ. حَتَّى جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لِعَبْدِ اللَّهِ بن عَبْدِ اللَّهِ: خَلِّ عَنْ أَبِيكَ. فَخَلَّى عَنْهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِعَبْدِ اللَّهِ بن عَبْدِ اللَّهِ بَعْدَهَا: «جَزَاكَ اللَّهُ عَنْ رَسُولِهِ وَعَن المُؤْمِنِينَ خَيْراً». وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى سُورَةَ المُنَافِقِينَ.

وَفَاةُ ابنُ أُبَيٍّ

تَقَدَّمَتِ السِّنُّ بِابْنِ أُبَيٍّ، وَشَعَرَ بالذُّلِّ، فَقَدْ أَخْزَاهُ اللَّهُ أَمَامَ النَّاسِ فِي مَوَاقِفَ كَثِيرَةٍ، وَقَهَرَهُ وَلَدُهُ عَلَى مَرْأى مِنَ المُسْلِمِينَ، وَمَعَ هَذَا فَقَدْ بَقِيَ يَكِيدُ لِلإِسْلامِ رَغْمَ تَظَاهُرِهِ بِاعْتِنَاقِهِ، وَيَحْقِدُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رُغْمَ إِبْدَائِهِ المَحَبَّةَ لَهُ.

وَسَارَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ، إِلَى تَبُوكَ، وَانْطَلَقَ مَعَهُ عَبْدُ اللَّهِ بنُ عَبْدِ اللَّهِ، وَتَخَلَّفَ ابنُ أُبَيٍّ مُتَعَلِّلاً، وَمَا أَنْ رَجَعَ المُسْلِمُونَ مِنْ تِلْكَ الغَزْوَةِ حَتَّى كَانَ ابنُ أُبَيٍّ يَحْتَضِرُ، وَخَشِيَ ابْنُهُ عَبْدُ اللَّهِ عَلَيْهِ، لَمْ يَخْشَ عَلَيْهِ مِنَ المَوْتِ فَهُوَ نِهَايَةُ كُلِّ حَيٍّ، وَلَكِنَّهُ خَافَ عَلَيْهِ مِنَ النَّارِ، وَلَمْ تَعُدِ الدَّعْوَةُ تَنْفَعُهُ، وَلَمْ تَعُدْ هُنَاكَ أَعْمَالٌ يُمْكِنُهُ القِيَامَ بِهَا

لِيَسْتَدْرِكَ مَا فَاتَ، وَلِيُكَفِّرَ عَمَّا بَدَرَ مِنْهُ مِنْ نِفَاقٍ وَمَا حَصَلَ مِنْهُ مِنْ مُحَارَبَةٍ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ.

أَرْسَلَ عَبْدُ اللَّهِ بنُ أُبَيٍّ بن سَلُولٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ مَرِيضٌ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ لَهُ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَهْلَكَكَ حُبُّ يَهُودَ» قال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا أَرْسَلْتُ إِلَيْكَ لِتَسْتَغْفِرَ لِي وَلَمْ أُرْسِلْ إِلَيْكَ لِتُؤَنِّبَنِي.

رَوَى البُخَارِيُّ: لَمَّا تُوُفِّيَ عَبْدُ اللَّهِ بنُ أُبَيٍّ جَاءَ ابْنُهُ عَبْدُ اللَّهِ بنُ عَبْدِ اللَّهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَأَلَهُ أَنْ يُعْطِيَهُ قَمِيصَهُ يُكَفِّنُ فِيهِ أَبَاهُ فَأَعْطَاهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَيْهِ فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ، فَقَامَ عُمَرُ فَأَخَذَ بِثَوْبِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ تصَلِّي عَلَيْهِ، وَقَدْ نَهَاكَ رَبُّكَ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّما خَيَّرَنِيَ اللَّهُ فَقَالَ: ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾(١) وَسَأَزِيدُهُ عَلَى السَّبْعِينَ». قال: إِنَّهُ مُنَافِقٌ. فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ آيَةَ

---

(١) سورة التوبة: من الآية ٨٠.

﴿ وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مَاتَ مِنْهُمْ أَبَدَاً وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ﴾[1] .

حَرَصَ عَبْدُ اللَّهِ عَلَى التَّخْفِيفِ عَنْ أَبِيهِ: كَفَّنَهُ بِقَمِيصِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلَيْهِ، وَآسْتَغْفَرَ لَهُ، وَقَامَ عَلَى قَبْرِهِ، وَمَا فَعَلَ ذَلِكَ إِلاَّ عَطْفَاً عَلَى أَبِيهِ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يُفِدْهُ شَيْئَاً إِذْ كَانَ رَأْسَ النِّفَاقِ ـ وَاللَّهُ أَعْلَمُ ـ.

اسْتِشْهَادُ عَبْدِ اللَّهِ

وَتُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَبْلَ أَقَلِّ مِنْ عَامَيْنِ، تُوُفِّيَ وَهُوَ رَاضٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ. وَتَوَلَّى أَبُو بَكْرٍ أَمْرَ المُسْلِمِينَ، وَارْتَدَّتْ أَكْثَرُ العَرَبِ، فَبَعَثَ أَبُو بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لَهُمُ الجُيُوشَ، وَانْخَرَطَ عَبْدُ اللَّهِ فِي صُفُوفِ المُجَاهِدِينَ الَّذِينَ انْطَلَقُوا إِلَى اليَمَامَةِ، وَاسْتُشْهِدَ يَوْمَهَا، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ.

---

(١) سورة التوبة: من الآية ٨٤.

بُنَاة دَوْلَةِ الإسْلام

٣٨



أَحَدُ المُسْلِمِينَ الأَوائِلِ ، أَحَدُ القَادَةِ الأَبْطَالِ، أَحَدُ الأَثْرِيَاءِ الأَخْيَارِ، أَحَدُ المُنْفِقِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الأَبْرَارِ، أَحَدُ المُبَشَّرِينَ بِالجَنَّةِ.

نَسَبُهُ

هُوَ طَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِ اللَّهِ بنِ عُثْمَانَ بنِ عَمْرِو بنِ كَعْبِ بنِ سَعْدِ بنِ تَيْمِ بنِ مُرَّةَ، فَهُوَ تَيْمِيٌّ قُرَيْشِيٌّ، يَلْتَقِي بِنَسَبِهِ مَعَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ فِي عَمْرِو بنِ كَعْبٍ الجَدِّ الثَّالِثِ لَهُمَا، فَهُمَا مِنْ تَيْمٍ أَحَدِ بُطُونِ قُرَيْشٍ الإِثْنَيْ عَشَرَ.

أَمَّا أُمُّهُ فَهِيَ: الصَّعْبَةُ بِنْتُ عَبْدِ اللَّهِ بنِ عِمَادٍ الحَضْرَمِيِّ، وَالَّتِي أُمُّهَا عَاتِكَةُ بِنْتُ وَهْبِ بنِ عَبْدِ بنِ قُصَيِّ بنِ كِلَابٍ، وَكَانَ أَبُوهَا وَهْبُ صَاحِبَ الرِّفَادَةِ دُونَ قُرَيْشٍ كُلِّهَا.

وُلِدَ طَلْحَةُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي السَّنَةِ الثَّامِنَةِ وَالعِشْرِينَ

قَبْلَ الهِجْرَةِ، فَهُوَ أَصْغَرُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِخَمْسَةٍ وَعِشْرِينَ عَاماً، وَكَانَ عُمْرُهُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً يَوْمَ بِعْثَةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

زَوْجَاتُهُ وَأَوْلَادُهُ

كَانَ طَلْحَةُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَحْرِصُ أَنْ يَتَزَوَّجَ أَخَوَاتِ أُمَّهَاتِ المُؤْمِنِينَ، وَقَدْ تَزَوَّجَ حَمْنَةَ بِنْتَ جَحْشٍ ابْنَةَ عَمَّةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أُخْتِ أُمِّ المُؤْمِنِينَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ، وَتَزَوَّجَ أُمَّ كُلْثُومٍ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، أُخْتَ أُمِّ المُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ.

وَكَانَ يَحْرِصُ أَنْ يُسَمِّيَ أَوْلَادَهُ عَلَى اسْمِ الأَنْبِيَاءِ.

أَوَّلاً: تَزَوَّجَ حَمْنَةَ بِنْتَ جَحْشٍ، وَكَانَتْ قَبْلَهُ عِنْدَ مُصْعَبِ بنِ عُمَيْرٍ، فَلَمَّا اسْتُشْهِدَ مُصْعَبُ يَوْمَ أُحُدٍ، تَزَوَّجَهَا طَلْحَةُ، وَأَنْجَبَتْ لَهُ:

١ ـ مُحَمَّداً: وَهُوَ الَّذِي يُعْرَفُ بِـ(السَّجَّادِ) لِكَثْرَةِ عِبَادَتِهِ وَتَقْوَاهُ، وَقَدْ قُتِلَ يَوْمَ الجَمَلِ بَرّاً بِوَالِدِهِ. وَكَانَ طَلْحَةُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يُكَنَّى بِأَبِي مُحَمَّدٍ بِاسْمِ وَلَدِهِ هَذَا.

٢ ـ عِمْرَانَ.

ثانياً: تَزَوَّجَ خَوْلَةَ بِنْتَ القَعْقَاعِ بنِ مَعْبَدٍ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ، وَكَانَ وَالِدُهَا القَعْقَاعُ يُعْرَفُ بِتَيَّارِ الفُرَاتِ لِسَخَائِهِ.

وَأَنْجَبَتْ لَهُ:

٣ ـ مُوسَى.

ثالِثاً: تَزَوَّجَ أُمَّ أَبَانَ بِنْتَ عُتْبَةَ بنِ رَبِيعَةَ العَبْشَمِيَّةَ القُرَشِيَّةَ

وَأَنْجَبَتْ لَهُ:

٤ ـ يَعْقُوبَ: قُتِلَ يَوْمَ الحَرَّةِ.

٥ ـ إسْمَاعِيلَ.

٦ ـ إسْحَاقَ.

رابِعاً: تَزَوَّجَ أُمَّ كُلْثُومٍ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ، وَأَنْجَبَتْ لَهُ:

٧ ـ زَكَرِيَا.

٨ ـ يُوسُفَ.

٩ ـ عَائِشَةَ.

خامساً: تَزَوَّجَ سُعْدَى بِنْتَ عَوْفٍ بنِ خَارِجَةَ المُرِّيِّ، وَأَنْجَبَتْ لَهُ:

١٠ ـ عِيسَى.

١١ ـ يَحْيَى.

سادِساً: تَزَوَّجَ الجَرْبَاءَ أُمَّ الحَارِثِ بِنْتَ قُسَامَةَ مِنْ طَيِّءٍ، وَأَنْجَبَتْ لَهُ:

١٢ ـ أُمَّ إسْحَاقَ: وَهِيَ الَّتِي تَزَوَّجَهَا الحَسَنُ بنُ عَلِيٍّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَوَلَدَتْ لَهُ طَلْحَةَ، وَبَعْدَ وَفَاتِهِ تَزَوَّجَهَا أَخُوهُ الحُسَيْنُ بنُ عَلِيٍّ، فَوَلَدَتْ لَهُ فاطِمَةَ. وَلَهُ مِنَ الأَبْنَاءِ أَيْضاً:

١٣ ـ الصَّعْبَةُ: وَأُمُّهَا أُمُّ وَلَدٍ.

١٤ ـ مَرْيَمُ: وَأُمُّهَا أُمُّ وَلَدٍ.

١٥ ـ صَالِحٌ: وَمَاتَ صَغِيراً، وَأُمُّهُ الفَرْعَةُ بِنْتُ عَلِيٍّ مِنْ سَبَايَا بَنِي تَغْلِبٍ.

وَبِذَا يَكُونُ عَدَدُ أَبْنَائِهِ: أَحَدَ عَشَرَ وَلَداً، وَأَرْبَعَ بَنَاتٍ، مِنْ سِتِّ نِسَاءٍ وَمِنْ أُمَّهَاتِ أَوْلاَدٍ.

أَخُوهُ:

كَانَ لِطَلْحَةَ أَخٌ يُدْعَى مَالِكَ بنَ عُبَيْدِ اللَّهِ، بَقِيَ عَلَى شِرْكِهِ، وَخَرَجَ إِلَى بَدْرٍ مَعَ الكُفَّارِ، وَوَقَعَ أَسِيراً بِأَيْدِي المُسْلِمِينَ، وَمَاتَ فِي الأَسْرِ، فَعُدَّ بَيْنَ قَتْلَى بَدْرٍ.

إسْلاَمُ طَلْحَةَ

كَانَ طَلْحَةُ تَاجِراً، نَشَأَ عَلَى هَذِهِ المِهْنَةِ مِنْ صِغَرِهِ، وَجَابَ الأَسْوَاقَ، وَلاَ يَزَالُ فِي مُقْتَبَلِ العُمْرِ، وَيُرْوَى أَنَّهُ قَالَ: «حَضَرْتُ سُوقَ بُصْرَى، فَإِذَا رَاهِبٌ فِي صَوْمَعَتِهِ يَقُولُ: سَلُوا أَهْلَ هَذَا المَوْسِمِ أَفِيهِمْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الحَرَمِ؟ قَالَ طَلْحَةُ: فَقُلْتُ: نَعَمْ أَنَا، فَقَالَ: هَلْ ظَهَرَ أَحْمَدُ بَعْدُ؟ قَالَ قُلْتُ: وَمَنْ أَحْمَدُ؟ قَالَ: ابنُ عَبْدِ اللَّهِ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، هَذَا شَهْرُهُ الَّذِي يَخْرُجُ فِيهِ، وَهُوَ آخِرُ الأَنْبِيَاءِ، وَمَخْرَجُهُ مِنَ الحَرَمِ، وَمُهَاجَرُهُ إِلَى نَخْلٍ وَحَرَّةٍ وَسِبَاخٍ، فَإِيَّاكَ أَنْ تُسْبَقَ إِلَيْهِ. قَالَ طَلْحَةُ: فَوَقَعَ فِي قَلْبِي مَا قَالَ، فَخَرَجْتُ سَرِيعاً حَتَّى قَدِمْتُ مَكَّةَ، فَقُلْتُ: هَلْ مِنْ حَدَثٍ؟ قَالُوا: نَعَمْ، مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ اللَّهِ الأَمِينِ تَنَبَّأَ، وَقَدْ تَبِعَهُ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ، قَالَ: فَخَرَجْتُ حَتَّى دَخَلْتُ عَلَى أَبِي بَكْرٍ، فَقُلْتُ: أَتبِعْتَ هَذَا الرَّجُلَ؟ قَالَ: نَعَم، فَانْطَلِقْ إِلَيْهِ فَادْخُلْ عَلَيْهِ فَاتْبَعْهُ، فَإِنَّهُ يَدْعُو إِلَى الحَقِّ، فَأَخْبَرَهُ طَلْحَةُ بِمَا قَالَ الرَّاهِبُ، فَخَرَجَ أَبُو بَكْرٍ بِطَلْحَةَ، فَدَخَلَ بِهِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَسْلَمَ طَلْحَةُ، وَأَخْبَرَ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِمَا قَالَ الرَّاهِبُ، فَسُرَّ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ، بِذَلِكَ»[١].

وَلَمَّا أَسْلَمَ أَبُو بَكْرٍ وَطَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِ اللَّهِ أَخَذَهُمْا نَوْفَلُ بنُ خُوَيْلِدِ بنِ العَدَوِيَّةَ فَشَدَّهُمَا فِي حَبْلٍ وَاحِدٍ، وَلَمْ يَمْنَعْهُمَا بَنُو تَيْمٍ، وَكَانَ نَوْفَلُ بنُ خُوَيْلِدٍ[٢] يُدْعَى أَسَدَ قُرَيْشٍ، فَلِذَلِكَ سُمِّيَ أَبُو بَكْرٍ وَطَلْحَةُ القَرِينَيْنِ.

وَمِنَ المَعْرُوفِ أَنَّ طَلْحَةَ بنَ عُبَيْدِ اللَّهِ كَانَ مِنَ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِدَعْوَةِ أَبِي بَكْرٍ لَهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ مُنْذُ أَوَّلِ أَمْرِهَا أَوْ كَانُوا أَوَّلَ المُسْلِمِينَ، وَهُمْ: عُثْمَانُ بنُ عَفَّانَ، وَالزُّبَيْرُ بنُ العَوَّامِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ عَوْفٍ، وَسَعْدُ بنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَطَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِ اللَّهِ. هَؤُلَاءِ السِّتَّةُ مَعَ زَيْدٍ وَعَلِيٍّ كَانُوا أَوَّلَ النَّاسِ إِسْلَاماً.

وَتَحَمَّلَ طَلْحَةُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الكَثِيرَ، كَمَا تَحَمَّلَ المُسْلِمُونَ الآخَرُونَ مِنَ الأَذَى، وَلَكِنْ يَقِلُّ مَا يَلْحَقُ بِهِ مِنْ أَذىً عَنْ إِخْوَانِهِ لِغِيَابِهِ فِي تِجَارَتِهِ، وَكَثْرَةِ أَسْفَارِهِ، وَكَانَ يُنْفِقُ الكَثِيرَ وَالكَثِيرَ مِنْ مَالِهِ عَلَى الدَّعْوَةِ، وَعَلَى فُقَرَاءِ المُسْلِمِينَ

---

(١) طبقات ابن سعد. وكان عمر طلحة لا يزيد على السبع عشرة سنة يومذاك.

(٢) قتل نوفل بن خويلد يوم بدرٍ كافراً، قتله علي بن أبي طالب.

دُونَ أَنْ يَعْلَمَ أَحَدٌ، وَمِنْ غَيْرِ تَفَاخُرٍ أَوْ دِعَايَةٍ عَلَى عَادَةِ طَلْحَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي الصَّمْتِ وَالهُدُوءِ. وَمَعَ ذَلِكَ الغِيَابِ عَنْ مَكَّةَ إلاَّ أَنَّهُ لَمْ يَنْجُ مِنَ العَذَابِ البَدَنِيِّ الَّذِي يُصِيبُ بَقِيَّةَ إِخْوَانِهِ، وَأَمَّا العَذَابَ النَّفْسِيَّ فَقَدْ كَانَ يُلاَزِمُهُ لِمَا يَعْلَمُ مَا يَنَالُ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَا يَنَالُ الصَّحَابَةَ الكِرَامَ فَهُوَ دَائِمُ التَّفْكِيرِ بِهِمْ، فِي حِلِّهِ وَتِرْحَالِهِ، حَتَّى لَيَكَادُ قَلْبُهُ أَنْ يَتَفَطَّرَ وَدِمَاغُهُ أَنْ يَتَفَجَّرَ، وَاسْتَمَرَّ ذَلِكَ طِيْلَةَ العَهْدِ المَكِّيِّ.

الهِجْرَةَ

بَعْدَ بَيْعَةِ العَقَبَةِ الثَّانِيَةِ أَخَذَ المُسْلِمُونَ فِي مَكَّةَ يُهَاجِرُونَ مِنْهَا إِلَى المَدِينَةِ، وَفِي هَذِهِ الأَثْنَاءِ خَرَجَ طَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِ اللَّهِ فِي تِجَارَةٍ إِلَى الشَّامِ، وَلَمَّا اتَّجَهَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَى المَدِينَةِ مُهَاجِراً كَانَ طَلْحَةُ فِي طَرِيقِ العَوْدَةِ. فَلَمَّا ارْتَحَلَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنَ (الخَرَّارِ) فَكَانَ الغَدُ لَقِيهُ طَلْحَةُ آيِباً مِنَ الشَّامِ، وَمَارّاً عَلَى المَدِينَةِ فِي عِيْرٍ، فَكَسَا رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَبَا بَكْرٍ مِنْ ثِيَابِ الشَّامِ، وَخَبَّرَ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّ مَنْ بِالمَدِينَةِ مِنَ المُسْلِمِينَ قَدِ اسْتَبْطَؤُوا رَسُولَ

اللَّهِ، فَعَجَّلَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، السَّيْرَ، وَمَضَى طَلْحَةُ إلَى مَكَّةَ حَتَّى فَرَغَ مِنْ حَاجَتِهِ، ثُمَّ خَرَجَ بَعْدَ ذَلِكَ مَعَ آلِ أَبِي بَكْرٍ، فَهُوَ الَّذِي قَدِمَ بِهِمُ الْمَدِينَةَ[1].

وَنَزَلَ طَلْحَةُ عَلَى أَسْعَدِ بنُ زُرَارَةَ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ، كَمَا يُقَالُ: إنَّهُ قَدْ نَزَلَ وَصُهَيْبُ بنُ سِنَانَ بِالسُّنْحِ مِنَ العَوَالِي بِالمَدِينَةِ عَلَى بُعْدِ مِيلٍ مِنَ المَسْجِدِ النَّبَوِيِّ. وَيُرْوَى أَنَّ النَّبِيَّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَدْ جَعَلَ لِطَلْحَةَ مَوْضِعَ دَارِهِ.

وَآخَى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَيْنَ طَلْحَةَ بنِ عُبَيْدِ اللَّهِ وَبَيْنَ سَعِيدِ بنِ زَيْدِ بنِ عَمْرِو بنِ نَفِيلٍ، وَكِلاَهُمَا مِنَ المُهَاجِرِينَ، وَمِنَ المُبَشَّرِينَ بِالجَنَّةِ، وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى أَنَّهُ آخَى بَيْنَ طَلْحَةَ وَبَيْنَ أُبَيٍّ بنِ كَعْبٍ، وَهُنَاكَ مَنْ يَقُولُ: إنَّ المُؤَاخَاةَ كَانَتْ بَيْنَ طَلْحَةَ بنِ عُبَيْدِ اللَّهِ، وَكَعْبِ بنِ مَالِكٍ ـ وَاللَّهُ أَعْلَمُ ـ.

فِي بَدْرٍ

عَاشَ طَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِ اللَّهِ فِي هَذَا المُجْتَمَعِ الإِسْلاَمِيِّ الجَدِيدِ، وَهُوَ مَا كَانَ يَحْلَمُ بِهِ، فَعَاشَ حَيَاةً هَنِيئَةً، وَقَدْ زَالَ

---

(١) أنظر طبقات ابن سعد. ولم يكن طلحة قد تزوّج بعد.

عَنْـهُ العَـذَابُ النَّفسـيُّ الَّـذِي كَانَ يُعَـانِيهِ فِي مَكَّةَ، فَشَـارَكَ مُشَارَكَةً بَنَّاءَةً فِي المُجْتَمَعِ الَّذِي يَعِيشُ فِيهِ.

وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَى (العَشِيرَةِ) فِي مِائَةٍ وَخَمْسِينَ مِنَ المُهَاجِرِينَ، وَذَلِكَ فِي شَهْـرِ جُمَـادَى الأُولَى مِنَ السَّنَةِ الثَّانِيَةِ مِنْ هِجْرَتِهِ، عَلَيْهِ السَّلاَمُ لاعْتِرَاضِ أَعْظَمِ قَافِلَةٍ لِقُرَيْشٍ إِلَى الشَّامِ بِإِمْرَةِ أَبِي سُفْيَانَ بنِ حَرْبٍ، وَلَيْسَ مَعَهُ إلاَّ عَدَدٌ قَلِيلٌ مِنَ الرِّجَالِ[1]، وَقَدِ اسْتَخْلَفَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلَى المَدِينَةِ ابْنَ عَمَّتِهِ أَبَا سَلَمَةَ عَبْدَ اللَّهِ بنَ عَبْدِ الأَسَدِ المَخْزُومِيَّ، فَلَمَّا وَصَلَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى (العَشِيرَةِ) شَمَالَ (يَنْبُعِ النَّخْـلِ) وَجَدَ أَنَّ القَافِلَةَ قَدْ فَاتَتْـهُ، فَوَادَعَ بَنِـي مُدْلِـجَ، وَرَجَـعَ إِلَـى المَدِينَةِ، وَلَكِنَّهُ أَبْقَـى طَلْحَةَ بـنَ عُبَيْدِ اللَّـهِ وَسَعِيدَ بـنَ زَيْدٍ لِيُخْبِرَاهُ عَنْ عَوْدَةِ القَافِلَةِ، وَوَجَّهَهُمَا شَمَالاً، أَوْ بَعَثَهُمَا قَبْلَ خُرُوجِهِ إِلَى بَدْرٍ بِعَشْرِ لَيَالٍ، فَخَرَجَا حَتَّى بَلَغَا (الحَـوْرَاءَ)، فَلَمْ يَزَالاَ مُقِيمَيْنِ هُنَاكَ حَتَّى مَرَّتْ بِهِمَا العِيرُ، وَبَلَغَ رَسُـولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الخَبَرُ قَبْلَ رُجُوعِ طَلْحَةَ وَسَعِيدٍ إِلَيْهِ، فَنَـدَبَ أَصْحَابَـهُ وَخَـرَجَ يُرِيدُ العِيرَ، فَأَخَـذَتْ طَرِيقَ

(١) كان عدد رجال القافلة أربعين رجلاً بينهم عمرو بن العاص.

السَّاحِلِ، وَأَسْرَعَتْ فَنَجَتْ، وَخَرَجَ طَلْحَةُ وَسَعِيدٌ يُرِيدَانِ المَدِينَةَ لِيُخْبِرَا رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، خَبَرَ العِيرِ، وَلَمْ يَعْلَمَا بِخُرُوجِهِ، فَقَدِمَا المَدِينَةَ فِي اليَوْمِ الَّذِي التَقَى فِيهِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِجَيْشِ قُرَيْشٍ فِي بَدْرٍ أَيْ يَوْمَ المَعْرَكَةِ، فَخَرَجَا مِنَ المَدِينَةِ يَعْتَرِضَانِ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَقِيَاهُ بِـ (تُرْبَانَ) بين (مَلَلٍ) و (السَّيَالَةِ) عَلَى المَحَجَّةِ مُنْصَرِفاً مِنْ بَدْرٍ، فَلَمْ يَشْهَدْ طَلْحَةُ وَسَعِيدٌ المَعْرَكَةَ، فَضَرَبَ لَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِسِهَامِهِمَا وَأُجُورِهِمَا فِي بَدْرٍ، فَكَانَا كَمَنْ شَهِدَهَا.

فِي أُحُدٍ

وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِلِقَاءِ المُشْرِكِينَ فِي أُحُدٍ، وَأَظْهَرَ اللَّهُ عِبَادَهُ المُؤْمِنِينَ عَلَى عَدُوِّهِمْ، حَتَّى إِذَا فَشِلُوا لِمُخَالَفَتِهِمْ تَعْلِيمَاتِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، انْقَلَبَ الأَمْرُ فَظَهَرَ أَعْدَاءُ اللَّهِ، وَأَصَابَ المُسْلِمِينَ شِدَّةٌ، وَعِنْدَ الشِّدَّةِ تُعْرَفُ الرِّجَالُ وَتُمَيَّزُ الأَبْطَالُ.

وَلَّى النَّاسُ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي نَاحِيَةٍ فِي اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلاً مِنْهُمْ طَلْحَةُ، فَأَدْرَكَهُمُ المُشْرِكُونَ، فَقَالَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ لِلْقَوْمِ؟

فَقَالَ طَلْحَةُ: أَنَا، قَالَ: كَمَا أَنْتَ. فَقَالَ رَجُلٌ: أَنَا. فَقَالَ: أَنْتَ، فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، ثُمَّ التَفَتَ فَإِذَا المُشْرِكُونَ، فَقَالَ: مَنْ لَهُمْ؟ قَالَ طَلْحَةُ: أَنَا. قَالَ: كَمَا أَنْتَ. فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ: أَنَا، قَالَ: أَنْتَ، فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى بَقِيَ مَعَ نَبِيِّ اللَّهِ طَلْحَةُ وَحْدَهُ، فَقَالَ: مَنْ لِلْقَوْمِ؟ قَالَ طَلْحَةُ: أَنَا، فَقَاتَلَ طَلْحَةُ قِتَالَ الأَحَدَ عَشَرَ، حَتَّى قُطِعَتْ أَصَابِعُهُ، فَقَالَ: حِسِّ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَوْ قُلْتَ: بِاسْمِ اللَّهِ لَرَفَعَتْكَ المَلَئِكَةُ وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ» ثُمَّ رَدَّ اللَّهُ المُشْرِكِينَ(١).

وَفِي رِوَايَةٍ: أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي تِلْكَ السَّاعَةِ الَّتِي كَانَ يُقَاتِلُ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ غَيْرُ طَلْحَةُ وَيَعْدُ ـ عَنْ حَدِيثِهِمَا(٢) ـ.

وَقَالَ ابنُ أَبِي خَالِدٍ عَنْ قَيْسٍ قَالَ: رَأَيْتُ يَدَ طَلْحَةَ الَّتِي

---

(١) أخرجه النسائي ٦/ ٢٩ ـ ٣٠ في الجهاد. باب ما يقول من يطعنه العدو. رجاله ثقات. إلا أن أبا الزبير مدلس، وقد عنعن. وأخرجه الحاكم في المستدرك ٣/ ٣٦٩، والبيهقي. وذكره ابن سعد في الطبقات، وابن حجر في الإصابة، وابن كثير في السيرة.

(٢) أخرجه البخاري (٣٧٢٣) في الفضائل و (٤٠٦٠) و (٤٠٦١) في المغازي، ومسلم في الفضائل (٢٤١٤).

وَقَى بِهَا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَوْمَ أُحُدٍ شَلَّاءَ[1].

وَكَانَ فِيمَنْ ثَبَتَ مَعَهُ يَوْمَئِذٍ حِينَ وَلَّى النَّاسُ، وَبَايَعَهُ عَلَى المَوْتِ. وَرَمَى مَالِكُ بنُ زُهَيْرٍ يَوْمَئِذٍ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَاتَّقَى طَلْحَةُ بِيَدِهِ عَنْ وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَصَابَ خِنْصَرَهُ فَشَلَّتْ. وَأَصَابَتْ طَلْحَةَ يَوْمَئِذٍ أَيْضاً فِي رَأْسِهِ المُصَلَّبَةُ، ضَرَبَهُ رَجُلٌ مِنَ المُشْرِكِينَ ضَرْبَتَيْنِ: ضَرْبَةً وَهُوَ مُقْبِلٌ، وَضَرْبَةً وَهُوَ مُعْرِضٌ عَنْهُ، فَكَانَ قَدْ نَزَفَ مِنْهَا الدَّمُ، وَكَانَ ضِرَارُ بنُ الخَطَّابِ الفِهْرِيُّ يَقُولُ: أَنَا وَاللَّهِ ضَرَبْتُهُ يَومَئِذٍ.

وَنَهَضَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَى صَخْرَةٍ مِنَ الجَبَلِ لِيَعْلُوهَا، فَلَمْ يَسْتَطِعْ، فَجَلَسَ تَحْتَهُ طَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِ اللَّهِ، فَنَهَضَ بِهِ حَتَّى اسْتَوَى فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَوْجَبَ طَلْحَةُ حِينَ صَنَعَ بِرَسُولِ اللَّهِ مَا صَنَعَ».

قَالَتْ عَائِشَةُ وَأُمُّ إِسْحَاقَ ابْنَتَيْ طَلْحَةَ: جُرِحَ أَبُونَا يَوْمَ أُحُدٍ

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة (٣٧٢٤) وفي المغازي (٤٠٦٣) وأحمد ١/ ١٦١، وابن ماجه (١٢٨) والطبراني في الكبير (١٩٢)، وابن سعد ٣/ ١/ ١٥٥، وهو في الاستيعاب ٥/ ٢٣٨.

أَرْبَعاً وَعِشْرِينَ جِراحَةً، وَقَعَ مِنْهَا فِي رَأْسِهِ شَجَّةٌ مُرَبَّعَةٌ، وَقُطِعَ نَسَاهُ (يَعْنِي عِرْقَ النَّسَا)، وَشَلَّتْ إِصْبَعُهُ، وَسَائِرُ الجِرَاحِ فِي سَائِرِ جَسَدِهِ، وَقَدْ غَلَبَهُ الغَشْيُ، وَرَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَكْسُورَةٌ رُبَاعِيَّتُهُ، مَشْجُوجٌ فِي وَجْهِهِ، قَدْ عَلاَهُ الغَشْيُ، وَطَلْحَةُ مُحْتَمِلُهُ يَرجِعُ بِهِ القَهْقَرَى، كُلَّمَا أَدْرَكَهُ أَحَدٌ مِنَ المُشْرِكِينَ قَاتَلَ دُونَهُ حَتَّى أَسْنَدَهُ إِلَى الشِّعْبِ.

وَقَالَ مُوسَى بنُ طَلْحَةَ: رَجَعَ طَلْحَةُ يَوْمَئِذٍ بِخَمْسٍ وَسَبْعِينَ أَوْ سَبْعٍ وَثَلاَثِينَ ضَرْبَةً رُبِّعَ فِيْهَا جَبِينُهُ، وَقُطِعَ نَسَاهُ، وَشَلَّتْ إِصْبَعُهُ الَّتِي تَلِي الإِبْهَامَ.

وَعَنْ أُمِّ المُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: حَدَّثَنِي أَبُو بَكْرٍ قَالَ: كُنْتُ فِي أَوَّلِ مَنْ فَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ أُحُدٍ، فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عَلَيْكُمْ صَاحِبَكُمْ، يُرِيدُ طَلْحَةَ، وَقَدْ نُزِفَ فَلَمْ يُنْظَرْ إِلَيْهِ، وَأَقْبَلْنَا عَلَى النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

بَقِيَّةُ المَشَاهِدِ

وَشَهِدَ طَلْحَةُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، المَشَاهِدَ كُلَّهَا، لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْ غَزْوَةٍ، وَلَمْ يَتَأَخَّرْ عَنْ مَشْهَدٍ، حَضَرَ الخَنْدَقَ، وَالحُدَيْبِيَّةَ، وَخَيْبَرَ، وَالفَتْحَ، وَحُنَيْنَ، وَالطَّائِفَ، وَتَبُوكَ.

وَبَلَغَ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عِنْدَمَا كَانَ يَسْتَعِدُّ لِلسَّيْرِ إِلَى تَبُوكَ أَنَّ نَاساً مِنَ المُنَافِقِينَ يَجْتَمِعُونَ فِي بَيْتِ سُوَيْلِمٍ اليَهُودِيِّ، وَكَانَ بَيْتُهُ عِنْدَ جَاسُومَ[1]، يُثَبِّطُونَ النَّاسَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَعَنِ الجِهَادِ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمُ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، طَلْحَةَ بنَ عُبَيْدِ اللَّهِ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُحَرِّقَ عَلَيْهِمْ بَيْتَ سُوَيْلِمٍ، فَفَعَلَ طَلْحَةُ، وَلَكِنْ فَرَّ الضَّحَّاكُ بنُ خَلِيفَةٍ وَجَمَاعَتُهُ مِنْ ظَهْرِ البَيْتِ وَنَجَوْا.

وَتُوفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ رَاضٍ عَنْ طَلْحَةَ.

مَعَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ

وَقَفَ طَلْحَةُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بِجَانِبِ الصِّدِّيقِ فِي كُلِّ المَوَاقِفِ، وَبَقِيَ فِي المَدِينَةِ يَقُومُ بِمَا يُطْلَبُ مِنْهُ.

---

(١) جاسوم: اسم مكان.

بَعْدَ أَنْ شَيَّعَ الصِّدِّيقُ جَيْشَ أُسَامَةَ رَجَعَ إِلَى المَدِينَةِ، وَجَعَلَ كِبَارَ الصَّحَابَةِ عَلَى مَنَافِذِ المَدِينَةِ إِلَى البَادِيَةِ، وَمِنْهُمْ: طَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِ اللَّهِ، وَعَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ، وَالزُّبَيْرُ بنُ العَوَّامِ، وَسَعْدُ بنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ عَوْفٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بنُ مَسْعُودٍ، وَطَلَبَ مِنْ أَهْلِ المَدِينَةِ أَنْ يَكُونُوا فِي المَسْجِدِ اسْتِعْدَاداً لِكُلِّ طَارِىءٍ. وَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ الأَرْضَ كَافِرَةٌ، وَقَدْ رَأَى وَفْدُهُمْ قِلَّةً، وَإِنَّكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَلَيْلاً تُؤْتَوْنَ أَمْ نَهَاراً، وَأَدْنَاهُمْ مِنْكُمْ عَلَى بَرِيدٍ، وَقَدْ كَانَ القَوْمُ يَأْمُلُونَ أَنْ نَقْبَلَ مِنْهُمْ وَنُوَادِعَهُمْ، وَقَدْ أَبَيْنَا عَلَيْهِمْ، وَنَبَذْنَا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ، فَاسْتَعِدُّوا وَأَعِدُّوا.

مَعَ عُمَرَ الفَارُوقِ

وَكَانَ طَلْحَةُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بِجَانِبِ الفَارُوقِ أَيْضاً، يَقِفُ مَعَهُ فِي كُلِّ مَوْقِفٍ يَشُدُّ أَزْرَهُ، وَيَسْتَشِيرُهُ عُمَرُ عِنْدَ الحَاجَةِ.

وَلَمَّا طُعِنَ عُمَرُ جَعَلَ الخِلاَفَةَ شُورَى فِي سِتَّةٍ: عُثْمَانُ بنُ عَفَّانَ، وَعَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ عَوْفٍ، وَسَعْدُ بنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَالزُّبَيْرُ بنُ العَوَّامِ، وَطَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِ اللَّهِ، وَهُمْ بَقِيَّةُ العَشْرَةِ المُبَشَّرِينَ بِالجَنَّةِ إِذْ لَمْ يَسْتَثْنِ

مِنْهُمْ سِوَى ابْنِ عَمِّهِ سَعِيدِ بـنِ زَيْدٍ لِقَرَابَتِـهِ مِنْـهُ، وَجَعَـلَ عَبْدَ اللَّهِ بنَ عُمَرَ مَعَهُمْ مُشِيراً وَلَيْس مِنْهُمْ، وَأَجَّلَهُـمْ ثَلاَثَـاً، وَأَمَرَ صُهَيْباً أَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ .

لَمْ يَكُنْ طَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِ اللَّهِ مَوْجُـوداً فِي المَدِينَـةِ آنَـذَاكَ حَيْثُ كَانَ مَشْغُـولاً، خَارِجَـاً بِبَعْضِ أَعْمَالِـهِ. وَاجْتَمَـعَ أَصْحَـابُ الشُّـورَى، وَاخْتَـارُوا عُثْمَانَ بـنَ عَفَّـانَ خَلِيفَـةً وَبَايَعُوهُ. وَفِي اليَوْمِ الَّـذِي بُويِعَ فِيْهِ عُثْمَـانُ قَدِمَ طَلْحَةُ بْـنُ عُبَيْدِ اللَّهِ المَدِينَةَ، فَقِيلَ لَهُ: بَايِعْ عُثْمَانَ، فَقَالَ: أَكُلُّ قُرَيْشٍ رَاضٍ بِهِ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ لَهُ: أَكُلُّ النَّاسِ بَايَعُوكَ؟ قَالَ: نَعَـمْ. قَالَ: قَدْ رَضِيتُ، لاَ أَرْغَـبُ عَمَّـا قَدْ أَجْمَعُـوا عَلَيْهِ، وَبَايَعَهُ.

مَعَ ذِي النُّورَيْنِ عُثْمَان

كَانَ عُمَرُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَرَى أَنْ يَبْقَى كِبَارُ الصَّحَابَةِ فِي المَدِينَةِ يُشِيرُونَ عَلَى الخَلِيفَةِ وَيَسْأَلُهُمْ، فَلَمَّا جَاءَ عُثْمَـانُ، وَكَانَ مِنْ طَبْعِهِ اللِّينُ، تَرَكَ الخِيَارَ لِلْجَمِيعِ فِي سُكْنَى المَدِينَةِ أَوِ الخُـرُوجِ مِنْهَـا فَكَانَ طَلْحَـةُ مِمَّـنْ خَرَجَ وَبَنَـى دَاراً فِي الكُوفَةِ، كَمَا خَرَجَ الزُّبَيْرُ وَبَنَى دَاراً فِي البَصْرَةِ. وَكَانَ يَأْخُذُ عَلَى عُثْمَانَ لِينَهُ لِلنَّاسِ ، وَخَاصَّةً أُولَئِكَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ اللِّينَ

ضَعْفاً، وَيَأْخُذُ عَلَيْهِ حَدِيثَهُ الَّذِي يَطْفَحُ بِالإِيمَانِ لِلَّذِينَ لَمْ يَدْخُلِ الإِيمَانُ إِلَى قُلُوبِهِمْ.

فَلَمَّا كَانَتِ الفِتْنَةُ، وَحُصِرَ الخَلِيفَةُ، كَانَ يُصَلِّي بِالنَّاسِ عَلِيٌّ أَوْ طَلْحَةُ، إِنْ وُجِدَ أَحَدُهُمَا فَإِنْ لَمْ يُوجَدَا صَلَّى مَنْ وَضَعَهُ المُنْحَرِفُونَ إِمَاماً وَهُوَ الغَافِقِيُّ بنُ حَرْبٍ العُكِّيُّ زَعِيمُ الثَّائِرِينَ المِصْرِيينَ.

وَلَمَّا مَنَعَ المُنْحَرِفُونَ المُحَاصِرُونَ لِلْخَلِيفَةِ المَاءَ عَنْهُ أَرْسَلَ إِلَى عَلِيٍّ وَطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ وَأُمَّهاتِ المُؤْمِنِينَ، فَأَسْعَفَهُ عَلِيٌّ وَأُمُّ المُؤْمِنِينَ رَمْلَةُ أُمّ حَبِيبَةَ بِنْتَ أَبِي سُفْيَانَ. وَزَجَرَ عَلِيٌّ الثَّائِرِينَ فَلَمْ يَرْعَوُوا. وَكَانَ الخَلِيفَةُ يُطِلُّ بَيْنَ الحِينِ وَالآخَرِ عَلَى المُنْحَرِفِينَ المُحَاصِرِينَ لَهُ فَيَعِظُهُمْ، وَلَكِنْ لَمْ يَكُونُوا لِيَأْبَهُوا لأَحَدٍ حَتَّى أَنَّ أُمَّ حَبِيبَةَ أُمَّ المُؤْمِنِينَ لَمْ تَسْتَطِعِ الوُصُولَ إِلَيْهِ لإِسْعَافِهِ بِالمَاءِ، إِذْ ضَرَبُوا وَجْهَ بَغْلَتِهَا، وَكَادَتْ تَسْقُطُ عَنْهَا، وَهَذَا مَا أَلْزَمَ النَّاسَ بُيُوتَهُمْ لاَ يَخْرُجُ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلاَّ وَمَعَهُ سَيْفُهُ، إِذ اخْتَلَّ الأَمْنُ فِي دَارِ الهِجْرَةِ.

دَخَلَ دَارَ عُثْمَانَ بَعْضُ أَبْنَاءِ الصَّحَابَةِ لِيُدَافِعُوا عَنْهُ وَفِيهِمْ: الحَسَنُ وَالحُسَيْنُ ابْنَا عَلِيٍّ، وَمُحَمَّدُ بنُ طَلْحَةَ بنِ عُبَيْدِ اللَّهِ، وَعَبْدُ اللَّهِ بنُ الزُّبَيْرِ، وَعَبْدُ اللَّهِ بنُ عَبَّاسٍ،

وَعَبْدُ اللَّهِ بنُ عُمَرَ وَغَيْرِهِمْ، وَطَلَبَ مِنْهُمْ عُثْمَانُ أَلاَّ يُقَاتِلُوا، وَعزَمَ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ أَشَدَّ العَزِيمَةِ.

وَجَاءَ المَوْسِمُ، وَخَرَجَتْ أُمُّ المُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ إِلَى الحَجِّ، وَطَلَبَ عُثْمَانُ مِنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنْ يَحِجَّ بِالنَّاسِ هَذَا العَامَ، وَكَانَ عَلَى بَابِهِ مَعَ أَبْنَاءِ الصَّحَابَةِ، فَأَرَادَ عَبْدُ اللَّهِ أَنْ يَبْقَى مُجَاهِداً، إلاَّ أَنَّ عُثْمَانَ أَصرَّ عَلَيْهِ فَخَرَجَ إِلَى الحَجِّ.

وَصَلَ الخَبَرُ إِلَى المَدِينَةِ أَنَّ الأَمْدَادَ قَدْ دَنَتْ مِنَ المَدِينَةِ لِتَأْدِيبِ المُنْحَرِفِينَ فَخَافُوا فَأَرَادُوا دُخُولَ الدَّارِ فَمَنَعَهُمْ أَبْنَاءُ الصَّحَابَةِ، فَتَسَوَّرُوهَا وَأَحْرَقُوا بَابَهَا، وَسَيِّدُنَا عُثْمَانُ يُقْسِمُ عَلَى أَبْنَاءِ الصَّحَابَةِ أَنْ يُلْقُوا سُيُوفَهُمْ حَتَّى أَلْقَاهَا بَعْضُهُمْ، وَهَجَمَ المُنْحَرِفُونَ عَلَى الخَلِيفَةِ وَقَتَلُوهُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي ١٨ ذِي الحِجَّةِ مِنْ عَامِ ٣٥ مِنْ هِجْرَةِ المُصْطَفَى عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلاَةِ وَالسَّلاَمِ. وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً.

وَعَادَ النَّاسُ مِنَ الحَجِّ فَوَجَدُوا خَلِيفَتَهُمْ مَقْتُولاً، وَالمُنْحَرِفِينَ يُسَيْطِرُونَ عَلَى المَدِينَةِ، وَلاَ أَمْنَ فِيهَا.

لَمْ يَكُنِ المُنْحَرِفُونَ مُتَّفِقِينَ عَلَى تَعْيِينِ خَلِيفَةٍ مُحَدَّدٍ فَالمِصْرِيُّونَ يَرَوْنَ عَلِيّاً وَلَكِنَّهُ لَمْ يَرْضَ، وَيَرَى الكُوفِيُّونَ الزُّبَيْرَ غَيْرَ أَنَّهُ لاَ يَرْغَبُ وَيَخْتَفِي عَنْهُمْ، وَيَرَى البَصْرِيُّونَ

طَلْحَةَ بنَ عُبَيْدِ اللَّهِ إلاَّ أَنَّهُ لاَ يُرِيدُ وَيَبْتَعِدُ عَنْهُمْ. فَعَرَضُوا الأَمْرَ عَلَى سَعْدِ بن أَبِي وَقَّاص وَهُوَ مِمَّنْ بَقِيَ مِنْ أَهْل الشُّورَى وَلَكِنَّهُ لَمْ يَرْضَ، وَاعْتَزَلَ، وَابْتَعَدَ عَن الجوِّ العَامِّ، فَاتَّجَهُوا إلَى عَبْدِ اللَّهِ بن عُمَر فَكَانَ رَفْضُهُ أَشَدَّ مِن الجَمِيع.

اشْتَدَّ الأَمْرُ عَلَى المُنْحَرِفِينَ إذْ خَافُوا مِنْ وُصُول جُنُودِ الأَمْصَارِ إلَى المَدِينَةِ وَالقَبْض عَلَيْهِمْ إذْ لاَ يَسْتَطِيعُون قِتَالَهُمْ، لِذَا يَجِبُ الإِسْرَاعُ فِي تَعْيين خَلِيفَةٍ يَكُونُ الوَاجِهَةَ.

وَاشْتَدَّ الأَمْرُ عَلَى أَهْل المَدِينَةِ لِلْفَوْضَى الَّتِي حَلَّتْ، وَالأَمْن الَّذِي اخْتَلَّ حَبْلُهُ، وَرَأَوْا تَعْيينَ خَلِيفَةٍ لِلتَّخَلُّص مِمَّا هُمْ فِيهِ، وَوَجَدُوا فِي عَلِيٍّ أَمَلاً.

وَاشتَدَّ الأَمْرُ عَلَى الصَّحَابَةِ لِمَا آلَ إلَيْهِ الوَضْعُ، وَرَأَوْا تَعْيينَ خَلِيفَةٍ لإِنْقَاذِ المَوْقِفِ، وَرَغِبُوا فِي عَلِيٍّ لِمَا يَتَحَلَّى بِهِ مِنْ صِفَاتٍ. وَعَزَمُوا عَلَيْهِ، وَعَزَمَ عَلَيْهِ أَهْلُ المَدِينَةِ، وَفَرِحَ المُنْحَرِفُونَ بِذَلِكَ، وَاضْطَرَّ عَلِيٌّ لِلْمُوَافَقَةِ إنْقَاذاً لِلْمَوْقِفِ وَخَوْفاً مِنْ أَنْ تَزْدَادَ الفَوْضَى وَيَتَأَزَّمَ الوَضْعُ، وَيَزْدَادَ المُنْحَرِفُونَ إجْرَاماً، إذْ أَصْبَحَتِ الجَرَائِمُ عَلَيْهِمْ سَهْلَةً بَعْدَ فَعْلَتِهِمُ الَّتِي فَعَلُوهَا.

مَعَ الإمَامِ عَلِيٍّ

بَايَعَ طَلْحَةُ عَلِيّاً وَرُبَّمَا كَانَ المُنْحَرِفُونَ يُلْزِمُونَ النَّاسَ عَلَى البَيْعَةِ لإنْهَاءِ الوَضْعِ بِسُرْعَةٍ عَلَّهُ تُطْوَى صَفْحَةُ جَرِيمَتِهِمْ. بَايَعَ طَلْحَةُ حُبّاً وَتَأيِيداً وَتَقْدِيراً لَعَلِيٍّ وَاعْتِرَافاً بِفَضْلِهِ غَيْرَ أَنَّهُ قَدْ سَاءَهُ تَصَرُّفُ المُنْحَرِفِينَ. وَكَذَا بَايَعَ الزُّبَيْرُ وَوَجَدَ مَا وَجَدَ طَلْحَةُ، فَأَحَبَّا أَنْ يَبْتَعِدَا عَنْ جَوِّ المَدِينَةِ المُتْعِبِ.

اسْتَأْذَنَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ الخَلِيفَةَ لأِدَاءَ العُمْرَةِ، فَأَذِنَ لَهُمَا، فَسَارَا إلَى مَكَّةَ، فَوَجَدَاهَا مَكَاناً لاجْتِمَاعِ كَثِيرِينَ مِمَّنْ عُزِلَ مِنَ الوُلاَةِ، وَمِمَّنِ اعْتَزَلَ الفِتْنَةَ و. . . وَأَنَّ الجَوَّ فِيهَا غَيْرُ مُسَاعِدٍ لِلْعِبَادَةِ، وَغَيْرُ مُهيّأ لِلرَّاحَةِ، لِكَثْرَةِ الحَدِيثِ عَنْ أَخْبَارِ المُجْتَمَعِ وَمَا سَرَى فِيهِ مِنَ الفَوْضَى، إضَافَةً إلَى أَنَّ طَلَبَ الرِّزْقِ فِيهَا غَيْرُ مُتَوفِّرٍ، وَأَنَّ التِّجَارَةَ الَّتِي اعْتَادُوا عَلَيْهَا قَدِ انْقَضَتْ أَيَّامُهَا، لِذَا فَقَدِ اتَّجَهَتْ أَنْظَارُهُمْ لِلسَّيْرِ إلَى البَصْرَةِ فَرُبَّمَا كَانَتْ أَكْثَرَ مُلاَءَمَةً، فَقَرَّرُوا التَّوَجُّهَ نَحْوَهَا، وَأَقْنَعُوا عَائِشَةَ أُمَّ المُؤْمِنِينَ بِالسَّيْرِ مَعَهُمْ، وَكَادَتْ أُمُّ المُؤْمِنِينَ حَفْصَةُ أَنْ تَخْرُجَ مَعَهُمْ لَوْلاَ أَنْ مَنَعَهَا أَخُوهَا عَبْدُ اللَّهِ بنُ عُمَرَ.

سَارَ المَوْكِبُ بِاتِّجَاهِ البَصْرَةِ، وَفِيهِ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ، وَأُمُّ المُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ وَكِبَارُ القَوْمِ أَمْثَالِ: عَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ

عَتَّابِ بنِ أُسَيْدٍ، وَقَد كَانَ أَبُوهُ وَالِياً عَلَى مَكَّةَ أَيَّامَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، وَعَبْدِ اللَّهِ بنِ عَامِرٍ، وَيَعْلَى بنِ أُمَيَّةَ، وَجَدِيرٌ بِهَـذَا الرَّكْبِ أَنْ تَتْبَعَهُ أَعْدَادٌ، وَأَنْ يُرَافِقَـهُ كَثِيرُونَ، وَأَنْ يَسِيرَ فِي رِكَابِهِ الرِّجَالُ.

تَحَرَّكَ هَذَا الرَّكْبُ وَعَدَدُ أَفْرَادِهِ يَزِيدُ عَلَى السَّبْعِمِائَةِ، وَإِذَا قَدْ رَجَعَ عَدَدٌ مِنْـهُ فِي الطَّـرِيقِ أَمْثَالِ المُغِيرَةِ بـنِ شُعْبَـةَ، وَسَعِيدِ بنِ العَاصِ، وَعَبْدِ اللَّهِ بنِ خَالِدِ بـنِ أُسَيْدٍ إلاَّ أَنَّ أَعْدَاداً مِنَ الأَعْرَابِ قَدْ تَبِعَتْهُمْ أَثْنَاءَ السَّيْرِ، حَتَّى وَصَلَ العَدَدُ إِلَى ثَلاثَةِ آلافٍ.

لَمْ يَنْتَبِهْ قَادَةُ الـرَّكْبِ إِلَـى خَطَـرِ هَذَا التَّجَمُّـعِ وَأَثَـرِ هَذَا السَّيْرِ، فَهُمْ يَسِيرُونَ إِلَى غَايَةٍ نَبِيلَةٍ، وَلاَ يُعَادُونَ أَحَداً، وَلاَ يُفَكِّرُونَ بِالخُـرُوجِ عَلَـى الخَلِيفَـةِ، فَبَيْعَتُهُـمْ قَدْ أَعْطَوْهَـا، وَأَخَذُوا الإِذْنَ مِنَ الإِمَامِ قَبْلَ الخُـرُوجِ، غَيْرَ أَنَّـهُ كَانَ فِي الوَاقِعِ انْشِقَاقاً فِي الصَّفِ، وَرُبَّمَا كَانَ أَوَّلَ انْشِقَاقٍ.

كَانَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ يَسْتَعِدُّ لِلْخُرُوجِ إِلَى الشَّامِ لأَخْذِ البَيْعَةِ إِنْ لَمْ يَكُنْ بِالرِّضَا فَبِالقُوَّةِ، وَأَرْسَلَ إِلَى وُلاَةِ الأَمْصَارِ لِيُوَافُوهُ بِالحَرَكَةِ إِلَى الشَّامِ، فِي هَذَا الوَقْتِ سَمِعَ بِسَيْرِ رَكْبِ طَلْحَةَ

وَالزُّبَيْرِ وَأُمِّ المُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ إِلَى العِرَاقِ ، فَخَرَجَ إِلَى الرَّبَذَةِ يُرِيدُ أَنْ يَحُولَ دُونَ انْطِلاَقِهِمْ إِلَى البَصْرَةِ إِلاَّ أَنَّهُمْ قَدْ فَاتُوهُ، فَسَارَ هُوَ أَيْضاً، وَوَصَلَ إِلَى ذِي قَارٍ وَعَسْكَرَ هُنَاكَ، وَجَاءَهُ أَهْلُ الكُوفَةِ.

وَصَلَ الرَّكْبُ إِلَى البَصْرَةِ، وَدَخَلَهَا عَبْدُ اللَّهِ بنُ عَامِرٍ وَالِيهَا القَدِيمِ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا، وَتَهَيَّأَ عَامِلُهَا عُثْمَانُ بنُ حُنَيْفٍ مِنْ قِبَلِ الخَلِيفَةِ عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ، وَكَادَ القِتَالُ أَنْ يَقَعَ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ ، إِلاَّ أَنَّ جَمَاعَةَ ابنِ حُنَيْفٍ قَدْ تَخَاذَلُوا وَاخْتَلَفَتْ آرَاؤُهُمْ، وَلاَ عَلاَقَةَ لِلْقِتَالِ بِالأُمُورِ العَامَّةِ، وَإِنَّمَا لِلإِذْنِ بِدُخُولِ المَدِينَةِ، وَتَسَلُّمِ الإِمْرَةِ.

التقَى الطَّرَفَانِ بِالمِرْبَدِ وَتَكَلَّمَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ، وَرَدَّ عَلَيْهِمُ ابنُ حُنَيْفٍ، وَكَادَ النَّاسُ يَقْتَتِلُونَ، ثُمَّ تَكَلَّمَتْ أُمُّ المُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ، فَمَالَ إِلَيْهَا بَعْضُ البَصْرِيينَ، وَأَنْشَبَ القِتَالَ حكِيمُ بنُ جَبَلَةَ العَبْدِيُّ قَائِدُ خَيْلِ البَصْرَةِ، وَهُوَ أَحَدُ الغَوْغَائِيينَ، ثُمَّ تَصَالَحَ الطَّرَفَانِ إِذْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمَا خِلاَفٌ فِي العَقِيدَةِ أَوْ فِي الفِكْرِ وَإِنَّما تَبَايُنٌ فِي وُجُهَاتِ النَّظَرِ فِي أُمُورٍ مَعَاشِيَّةٍ أَوْ اجْتِهَادٌ فِي الرَّأْيِ، وَلَمْ يَكُنْ أَحَدُهُمَا يَنْظُرُ إِلَى الآخَرِ نَظْرَةَ حِقْدٍ أَوْ عِدَاءٍ وَإِنَّمَا

نَظْرَةُ أُخُوَّةٍ وَتَبَايَنَتْ وِجْهَةُ نَظَرِهِما، وَكَانَ لِلْغَوْغَائِيينَ دَوْرٌ فِي زِيَادَةِ بُعْدِ الشُّقَّةِ بَيْنَ الجَانِبَيْنِ.

اتَّفَقَ الطَّرَفَانِ عَلَى أَنْ يَبْعَثَا رَسُولاً إِلَى المَدِينَةِ لِيَنْظُرَ هَلْ بَايَعَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ مُكْرَهَين أَمْ لاَ؟ فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ أَخْلَى عُثْمَانُ بنُ حُنَيْفٍ لَهُمَا البَصْرَةَ، وَإِنْ كَانَا قَدْ بَايَعَا عَنْ رِضًى خَرَجَا مِنَ البَصْرَةِ. وَيَبْقَى كُلٌّ فَرِيقٍ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ حَتَّى يَعُودَ الرَّسُولُ، وَيَنْزِلُ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ حَيْثُمَا شَاءَا وَمَنْ مَعَهُمَا، وَيُصَلِّي عُثْمَانُ بنُ حُنَيْفٍ بِالنَّاسِ، وَيَبْقَى بَيْتُ المَالِ تَحْتَ يَدِهِ وَلَهُ أَمْرُ البَصْرَةِ.

ذَهَبَ الرَّسُولُ وَهُوَ كَعْبُ بنُ ثَوْرٍ إِلَى المَدِينَةِ فَسَأَلَ أَهْلَهَا عَنْ بَيْعَةِ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ فَلَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ، وَأَجَابَهُ أُسَامَةُ بنُ زَيْدٍ أَنَّهُمَا بَايَعَا مُكْرَهَين، وَكَادَتْ تَحْدُثُ مُشْكِلَةٌ لِهَذَا الجَوَابِ. وَرَجَعَ كَعْبُ بنُ ثَوْرٍ بِالخَبَرِ، فَقَلَّ أَنْصَارُ ابنِ حُنَيْفٍ، وَعَاتَبَهُ الخَلِيفَةُ عَلَى تَصَرُّفِهِ، وَأَنَّ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ لَمْ يُجْبِرْهُمَا أَحَدٌ عَلَى البَيْعَةِ وَإِنَّما خَافَا الفِرْقَةَ.

وَأَلْقَى أَهْلُ الفِتْنَةِ القَبْضَ عَلَى ابنِ حُنَيْفٍ وَأَوْدَعُوهُ السِّجْنَ، وَنَتَفُوا لِحْيَتَهُ وَحَاجِبَيْهِ ثُمَّ تَرَكُوهُ فَسَارَ إِلَى الخَلِيفَةِ

حَيْثُ كَانَ قَدْ وَصَلَ إِلَى ذِي قَارٍ وَعَسْكَرَ هُنَاكَ. وَنَنْظُرُ إِلَى تَرْكِ ابن حُنَيْفٍ فَنَرَى أَنَّهُ لَمْ تَكُنْ هُنَاكَ عَدَاوَةٌ بَيْنَ الجَانِبَيْنِ وَإِنَّما خِلاَفٌ فِي وِجْهَةِ النَّظَرِ فَقَطْ فَلَوْ كَانَتْ هُنَاكَ عَدَاوَةٌ لَقَتَلُوا ابْنَ حُنَيْفٍ أَوْ لأَخَذُوهُ أَسِيراً عَلَى الأَقَلِّ فَهُوَ رَأْسُ أَحَدِ الطَّرَفَيْنِ. وَبِخُرُوجِ ابنِ حُنَيْفٍ مِنَ البَصْرَةِ غَدَتْ بِإِمْرَةِ عَبْدِ اللَّهِ بنِ عَامِرٍ الَّذِي يَسِيرُ بِرَأْيِ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ، فَقَتَلَ مَنْ كَانَ فِيهَا مِنْ أَصْحَابِ الفِتْنَةِ الَّذِينَ حَاصَرُوا عُثْمَانَ بنَ عَفَّانَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي الدَّارِ، وَلَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ سِوَى حُرْقُوصِ بنِ زُهَيْرٍ العَبْدِيِّ. كَمَا قُتِلَ حَكِيمُ بنُ جَبَلَةَ العَبْدِيُّ الَّذِي كَانَ مِن الغَوْغَائِيينَ، وَعَلَى رَأْسِ خَيْلِ البَصْرَةِ، وَقَدْ أَشْعَلَ نَارَ الفِتْنَةِ، وَحَرَّكَ نَارَ الحَرْبِ،وَبِهَذَا القَتْلِ انْدَلَعَتْ شَرَارَةُ الخِلاَفَاتِ بَيْنَ القَبَائِلِ.

أَرْسَلَ الخَلِيفَةُ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ القَعْقَاعَ بنَ عَمْرٍو التَّمِيمِيَّ إِلَى البَصْرَةِ، فَكَلَّمَ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ وَأُمَّ المُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ فَوَافَقُوا عَلَى الصُّلْحِ وَجَمْعِ الكَلِمَةِ إِنْ وَافَقَ الخَلِيفَةُ، وَرَجَعَ القَعْقَاعُ وَحَدَّثَ عَلِيّاً فَوَافَقَ وَسُرَّ بِذَلِكَ. وَذَهَبَتِ الوُفُودُ مِنَ البَصْرَةِ إِلَى مُعَسكَرِ الخَلِيفَةِ، وَأَوْشَكَ الخِلاَفُ عَلَى الانْتِهَاءِ، وَأَرَادَ الخَلِيفَةُ أَنْ يَرْتَحِلَ، وَقَالَ: أَلاَ مَنْ أَعَانَ عَلَى عُثْمَانَ بنِ عَفَّانَ فَلاَ يَرْتَحِلْ مَعَنَا.

شَعَرَ المُنْحَرِفُونَ أَنَّ الصُّلْحَ سَيَدُورُ عَلَيْهِمْ، وَسَتَنَالُهُمُ العُقُوبَةُ، فَتَسَاءَلُوا لِمَاذَا نُبْرِمُهُ عَلَى أَنْفُسِنَا؟ وَتَدَاوَلُوا الرَّأْيَ وَعَبْدُ اللَّهِ بنُ سَبَإٍ لاَ يُعْجِبُهُ رَأْيٌ حَتَّى تَوَصَّلُوا إِلَى ضَرُورَةِ إِشْعَالِ نَارِ الفِتْنَةِ فِيمَا إِذَا اقْتَرَبَ الطَّرَفَانِ بَعْضُهُمَا مِنْ بَعْضٍ. وَأَرْسَلَ عَلِيٌّ إِلَى طَلْحَةَ والزُّبَيْرِ ابْنَ عَمِّهِ عَبْدَ اللَّهِ بنَ عَبَّاسٍ، وَأَرْسَلَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ إِلَى عَلِيٍّ وَلَدَ طَلْحَةَ مُحَمَّداً، وَتَحَدَّثُوا فِيمَا يَكُونُ عَلَيْهِ أَمْرُ المُسْلِمِينَ.

رَحَلَ الخَلِيفَةُ بِمَنْ مَعَهُ وَبِأَهْلِ الكُوفَةِ مِنْ ذِي قَارٍ إِلَى البَصْرَةِ، وَعَسْكَرَ بِجَانِبِ مُعَسْكَرِ أَهْلِهَا، وَأَنْشَبَ المُنْحَرِفُونَ والغَوْغَائِيُّونَ القِتَالَ بِأَسْبَابٍ بَسِيطَةٍ، وَخَرَجَ الأَمْرُ مِنْ يَدِ الخَلِيفَةِ وَكِبَارِ رِجَالِهِ، وَمِنْ يَدِ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ وَكِبَارِ مَنْ مَعَهُمَا.

مَقْتَلُ طَلْحَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

خَرَجَ الخَلِيفَةُ بَيْنَ الصَّفَّيْنِ، وَنَادَى طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ فَكَلَّمَهُمَا، وَقَالَ لِلزُّبَيْرِ أَتَذْكُرُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ لَكَ: «. . . وَلَكِنَّكَ سَتُقَاتِلُهُ وَأَنْتَ لَهُ ظَالِمٌ»، قَالَ: تَذَكَّرْتُ ذَلِكَ، وَلَوْ كُنْتُ أَذْكُرُ مَا خَرَجْتُ. وَأَرَادَ الاعْتِزَالَ وَخَرَجَ عَلَى وَجْهِهِ، وَعِنْدَمَا وَصَلَ إِلَى وَادِي السِّبَاعِ غَدَرَ بِهِ ابنُ جُرْمُوزٍ وَقَتَلَهُ.

وَاسْتَطَاعَتِ السَّبَئِيَّةُ أَنْ تُنْشِبَ القِتَالَ إِذْ لاَحَظَتْ أَنَّ التَّأْخِيرَ يُؤَدِّي إِلَى التَّفَاهُمِ ، وَالتَقَى الجَانِبَانِ فِي المَعْرَكَةِ فِي مُنْتَصَفِ جُمَادَى الآخِرَةِ مِن عَامِ سِتَّةٍ وَثَلاَثِينَ لِلْهِجْرَةِ. وَاشْتَدَّتِ المَعْرَكَةُ أَمَامَ الجَمَلِ الَّذِي عَلَيْهِ هَوْدَجُ أُمِّ المُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ، وَعِنْدَمَا عُقِرَ الجَمَلُ انْفَرجَتِ المَعْرَكَةُ وَهُزِمَ أَهْلُ البَصْرَةِ.

وَأُصِيبَ طَلْحَةُ، وَجُرِحَ جُرْحاً بَلِيغاً بَدَأَ يَنْزِفُ مِنْهُ الدَّمُ، وَاسْتَمَرَّ فِي القِتَالِ، فَقَالَ لَهُ القَعْقَاعُ بنُ عَمْروٍ التَّمِيمِيُّ - وَهُوَ مِنْ قَادَةِ خُصُومِهِ -: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ إِنَّكَ جَرِيحٌ وَحَبَّذَا لَوْ دَخَلْتَ أَحَدَ البُيُوتَاتِ.

وَكَانَ مَقْتَلُ طَلْحَةَ فِي الخَامِسِ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ جُمَادى الآخِرَةِ سَنَةَ سِتٍّ وَثَلاَثِينَ لِلْهِجْرَةِ، كَمَا قُتِلَ فِي هَذِهِ المَعْرَكَةِ ابْنُهُ مُحَمَّدٌ.

اسْتَمَرَّتِ المَعْرَكَةُ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ، أَعْطَى أَهْلُ البَصْرَةِ بَعْدَهَا البَيْعَةَ لِلْخَلِيفَةِ، فَوَلَّى عَلَيْهِمْ عَبْدَ اللَّهِ بنَ عَبَّاسٍ ، وَسَارَ هُوَ إِلَى الكُوفَةِ لِيَسْتَعِدَّ لِلسَّيْرِ إِلَى الشَّامِ .

قَالَ عَلْقَمَةُ بنُ وَقَّاصٍ اللَّيْثِيُّ: رَأَيْتُ طَلْحَةَ، وَأَحَبُّ المَجَالِسِ إِلَيْهِ أَخْلاَهَا، وَهُوَ ضَارِبٌ بِلِحْيَتِهِ عَلَى زَوْرِهِ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ إِنِّي أَرَاكَ وَأَحَبُّ المَجَالِسِ إِلَيْكَ

أَخْلاَهَا، إنْ كُنْتَ تَكْرَهُ هَذَا الأَمْرَ فَدَعْهُ، فَقَالَ: يَا عَلْقَمَةُ، لاَ تَلُمْنِي، كُنَّا بِالأَمْسِ يَداً وَاحِدَةً عَلَى مَنْ سِوَانَا، فَأَصْبَحْنَا اليَوْمَ جَبَلَيْنِ مِنْ حَدِيدٍ، يَزْحَفُ أَحَدُنَا إِلَى صَاحِبِهِ، وَلَكِنَّهُ كَانَ مِنِّي شَيْءٌ فِي أَمْرِ عُثْمَانَ[1]، مِمَّا لاَ أَرَى كَفَّارَتَهُ إِلاَّ سَفْكَ دَمِي، وَطَلَبَ دَمِهِ[2].

وَرُوِيَ أَنَّ الخَلِيفَةَ عَلِيَّ بنَ أَبِي طَالِبٍ رَأَى طَلْحَةَ فِي وَادٍ مُلقى، فَنَزَلَ، فَمَسَحَ التُّرَابَ عَنْ وَجْهِهِ، وَقَالَ: عَزِيزٌ عَلَيَّ أَبَا مُحَمَّدٍ أَنْ أَرَاكَ مُجَدَّلاً فِي الأَوْدِيَةِ تَحْتَ نُجُومِ السَّمَاءِ، إِلَى اللَّهِ أَشْكُو عُجَرِي وَبُجَرِي.

وَرُوِيَ أَنَّ عَلِيّاً انْتَهَى إِلَى طَلْحَةَ وَقَدْ مَاتَ، فَنَزَلَ عَنْ دَابَّتِهِ وَأَجْلَسَهُ، وَمَسَحَ التُّرَابَ عَنْ وَجْهِهِ وَلِحْيَتِهِ، وَهُوَ يَتَرَحَّمُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا اليَوْمِ بِعِشْرِينَ سَنَةً.

رَوَى أَبُو حَبِيبَةَ مَوْلَى طَلْحَةَ فَقَالَ: دَخَلْتُ عَلَى عَلِيٍّ مَعَ عِمْرَانَ بن طَلْحَةَ بَعْدَ مَعْرَكَةِ الجَمَلِ، فَرَحَّبَ بِهِ وَأَدْنَاهُ ثُمَّ قَالَ: إِنِّي لأَرْجُو أَنْ يَجْعَلَنِيَ اللَّهُ وَأَبَاكَ مِمَّنْ قَالَ فِيهِمْ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ

---

(١) كان طلحة يلوم عثمان على لينه ويأخذ عليه ذلك.
(٢) أخرجه الحاكم ٣/ ٣٧٢.

مُتَقَـابِلِينَ﴾[1]. فَقَـالَ رَجُـلاَنِ جَالِسَـانِ أَحَدُهُمَـا الحَـارِثُ الأَعْوَرُ: اللَّهُ أَعْدَلُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَقْبَلَهُمْ وَيَكُونُوا إِخْوَانَـاً فِي الجَنَّةِ، قَالَ: قُومَا أَبْعَدَ أَرْضٍ وَأَسْحَقَهَا، فَمَنْ هُوَ إِذَا لَمْ أَكُنْ أَنَا وَطَلْحَةَ! يَا ابْنَ أَخِي: إِذَا كَانَتْ لَكَ حَاجَةٌ فَائِتِنَا[2].

وَحَدَّثَ رِبْعِيُّ بنُ حِرَاشٍ قَالَ: إِنِّي لَعِنْدَ عَلِيٍّ جَالِسٌ إِذْ جَاءَ ابْنُ طَلْحَةَ فَسَلَّمَ عَلَى عَلِيٍّ، فَرَحَّبَ بِهِ عَلِيٌّ، فَقَالَ: تُرَحِّبُ بِي يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ وَقَدْ قَتَلْتَ وَالِدِي وَأَخَذْتَ مَالِي؟ قَالَ: أَمَّـا مَالُكَ فَهُوَ مَعْزُولٌ فِي بَيْتِ المَالِ، فَاغْدُ إِلَـى مَالِكَ فَخُـذْهُ، وَأَمَّا قَوْلُكَ قَتَلْتَ أَبِي فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا وَأَبُوكَ مِنَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانَاً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾. فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ هَمَدَانَ أَعْوَرُ، اللَّهُ أَعْـدَلُ مِنْ ذَلِكَ، فَصَاحَ عَلِيٌّ صَيْحَةً تَدَاعَى لَهَا القَصْرُ، قَالَ: فَمَنْ ذَاكَ إِذَا لَمْ نَكُنْ نَحْنُ مِنْ أُولَئِكَ؟.

وَقَالَ أَبُو حُمَيْدَةَ عَلِيُّ بنُ عَبْدِ اللَّهِ الظَّاعِنِيُّ: لَمَّا قَدِمَ عَلِيٌّ الكُوفَةَ أَرْسَلَ إِلَى ابْنَيْ طَلْحَةَ بنِ عُبَيْدِ اللَّهِ فَقَـالَ لَهُمَـا: يَا ابْنَيْ أَخِي انْطَلِقَا إِلَى أَرْضِكُمَا فَاقْبِضَاهَا، فَإِنِّي إِنَّمَا قَبَضْتُهَـا

(١) سورة الحجر الآية ١٥.
(٢) ذكره ابن سعد، والطبري في تفسيره، وابن كثير في تفسيره.

لِئَلاً يَتَخَطَّفَهَا النَّاسُ، إِنِّي لأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا وَأَبُوكُمَا مِمَّنْ ذَكَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانَاً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾. قَالَ الحَارِثُ الأَعْوَرُ الهَمَـدَانِيُّ: اللَّهُ أَعْدَلُ مِنْ ذَلِكَ، فَأَخَذَ عَلِيٌّ بِمَجَامِعِ ثِيَابِهِ وَقَالَ: فَمَنْ، لاَ أُمَّ لَكَ.

وَرُوِيَ أَنَّ عَلِيَّاً قالَ: بَشِّرُوا قَاتِلَ طَلْحَةَ بِالنَّارِ.

شَخْصِيَّةُ طَلْحَةَ

كَانَ رَجُلاً آدَمَ[1] كَثِيرَ الشَّعْـرِ، لَيْسَ بِالجَعْـدِ القَطَـطِ وَلاَ بِالسَّبْطِ، حَسَنَ الوَجْهِ، دَقِيقَ العِرْنِينِ[2]، إِذَا مَشَى أَسْرَعَ، وَكَانَ لاَ يُغيِّرُ شَعْرَهُ.

كَانَ يَلْبَسُ الثِّيَابَ المَصْبُوغَةَ، وَيُحِبُّ مَا كَانَ مِنْهَا بِلَـوْنِ العُصْفُرِ، وَيُرْوَى أَنَّ عُمَرَ أَبْصَرَ طَلْحَةَ وَعَلَيْهِ ثَوْبَانِ مُمَشَّقَـانِ فَقَالَ: مَا هَذَا يَا طَلْحَةُ؟ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ إِنَّمَا هُوَ مَدَرٌ، فَقَالَ: إِنَّكُمْ أَيُّهَا الرَّهْطُ أَئِمَةٌ يُقْتَدَى بِكُمْ، وَلَوْ رَآكَ أَحَدٌ جَاهِلٌ قَالَ طَلْحَةَ يَلْبَسُ الثِّيَابَ المُصَبَّغَةَ وَهُوَ مُحْرِمٌ، وَإِنَّ أَحْسَنَ مَا يَلبسُ المُحْرِمُ البَيَاضَ، فَلاَ تَلْبِسُوا على النَّاسِ.

---

(١) آدم: أسمر.

(٢) العرنين: الأنف.

وَكَانَ كَثِيرَ المَالِ وَبَارَكَ اللَّهُ لَهُ فِيْهِ، وَكَانَ يُنْفِقُ الكَثِيرَ مِنْهُ عَلَى أَهْلِهِ، وَقَوْمِهِ والمُسْلِمِينَ. وَأَكْثَرُ أَمْوَالِهِ بِالعِرَاقِ، وَبِالسَّرَاةِ، وَبِأَرْضِ قَنَاةٍ. وَلاَ يَدَعْ أَحَداً مِنْ بَنِي تَيْمٍ عَائِلاً إِلاَّ كَفَاهُ مُؤُونَتَهُ وَمُؤُونَةَ عِيَالِهِ، وَزَوَّجَ أَيَامَاهُمْ، وَأَخْدَمَ عَائِلَهُمْ، وَقَضَى دَيْنَ غَارِمِهِمْ، وَلَقَدْ كَانَ يُرْسِلُ إِلَى أُمِّ المُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ.

تَقُولُ زَوْجُهُ سُعْدَى بِنْتُ عَوْفٍ المُرِّيَّةُ: دَخَلْتُ يَوْمَاً عَلَى طَلْحَةَ وَهُوَ خَائِرٌ، فَقُلْتُ: مَا لَكَ؟ أَرَابَكَ شَيْءٌ مِنْ أَهْلِكَ؟ قَالَ: لاَ وَاللَّهِ، وَنِعْمَ حَلِيلَةُ المُسْلِمِ أَنْتِ، وَلَكِنْ مَالٌ عِنْدِي أَغَمَّنِي، فَقُلْتُ: مَا يُغِمُّكَ؟ عَلَيْكَ بِقَوْمِكَ، قَالَ: يَا غُلاَمُ! ادْعُ لِي قَوْمِي، فَقَسَّمَهُ فِيهِمْ، فَسَأَلْتُ الخَازِنَ: كَمْ أَعْطَى؟ قَالَ: أَرْبَعَمِائَةِ أَلْفٍ.

وَبَاعَ طَلْحَةُ أَرْضَاً لَهُ مِنْ عُثْمَانَ بنِ عَفَّانَ بِسَبْعَمِائَةِ أَلْفٍ فَحَمَلَهَا إِلَيْهِ، فَلَمَّا جَاءَهُ بِهَا قَالَ: إِنَّ رَجُلاً تَبِيتُ عِنْدَهُ هَذِهِ فِي بَيْتِهِ لاَ يَدْرِي مَا يَطْرُقُهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ، فَبَاتَ وَرُسُلُهُ تَخْتَلِفُ بِهَا فِي سِكَكِ المَدِينَةِ حَتَّى أَسْحَرَ وَمَا عِنْدَهُ مِنْهَا دِرْهَمٌ وَاحِدٌ.

وَكَانَ يُغِلُّ كُلَّ سَنَةٍ مِنَ العِرَاقِ مِائَةَ أَلْفٍ سِوَى غَلاَّتِهِ مِنَ السَّرَاةِ وَغَيْرِهَا، وَلَقَدْ كَانَ يُدْخِلُ قُوتَ أَهْلِهِ بِالمَدِينَةِ سَنَتَهُمْ مِنْ

مَزْرَعَةٍ بِقَنَاةٍ كَانَ يَزْرَعُ فِيْهَا عَلَى عِشْرِينَ نَاضِحاً، وَأَوَّلُ مَنْ زَرَعَ القَمْحَ بِقَنَاةٍ هُوَ.

قَالَ قُبَيْصَةُ بنُ جَابِرٍ: مَا رَأَيْتُ أَحَداً أَعْطَى لِجَزِيلِ مَالٍ مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ مِنْ طَلْحَةَ بنِ عُبَيْدِ اللَّهِ.

وَقَالَ السَّائِبُ بنُ يَزِيدَ: صَحِبْتُ طَلْحَةَ بنَ عُبَيْدِ اللَّهِ فِي السَّفَرِ والحَضَرِ فَلَمْ أُخْبَرْ أَحَداً أَعَمَّ سَخَاءً عَلَى الدِّرْهَمِ والثَّوْبِ والطَّعَامِ مَنْ طَلْحَةَ.

وَقَالَ مُعَاوِيَةُ بنُ أَبِي سُفْيَانَ: عَاشَ طَلْحَةُ حَمِيداً سَخِيّاً شَرِيفاً وَقُتِلَ فَقِيراً.

وَعَنْ مُوسَى بنِ طَلْحَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ سَمَّاهُ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، طَلْحَةَ الخَيْرِ، وَفِي غَزْوَةِ العَشِيرَةِ طَلْحَةَ الفَيَّاضِ، وَيَوْمُ خيبرَ طَلْحَةَ الجُودِ.

وَجَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى طَلْحَةَ يَسْأَلُهُ، فَتَقَرَّبَ إِلَيْهِ بِرَحِمٍ فَقَالَ: إِنَّ هَذِهِ لَرَحِمٌ مَا سَأَلَنِي بِهَا أَحَدٌ قَبْلَكَ، إِنَّ لِي أَرْضاً قَدْ أَعْطَانِي بِهَا عُثْمَانُ ثَلاثَمِائَةِ أَلْفٍ، فَاقْبِضْهَا، وَإِنْ شِئْتَ بِعْتُهَا مِنْ عُثْمَانَ، وَدَفَعْتُ إِلَيْكَ الثَّمَنَ، فَقَالَ: الثَّمَنُ. فَأَعْطَاهُ.

رَوَى طَلْحَةُ عَنْ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ. وَلَهُ عِدَّةُ أَحَادِيثَ عَنِ

النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. لَهُ حَدِيثَانِ اتَّفَقَ عَلَيْهِمَا الشَّيْخَانِ، وَانْفَرَدَ البُخَارِيُّ لَهُ بِحَدِيثَيْنِ، وَمُسْلِمٌ بِثَلَاثَةِ أَحَادِيثَ. وَلَهُ فِي مُسْنَدِ بَقِيِّ بنِ مَخْلَدٍ ثَمَانِيَةٌ وَثَلَاثُونَ حَدِيثاً.

وَيُعَدُّ طَلْحَةُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مِنْ حُلَمَاءِ قُرَيْشٍ.

بُنَاة دَولَـةِ الإسْلام

٣٩

أبو طَلْحَة

زيْدُ بن سَهْلٍ

رضي الله عنه

أُسْرَتُهُ

هُوَ زَيْدُ بنُ سَهْلِ بنِ الأَسْوَدِ بنِ حَرَامِ بنِ عَمْرِو بنِ زَيْدِ مَنَاةِ بـنِ عَدِيٍّ بـنِ عَمْرِو بنِ مَالِكِ بـنِ النَّجَّـارِ مِنَ الخَزْرَجِ . فَهُوَ أَحَدُ سَادَاتِ الخَزْرَجِ وَأَشْرَافِ بَنِي النَّجَّارِ، وَيُعَدُّ بَنُو النَّجَّارِ أَوَّلَ بُطُونِ الخَزْرَجِ شَرَفاً، وَيَكْفِيهِمْ مَكْرُمَةً أَنَّهُمْ أَخْوَالُ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّـمَ، إِذْ أَنَّ أُمَّ جَدِّهِ عَبْدِ المُطَّلِبِ مِنْهُمْ وَهِيَ سَلْمَى بِنْتُ عَمْرٍو النَّجَّارِيَّةُ.

وَأُمُّهُ عُبَادَةُ بِنْتُ مَالِكِ بنِ عَدِيٍّ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ أيضاً.

وَزَوْجُهُ هِيَ أُمُّ سُلَيْمٍ بِنْتُ مِلْحَانَ بنِ خَالِدِ بنِ زَيْدِ بنِ حَرَامٍ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ أَيْضاً، وَقَدِ اخْتُلِفَ فِي اسْمِهَا، فَقَالَ ابنُ حَجَرٍ: اسْمُهَا سَهْلَةُ، وَيُقَالُ رُمَيْلَةُ، وَيُقَـالُ رُمَيْثَـةُ، وَيُقَـالُ أُنَيْثَةُ، وَيُقَالُ مُلَيْكَةُ. كَمَا وَرَدَ اسْمُهَا فِي صَحِيحِ البُخَـارِيِّ فِي حَدِيثِ ابْنِ المُنْكَدِرِ عَنْ جَابِرٍ بِالرُّمَيْصَاءِ، وَالحَدِيثُ، قَالَ

رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «دَخَلْتُ الجَنَّةَ فَإذَا أَنَا بالرُّمَيْصَاءِ امْرَأَةُ أَبِي طَلْحَةَ». كَمَا وَرَدَ الغُمَيْصَاءِ كَمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَنَسِ بن مَالِكٍ أَنَّ النَّبِيَّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «دَخَلْتُ الجَنَّةَ فَسَمِعْتُ خَشَفَةً[1]، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: هَذِهِ الغُمَيْصَاءُ بِنْتُ مِلْحَانَ أُمُّ أَنسِ بنِ مَالِكٍ»[2]. وَقَدْ أَسْلَمَتْ مُنْذُ أَخَذَ الإسْلاَمُ طَرِيقَهُ إلَى المَدِينَةِ، وَعَرَضَتْ عَلَى زَوْجِهَا مَالِكِ بنِ النَّضرِ الإسْلاَمَ فَأَبَى وَغَاضَبَهَا وَخَرَجَ إِلَى الشَّامِ فَهَلَكَ، فتزَوَّجَتْ أَبَا طَلْحَةَ بِشَرْطِ أَنْ يُسْلِمَ فَأَسْلَمَ وَذَلِكَ بَعْدَ بَيْعَةِ العَقَبَةِ الأُولَى وَقَبلَ الثَّانِيَةِ أَوْ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ قَبْلَ الهِجْرَةِ.

وَأَوْلاَدُهُ: عَبْدُ اللَّهِ، وَأَبو عُمَيْرٍ، وَأُمُّهُمَا أُمُّ سُلَيْمٍ، وَيَرْوِي أَنَسٌ أَنَّ النَّبِيَّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، دَخَلَ عَلَى أَبِي طَلْحَةَ فَرَأَى ابْنَاً لَهُ يُكَنَّى أَبَا عُمَيْرٍ حَزِيناً - قَالَ: وَكَانَ إِذَا رَآهُ مَازَحَهُ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: فَقَالَ: مَالِي أَرَى أَبَا عُمَيْرٍ حَزِيناً؟ قَالُوا: مَاتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ نُغَرُهُ الَّذِي كَانَ يَلْعَبُ بِهِ. قَالَ: فَجَعَلَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: أَبَا

---

(١) خشفة: صوت المشي.
(٢) المشهور أنّ اختها أمّ حرام زوج عبادة بن الصامت هي التي تسمّى الرميصاء.

عُمَيْرٍ مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ؟ .

إِسْلاَمُ أَبِي طَلْحَةَ

أَسْلَمَ أَبُو طَلْحَةَ عِنْدَمَا تَزَوَّجَ أُمَّ سُلَيْمٍ ، وَيَرْوِي لَنَا ابْنُهَا أَنَسُ بنُ مَالِكٍ قِصَّةَ ذَلِكَ الزَّوَاجِ . أَخْرَجَ الإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسٍ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَنَّ أَبَا طَلْحَةَ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خَطَبَ أُمَّ سُلَيْمٍ ، فَقَالَتْ:

أَلَسْتَ تَعْلَمُ أَنَّ إِلَهَكَ الَّذِي تَعْبُدُ نَبَتَ مِنَ الأَرْضِ ؟ .

قَالَ: بَلَى.

قَالَتْ: أَفَلاَ تَسْتَحِي تَعْبُدُ شَجَرَةً؟

إِنْ أَسْلَمْتَ فَإِنِّي لاَ أُرِيدُ مِنْكَ صِدَاقاً غَيْرَهُ.

قَالَ: حَتَّى أَنْظُرَ فِي أَمْرِي.

فَذَهَبَ ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ. فَقَالَتْ: يَا أَنَسُ زَوِّجْ أَبَا طَلْحَةَ. فَزَوَّجَهَا.

وَفِي سُنَنِ النَّسَائِي عَنْ أَنَسٍ قَالَ: خَطَبَ أَبُو طَلْحَةَ أُمَّ سُلَيْمٍ ، فَقَالَتْ: وَاللَّهِ مَا مِثْلُكَ يَا أَبَا طَلْحَةَ يُرَدُّ، وَلَكِنَّكَ رَجُلٌ كَافِرٌ وَأَنَا امْرَأَةٌ مُسْلِمَةٌ، وَلاَ يَحِلُّ لِي أَنْ أَتَزَوَّجَكَ، فَإِنْ تُسْلِمْ

فَذَاكَ مَهْرِي، وَمَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهُ، فَكَانَ ذَلِكَ مَهْرُهَا. قَالَ ثَابِتٌ فَمَا سَمِعْتُ بِامْـرَأَةٍ قَطُّ كَانَـتْ أَكْرَمَ مَهْـراً مِنْ أُمِّ سُلَيْمٍ، الإِسْلاَمُ، فَدَخَلَ بِهَا فَوَلَدَتْ لَهُ[1].

وَجَاءَ مَوْسِمُ خُرُوجِ الحُجَّـاجِ إِلَـى مَكَّةَ، وَسَـارَ الرَّكْبُ المَدَنِـيُّ، وَانْطَلَـقَ المُسْلِمُـونَ فِيْهِ، والمُشْـرِكُونَ فِيهِ لاَ يَعْرِفُونَهُمْ، وَكَانَ أَبُو طَلْحَةَ بَيْنَ المُسْلِمِينَ، وَالْتَقَى المُسْلِمُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي مِنَـىً بِالعَقَبَـةِ، وَبَايَعُوهُ بَيْعَةَ العَقَبَةِ الثَّانِيَةِ، وَكَانَ أَبُو طَلْحَةَ مِمَّنْ شَهِدَ هَذَا.

وَآخَى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَيْنَ أَبِي طَلْحَةَ وَبَيْنَ أَبِي عُبَيْدَةَ بنِ الجَرَّاحِ[2]. وَفِي رِوَايَةٍ بَيْنَ أَبِي طَلْحَةَ وَالأَرْقَمِ بنِ أَبِي الأَرْقَمِ[3].

الجِهَادُ

شَهِدَ أَبُو طَلْحَةَ المَشَاهِدَ كُلَّهَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَدْ شَهِدَ بَدْراً، وَأَبْلَى البَلاَءَ الحَسَنَ.

---

(١) باب التزويج على الإسلام ٣٣٤١.
(٢) صحيح مسلم.
(٣) طبقات ابن سعد.

وَحَضَرَ أُحُداً، وَكَانَ يَرْمِي بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالنَّبِيُّ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلاَةِ وَالسَّلاَمِ خَلْفَهُ يَتَتَرَّسُ بِهِ، وَكَانَ رَامِياً. وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذَا رَمَى أَبُو طَلْحَةَ، رَفَعَ بَصَرَهُ يَنْظُرُ أَيْنَ يَقَعُ سَهْمُهُ. فَكَانَ يَدْفَعُ صَدْرَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِيَدِهِ، وَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هكَذَا لاَ يُصِيبُكَ سَهْمٌ[1].

وَعَنْ أَنَسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ، انْهَزَمَ نَاسٌ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَبُو طَلْحَةَ بَيْنَ يَدَيْهِ مُجَوِّباً[2] عليهِ بِحَجَفَةٍ[3]، وَكَانَ رَامِياً شَدِيدَ النَّزْعِ، كَسَرَ يَوْمَئِذٍ قَوْسَيْنِ أَوْ ثَلاَثَةً. وَكَانَ الرَّجُلُ يَمُرُّ مَعَهُ الجُعْبَةُ مِنَ النَّبْلِ، فَيَقُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «انْثُرْهَا لأَبِي طَلْحَةَ». ثُمَ يُشْرِفُ عَلَى القَوْمِ. فَيَقُولُ أَبُو طَلْحَةَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، بِأَبِي أَنْتَ، لاَ تُشْرِفْ، لاَ يُصِيبُكَ سَهْمٌ، نَحْرِي دُونَ نَحْرِكَ.

قَالَ: فَلَقَدْ رَأَيْتُ عَائِشَةَ وَأُمَّ سُلَيْمٍ وَإِنَّهُمَا لَمُشَمِّرَاتٍ،

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٢٨٦، وابن سعد في الطبقات ٣/ ٥٠٦.
(٢) مجوباً: واقفاً دونه.
(٣) الحجفة: الترس من الجلد.

أَرَى خَدَمَ[1] سُوقِهِمَا، تَنْقُزَانِ[2] القِرَبَ عَلَى مُتُونِهِمَا، وَتُفْرِغَانِهَا فِي أَفْوَاهِ القَوْمِ، وَتَرْجِعَانِ فَتَمْلأَنِهَا. فَلَقَدْ وَقَعَ السَّيْفُ مِنْ يَدِ أَبِي طَلْحَةَ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثاً مِنَ النُّعَاسِ[3].

وَيَقُولُ أَبُو طَلْحَةَ: رَفَعْتُ رَأْسِي يَوْمَ أُحُدٍ فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ وَمَا مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ إِلاَّ يَمِيدُ تَحْتَ حَجَفَتِهِ مِنَ النُّعَاسِ[4].

وَشَهِدَ الخَنْدَقَ، وَالحُدَيْبِيَّةَ، وَخَيْبَرَ، وَالفَتْحَ.

وَرَوَى أَنَسٌ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ يَوْمَ حُنَيْنٍ: «مَنْ قَتَلَ قَتِيلاً فَلَهُ سَلَبُهُ» فَقَتَلَ أَبُو طَلْحَةَ يَوْمَئِذٍ عِشْرِينَ رَجُلاً، وَأَخَذَ أَسْلابَهُمْ[5].

وَلَقِيَ أَبُو طَلْحَةَ يَوْمَ حُنَيْنٍ زَوْجَهُ أُمَّ سُلَيْمٍ وَمَعَهَا خَنْجَرٌ، فَقَالَ: يَا أُمَّ سُلَيْمٍ مَا هَذَا الَّذِي مَعَكِ؟ قَالَتْ: أَرَدْتُ وَاللَّهِ إِنْ دَنَا مِنِّي بَعْضُهُمْ أَنْ أَبْعَجَ بِهِ بَطْنَهُ، فَأَخْبَرَ أَبُو طَلْحَةَ بِذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) خدم السوق: موضع الخلخال.
(٢) تنقزان: تثبتان.
(٣) أخرجه البخاري ٧/ ٢٧٨، ٢٧٩.
(٤) أخرجه البخاري، والنسائي، وابن ماجه.
(٥) أخرجه أبو داود ٢٧١٨ في باب الجهاد، والدارمي ٢/ ٢٢٩.

وتُوفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ عَنْهُ رَاضٍ.

وَاسْتَمَرَّ فِي الجِهَادِ أَيَّامَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، وَأَرَادَ الجِهَادَ أَيَّامَ عُثْمَانَ بَعْدَ أَنْ قَرَأَ سُورَةَ التَّوْبَةِ وَفِيْهَا: ﴿انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1]، فَقَالَ: أَرَى رَبِّي يَسْتَفِزُّنِي شَاباً وَشَيْخاً، وَطَلَبَ مِنْ أَبْنَائِهِ أَنْ يُجَهِّزُوهُ، فَقَالُوا: غَزَوْتَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَتَّى قُبِضَ وَمَعَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، وَالآنَ نَحْنُ نَغْزُو عَنْكَ، قَالَ: جَهِّزُونِي فَرَكِبَ البَحْرَ فَمَاتَ، فَلَمْ يَجِدُوا لَهُ جَزِيرَةً لِيَدْفُنُوهُ إِلاَّ بَعْدَ سَبْعَةِ أَيَّامٍ فَلَمْ يَتَغَيَّرْ.

وَعِنْدَمَا عَيَّنَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رِجَالَ الشُّورَى بَعْدَ أَنْ طُعِنَ أَرْسَلَ إِلَى أَبِي طَلْحَةَ وَقَالَ لَهُ: كُنْ فِي خَمْسِينَ مِنْ قَوْمِكَ مِنَ الأَنْصَارِ مَعَ هَؤُلاَءِ النَّفَرِ أَصْحَابِ الشُّورَى فَإِنَّهُمْ فِيمَا أَحْسَبُ سَيَجْتَمِعُونَ فِي بَيْتِ أَحَدِهِمْ فَقُمْ عَلَى البَابِ بِأَصْحَابِكَ، فَلاَ تَتْرُكْ أَحَداً يَدْخُلُ عَلَيْهِمْ، وَلاَ تَتْرُكْهُمْ يَمْضِي اليَوْمُ الثَّالِثُ حَتَّى يُؤَمِّرُوا أَحَدَهُمْ، وَقُمْ عَلَى

---

(١) سورة التوبة الآية ٤٣.

رُؤُوسِهِمْ، فَإِنِ اجْتَمعَ خَمْسَةٌ وَرَضُوا رَجُلاً وَأَبَى وَاحِدٌ فَاشْدَخْ رَأْسَهُ بِالسَّيْفِ، وَإِنِ اتَّفَقَ أَرْبَعَةٌ وَرَضُوا رَجُلاً مِنْهُمْ وَأَبَى اثْنَانِ فَاضْرِبْ رُؤُوسَهُمَا، فَإِنْ رَضِيَ ثَلاَثَةٌ رَجُلاً مِنْهُمْ وَثَلاَثَةٌ رَجُلاً فَحَكِّمُوا عَبْدَ اللَّهِ بنَ عُمَرَ فَأَيُّ الفَرِيقَيْنِ حَكَمَ لَهُ فَلْيَخْتَارُوا رَجُلاً مِنْهُمْ، فَإِنْ لَمْ يَرْضُوا بِحُكْمِ عَبْدِ اللَّهِ بنِ عُمَرَ فَكُونُوا مَعَ الَّذِينَ فِيهِمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنِ عَوْفٍ، وَاقْتُلُوا البَاقِينَ إِنْ رَغِبُوا عَمَّا اجْتَمَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ، وَلاَ يَحْضُرُ اليَوْمُ الرَّابِعُ إِلاَّ وَعَلَيْكُمْ أَمِيرٌ مِنْكُمْ، اللَّهُمَّ أَنْتَ خَلِيفَتِي فِيهِمْ. وَقَدْ لَزِمَ أَبُو طَلْحَةَ أَصْحَابَ الشُّورَى بَعْدَ دَفْنِ عُمَرَ حَتَّى بُويِعَ عُثْمَانُ بنُ عَفَّانَ.

وَهَذَا مَا يَدُلُّ عَلَى مَكَانَةِ أَبِي طَلْحَةَ إِذْ جَعَلَهُ عُمَرُ عَلَى رِجَالِ الشُّورَى وَهُمْ صَفْوَةُ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

شَخْصِيَّةُ أَبِي طَلْحَةَ

وُلِدَ أَبُو طَلْحَةَ قَبْلَ الهِجْرَةِ بِسِتٍّ وَثَلاَثِينَ سَنَةً فَهُوَ إِذَنْ أَصْغَرُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِسَبْعِ عَشَرَةَ سَنَةً.

كَانَ آدَمَ مَرْبُوعاً لاَ يُغَيِّرُ شَيْبَهُ.

كَانَ صَيِّتاً، وَقَالَ فِيْهِ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صَوْتُ أَبِي طَلْحَةَ فِي الجَيْشِ خَيْرٌ مِنْ فِئَةٍ».

كَانَ رَامِيَاً مَاهِرَاً، وَإِذَا بَقِيَ مَعَ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، جَثَا بَيْنَ يَدَيْهِ، وَقَالَ: نَفْسِي لِنَفْسِكَ الفِدَاءُ، وَوَجْهِي لِوَجْهِكَ الوِقَاءُ. وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ:

أَنَا أَبُو طَلْحَةَ وَاسْمِي زَيْدُ
وَكُلُّ يَوْمٍ فِي سِلاَحِي صَيْدُ

وَكَانَ ثَرِيَّاً كَرِيمَاً، وَيُعَدُّ أَكْثَرَ الأَنْصَارِ نَخْلاً، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِليَّ بَيْرُحَاءُ، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لِلَّهِ، أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا، فَضَعْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، حَيْثُ أَرَاكَ اللَّهُ. فَقَالَ: «بَخٍ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الأَقْرَبِينَ».

وَكَانَ جَلْدَاً يَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنِّي جَلْدٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَوَجِّهْنِي فِي حَوَائِجِكَ، وَمُرْنِي بِمَا شِئْتَ.

وَكَانَ رَجُلاً عَابِدَاً، فَقَدْ أَمْضَى حَيَاتَهُ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، صَائِمَاً، لاَ يَفْطُرُ إِلاَّ فِي مَرَضٍ أَوْ سَفَرٍ، وَفِي عِيدَيْ الفِطْرِ وَالأَضْحَى.

وَكَانَ يَخْشَى اللَّهَ كَثِيراً، وَكَانَتْ زَوْجَتُهُ أُمُّ سُلَيْمٍ صَالِحَةً تُسَاعِدُهُ عَلَى ذَلِكَ، قَالَ أَنسٌ: مَاتَ ابنٌ لأَبِي طَلْحَةَ مِنْ أُمِّ سُلَيْمٍ، فَقَالَتْ لأَهْلِهَا: لاَ تُحَدِّثُوا أَبَا طَلْحَةَ بِابْنِهِ حَتَّى أَكُونَ أَنَا أُحَدِّثُهُ قَالَ: فَجَاءَ، فَقَرَّبَتْ إِلَيْهِ عَشَاءً، فَأَكَلَ وَشَرِبَ. فَقَالَ: ثُمَّ تَصَنَّعَتْ لَهُ أَحْسَنَ مَا كَانَتْ تَصَنَّعُ قَبْلَ ذَلِكَ فَوَقَعَ بِهَا، فَلَمَّا رَأَتْ أَنَّهُ قَدْ شَبِعَ وَأَصَابَ مِنْهَا، قَالَتْ: يَا أَبَا طَلْحَةَ أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ قَوْماً أَعَارُوا عَارِيَتَهُمْ أَهْلَ بَيْتٍ ثُمَّ طَلَبُوا عَارِيَتَهُمْ أَلَهُمْ أَنْ يَمْنَعُوهُمْ؟ قالَ لاَ. قَالَتْ: فَاحْتَسِبْ ابْنَكَ.

قَالَ: فَغَضِبَ، وَقَالَ: تَرَكْتِنِي حَتَّى تَلَطَّخْتُ ثُمَّ أَخْبَرْتِنِي بِابْنِي؟.

فَانْطَلَقَ حَتَّى أَتَى رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخْبَرَهُ بِمَا كَانَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَارَكَ اللَّهُ لَكُمَا فِي غَابِرِ لَيْلَتِكُمَا».

قَالَ: وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي سَفَرٍ، وَأَبُو طَلْحَةَ مَعَهُ فِي الرَّكْبِ، وَمَعَهُ زَوْجُهُ أُمُّ سُلَيْمٍ. وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذَا أَتَى المَدِينَةَ مِنْ سَفَرٍ لاَ يَطْرُقُهَا طُرُوقاً[1]، فَدَنَوْا مِنَ المَدِينَةِ فَضَرَبَ أُمَّ سُلَيْمٍ

---

(١) لا يطرقها طروقاً: لا يدخلها في الليل.

المَخَاضُ[1]، فَاحْتَبَسَ عَلَيْهَا أَبُو طَلْحَةَ، وَانْطَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قالَ: كَانَ أَبُو طَلْحَةَ يَقُولُ: إِنَّكَ تَعْلَمُ يَا رَبُّ أَنَّهُ يُعْجِبُنِي أَنْ أَخْرُجَ مَعَ رَسُولِكَ إِذَا خَرَجَ وَأَدْخُلَ مَعَهُ إِذَا دَخلَ، وَقَدْ احْتَبَسْتُ بِمَا تَرى. قَالَ: فَتَقُولُ لَهُ أُمُّ سُلَيْمٍ: يَا أَبَا طَلْحَةَ مَا أَجِدُ الَّذِي كُنْتُ أَجِدُ. انْطَلِقْ فَانْطَلَقْنَا، قَالَ: وَضَرَبَهَا المَخَاضُ حِينَ قَدِمَا المَدِينَةَ. فَقَالَتْ لِي أُمِّي: يَا أَنَسُ لاَ يُرْضِعُهُ أَحَدٌ حَتَّى تَغْدُوَ بِهِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

فَلَمَّا أَصْبَحْنَا احْتَمَلْتُهُ فَانْطَلَقْتُ بِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: فَصَادَفْتُهُ وَمَعَهُ مَيْسِمٌ[2]. فَلَمَّا رَآنِي قَالَ: «لَعَلَّ أُمَّ سُلَيْمٍ وَلَدَتْ». قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: وَجِئْتُ بِهِ فَوَضَعَهُ فِي حِجْرِهِ، وَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِعَجْوَةٍ مِنْ عَجْوَةِ المَدِينَةِ فَلاَكَهَا فِي فِيْهِ حَتَّى ذَابَتْ، ثُمَّ قَذَفَهَا فِي فِي الصَّبِيِّ. فَجَعَلَ الصَّبِيُّ يَتَلَمَّظُهَا، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «انْظُرُوا حُبَّ الأَنْصَارِ التَّمْرَ». قَالَ: فَمَسَحَ وَجْهَهُ وَسَمَّاهُ عَبْدَ اللَّهِ[3].

---

(١) المخاض: ألم الوضع.
(٢) الميسم: أداة يكوى بها الحيوان.
(٣) أخرجه مسلم. وبارك اللَّه في هذا المولود فكان له عشرة أولاد كلهم أهل علم.

رَوَى عَنِ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، نَيِّفاً وَعِشْرِينَ حَدِيثاً: مِنْهَا حَدِيثَانِ فِي الصَّحِيحَيْنِ، وَتَفَرَّدَ البُخَارِيُّ بِحَدِيثٍ، وَمُسْلِمٌ بِحَدِيثٍ.

وَرَوَى عَنْهُ رَبِيبُهُ أَنَسُ بنُ مَالِكٍ، وَابْنُ عَبَّاسٍ، وَزَيْدُ بنُ خَالِدٍ الجُهَنِيُّ، وَابْنُهُ أَبُو إِسْحَاقَ عَبْدُ اللَّهِ بنُ طَلْحَةَ.

وَتُوفِّيَ فِي المَدِينَةِ عَامَ ٣٤ هـ، وَصَلَّى عَلَيْهِ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عُثْمَانُ بنُ عَفَّانَ، وَعُمْرُهُ يَوْمَذَاكَ سَبْعُونَ عَاماً، وَهُنَاكَ رِوَايَةٌ أَنَّهُ تُوفِّيَ فِي البَحْرِ - كَمَا سَبَقَ أَنْ أَلْمَحْنَا - وَهِيَ رِوَايَةٌ مَرْجُوحَةٌ، كَمَا أَنَّ هُنَاكَ اخْتِلَافاً فِي سَنَةِ وَفَاتِهِ.

بُنَاة دَوْلَةِ الإسْلام

٤٠

أبو دُجَانَة

سِماكُ بن خَرَشَة

رضي الله عنه

أُسْرَتُهُ

هُوَ سِمَاكُ بنُ خَرَشَةَ بنِ لَوْذَانَ بنِ عَبْدِ وُدٍّ بنِ زَيْدٍ السَّاعِدِيُّ الخَزْرَجِيُّ. وَأُمُّهُ حَزْمَةُ بِنْتُ حَرْمَلَةَ مِنْ بَنِي زِعْبٍ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ بنِ مَنْصُورٍ.

تَزَوَّجَ آمِنَةَ بِنْتَ عَمْرِو بنِ الأَجَشِّ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ، وَأَنْجَبَتْ لَهُ وَلَدَهُ خَالِداً.

إِسْلَامُهُ

أَسْلَمَ أَبُو دُجَانَةَ مُنْذُ أَنْ أَخَذَ الإِسْلَامُ طَرِيقَهُ إِلَى المَدِينَةِ بَعْدَ بَيْعَةِ العَقَبَةِ الأُولَى.

وعِنْدَمَا هَاجَرَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَآخَى بَيْنَ المُسْلِمِينَ آخَى بَيْنَ أَبِي دُجَانَةَ وَبَيْنَ عُتْبَةَ بنِ غَزْوَانَ.

جِهَادُهُ

شَهِدَ أَبُو دُجَانَةَ المَشَاهِدَ كُلَّهَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانَ يُعْلَمُ بِالزُّحُوفِ بِعِصَابَةٍ حَمْرَاءَ. وَكَانَتْ عَلَيْهِ يَوْمَ بَدْرٍ.

وَحَضَرَ أُحُداً، وَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سَيْفاً قَبْلَ المَعْرَكَةِ، وَقَالَ: مَنْ يَأْخُذُ هَذَا السَّيْفَ بِحَقِّهِ؟ فَقَامَ إِلَيْهِ رِجَالٌ، فَأَمْسَكَهُ عَنْهُمْ حَتَّى قَامَ إِلَيْهِ أَبُو دُجَانَةَ سِمَاكُ بنُ خَرَشَةَ، فَقَالَ: وَمَا حَقُّهُ؟ قَالَ: أَنْ تَضْرِبَ بِهِ العَدُوَّ حَتَّى يَنْحَنِيَ، قَالَ: أَنَا آخُذُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ بِحَقِّهِ، فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ. فَلَمَّا أَخَذَ السَّيْفَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَخْرَجَ عِصَابَتَهُ الحَمْرَاءَ، فَعَصَبَ بِهَا رَأْسَهُ، وَجَعَلَ يَتَبَخْتَرُ بَيْنَ الصَّفَّيْنِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حِينَ رأى أَبُو دُجَانَةَ يَتَبَخْتَرُ: «إِنَّهَا لَمِشْيَةٌ يَبْغُضُهَا اللَّهُ، إلاَّ فِي هَذَا المَوْطِنِ». فَقَاتَلَ أَبُو دُجَانَةَ حَتَّى أَمْعَنَ فِي النَّاسِ.

وَرُوِيَ أَنَّ الزُّبَيْرَ بنَ العَوَّامِ قَالَ: وَجِدْتُ فِي نَفْسِي حِينَ سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، السَّيْفَ فَمَنَعْنِيهِ وَأَعْطَاهُ أَبَا دُجَانَةَ، وَقُلْتُ: أَنَا ابنُ صَفِيَّةَ عَمَّتِهِ، وَمِنْ قُرَيْشٍ، وَقَدْ قُمْتُ إِلَيْهِ فَسَأَلْتُهُ إِيَّاهُ قَبْلَهُ، فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ وَتَرَكَنِي،

وَاللَّهِ لَأَنْظُرَنَّ مَا يَصْنَعُ؛ فَاتَّبَعْتُهُ، فَأَخْرَجَ عِصَابَةً لَهُ حَمْرَاءَ، فَعَصَبَ بِهَا رَأْسَهُ، فَقَالَتِ الأَنْصَارُ: أَخْرَجَ أَبُو دُجَانَةَ عِصَابَةَ المَوْتِ، وَهَكَذَا كَانَتْ تَقُولُ لَهُ إِذَا تَعَصَّبَ بِهَا. فَخَرَجَ وَهُوَ يَقُـولُ:

أَنَـا الَّـذِي عَاهَدَنِـي خَلِيلِي
وَنَحْـنُ بِالسَّفْـحِ لَدَى النَّخِيلِ
أَلاَّ أَقُـومَ الدَّهْـرَ فِي الكُيُّولِ[1]
أَضْـرِبُ بِسَيْفِ اللَّـهِ والرَّسُولِ

فَجَعَلَ لاَ يَلْقَى أَحَداً إِلاَّ قَتَلَهُ، وَكَانَ فِي المُشْرِكِينَ رَجُلٌ لاَ يَدَعُ لَنَا جَرِيحاً إِلاَّ ذَفَّفَ[2] عَلَيْهِ، فَجَعَلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَدْنُو مِنْ صَاحِبِهِ. فَدَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَهُمَا، فَالْتَقَيَا فَاخْتَلَفَا ضَرْبَتَيْنِ، فَضَرَبَ المُشْرِكُ أَبَا دُجَانَةَ، فَاتَّقَاهُ بِدَرَقَتِهِ، فَعَضَّتْ بِسَيْفِهِ، وَضَرَبَهُ أَبُو دُجَانَةَ فَقَتَلَهُ، ثُمَّ رَأَيْتُـهُ قَدْ حَمَـلَ السَّيْفَ عَلَى مَفْرِقِ هِنْدَ بِنْتِ عُتْبَةَ، ثُمَّ عَدَلَ السَّيْفُ عَنْهَا قَالَ الزُّبَيْرُ: فَقُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

وَقَـالَ أَبُـو دُجَانَـةَ: رَأَيْتُ إِنْسَانـاً يَخْمِشُ النَّـاسَ خَمْشـاً

---

(١) الكيّول: آخر الصفوف في الحرب.
(٢) ذفف عليه: أجهز عليه.

شَدِيداً، فَصَمَدْتُ لَهُ، فَلَمَّا حَمَلْتُ عَلَيْهِ السَّيْفَ وَلْوَلَ، فإِذَا امْرَأَةٌ، فَأَكْرَمْتُ سَيْفَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنْ أَضْرِبَ بِهِ امْرَأَةً[1].

وَتَرَّسَ أَبُو دُجَانَةَ يَوْمَ أُحُدٍ حِينَ وَلَّى النَّاسُ دُونَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِنَفْسِهِ، يَقَعُ النَّبْلُ عَلَى ظَهْرِهِ، وَهُوَ مُنْحَنٍ عَلَيْهِ، حَتَّى كَثُرَ النَّبْلُ فِيهِ.

وَانْتَهَتْ مَعْرَكَةُ أُحُدٍ، وَلَمَّا انْتَهَى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَى أَهْلِهِ نَاوَلَ سَيْفَهُ ابْنَتَهُ فَاطِمَةَ، فَقَالَ: اغْسِلِي عَنْ هَذَا دَمَهُ يَا بُنَيَّةُ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ صَدَقَنِي اليَوْمَ. وَنَاوَلَهَا عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ سَيْفَهَ، وَقَالَ: وَهَذَا أَيْضاً، فَاغْسِلِي عَنْهُ دَمَهُ، فَوَاللَّهِ صَدَقَنِي اليَوْمَ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلىَّ اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ: لَئِنْ كُنْتَ صَدَقْتَ القِتَالَ لَقَدْ صَدَقَ مَعَكَ سَهْلُ بنُ حُنَيْفٍ وَأَبُو دُجَانَةَ.

وَكَانَ أَبُو دُجَانَةَ بِجَانِبِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي المَوَاقِفِ كُلِّهَا. وَلَمَّا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَى حَجَّةِ الوَدَاعِ، جَعَلَ عَلَى المَدِينَةِ فِي إِحْدَى الرِّوَايَاتِ أَبَا دُجَانَةَ. وَهَذا مَا يَدُلُّ أَيْضاً عَلَى عُلُوِّ

---

(١) سيرة ابن هشام.

مَنْزِلَتِهِ بَيْنَ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَتُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ عَنْهُ رَاضٍ.

وَتَوَلَّى أَبُو بَكْرٍ أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ فَارْتَدَّتْ أَكْثَرُ الْعَرَبِ، فَجَهَّزَ الصِّدِّيقُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لَهُمُ الْجُيُوشَ، وَسَارَ الْمُجَاهِدُونَ إِلَى كُلِّ جِهَةٍ قَامَتْ فِيهَا رِدَّةٌ، وَكَانَ أَبُو دُجَانَةَ مِمَّن سَارَ إِلَى الْيَمَامَةِ لِقِتَالِ مُسَيْلَمَةَ الْكَذَّابِ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ قَوْمِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُ.

وَكَانَتْ مَعْرَكَةُ الْيَمَامَةِ مَعْرَكَةً طَاحِنَةً، وَكَادَ الْكُفَّارُ أَنْ يَحْصُلُوا عَلَى شَيْءٍ إِلاَّ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ حَمَلُوا حَمْلَةً صَادِقَةً دَحَرُوا فِيهَا الْعَدُوَّ وَأَلْجَؤُوهُمْ إِلَى حَدِيقَةِ الْمَوْتِ، وَفِيهَا عَدُوُّ اللَّهِ مُسَيْلَمَةُ، وَأَغْلَقَ الْكُفَّارُ عَلَيْهِمُ الْحَدِيقَةَ، وَأَحَاطَ بِهِمُ الصَّحَابَةُ، وَقَالَ الْبَرَاءُ بنُ مَالِكٍ: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ أَلْقُونِي عَلَيْهِمْ فِي الْحَدِيقَةِ، فَاحْتَمَلُوهُ فَوْقَ الْحَجَفِ[1] وَرَفَعُوهَا بِالرِّمَاحِ حَتَّى أَلْقَوْهُ عَلَيْهِمْ مِنْ فَوْقِ سُورِهَا، فَلَمْ يَزَلْ يُقَاتِلُهُمْ دُونَ بَابِهَا حَتَّى فَتَحَهُ، وَدَخَلَ الْمُسْلِمُونَ الْحَدِيقَةَ مِنْ

---

(١) الحجف: التروس من الجلد.

بَابِهَا وَمِنْ حِيطَانِهَا يُقَاتِلُونَ مَنْ فِيهَا مِنَ المُرْتَدَّةِ مِنْ أَهْلِ اليَمَامَةِ. وَكَانَ أَبُو دُجَانَةَ قَدْ تَسَلَّقَ الجِدَارَ وَنَزَلَ إِلَى الحَدِيقَةِ فَكُسِرَتْ رِجْلُهُ، وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ يُبَالِي وَرُبَّمَا لَمْ يَشْعُرْ بِالأَلَمِ الَّذِي أَصَابَهُ إِذْ كَانَ تَفْكِيرُهُ مُنْصَبّاً عَلَى القَضَاءِ عَلَى أَهْلِ الرِّدَّةِ لِلتَّمْكِينِ لِلإِسْلَامِ، وَلِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ العُلْيَا، وَهَذِهِ مُهِمَّةُ المُسْلِمِ فِي الحَيَاةِ، ثُمَّ كَانَ حَرِيصاً عَلَى الشَّهَادَةِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَنَسِيَ مَا هُوَ فِيهِ مِنَ الأَلَمِ، وَاسْتَمَرَّ يُقَاتِلُ حَتَّى خَلَصَ المُسْلِمُونَ إِلَى مُسَيْلَمَةَ ـ لَعَنَهُ اللَّهُ ـ وَكَانَ وَاقِفاً فِي ثُلْمَةِ جِدَارٍ فَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ وَحْشِيٌّ ـ قَاتِلُ حَمْزَةَ ـ فَرَمَاهُ بِحَرْبَتِهِ فَلَمْ يُخْطِئْهُ فَأَصَابَتْهُ وَخَرَجَتْ مِنَ الجَانِبِ الآخَرِ، وَسَارَعَ إِلَيْهِ أَبُو دُجَانَةَ، فَضَرَبَهُ بِالسَّيْفِ فَسَقَطَ.

وَشَعَرَ أَبُو دُجَانَةَ بِالنَّصْرِ إِذْ حَقَّقَ أَوَّلَ هَدَفٍ وَهُوَ إِعْلَاءُ كَلِمَةِ اللَّهِ بِقَتْلِ عَدُوِّ اللَّهِ مُسَيْلَمَةَ. وَمَا دَامَ النَّصْرُ قَدْ تَمَّ فَإِنَّ الشَّهَادَةَ يُسْعَى إِلَيْهَا ـ وَقَدْ أَصْبَحَ قَرِيباً مِنْهَا إِذْ كُسِرَتْ رِجْلُهُ وَلَمْ يَعُدْ بِإِمْكَانِهِ مُقَارَعَةَ الأَبْطَالِ الَّذِينَ يُحِيطُونَ بِهِ فَاسْتَمَرَّ فِي القِتَالِ حَتَّى سَقَطَ شَهِيداً فِي السَّاحَةِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي سَنَةِ اثْنَتَي عَشْرَةَ مِنَ الهِجْرَةِ.

شَخْصِيَّةُ أَبِي دُجَانَةَ

كَانَ أَبُو دُجَانَةَ امْرَأً قَلِيلَ المَالِ غَنِيَّ النَّفْسِ . وَلَمَّا سَأَلَ بَنُو النَّضِيرِ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنْ يُجْلِيَهُمْ، وَأَنْ يَكُفَّ عَنْ دِمَائِهِمْ، عَلَى أَنَّ لَهُمْ مَا حَمَلَتِ الإِبِلُ مِنَ الأَمْوَالِ إِلاَّ السِّلاَحِ ، وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ قَذَفَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ، فَفَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَقَدْ تَرَكُوا بَعْدَ أَنْ أَجْلُوا أَمْوَالاً، وَكَانَتْ هَذِهِ الأَمْوَالُ خَاصَّةً بِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَضَعُهَا حَيْثُ يَشَاءُ. وَذَلِكَ عَلَى أَنَّهَا مِنَ الفَيْءِ أُخِذَتْ مِنْ غَيْرِ قِتَالٍ ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلاَ رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي القُرْبَى وَاليَتَامَى وَالمَسَاكِينِ وابنِ السَّبِيلِ كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ، وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّه شَدِيدُ العِقَابِ﴾[١]. فَقَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الأَمْوَالَ عَلَى المُهَاجِرِينَ دُونَ الأَنْصَارِ. إِلاَّ أَنَّهُ قَدْ أَعْطَى سَهْلَ بنَ حُنَيْفٍ وَأَبَا دُجَانَةَ لِمَا كَانَا

---

(١) سورة الحشر الآيتان ٦ و ٧.

عَلَيْهِ مِنَ الفقْرِ.

وَكَانَ قَلِيلَ الكَلاَمِ لاَ يَتَحَدَّثُ إلاَّ إذَا سُئِلَ أَوْ إذَا دَعَتِ الحَاجَةُ إلَى الكَلاَمِ ، وَكَانَ يُرِيدُ الخَيْرَ لِلْمُسْلِمِينَ جَمِيعَاً ، لَيْسَ فِي صَدْرِهِ شَيْءٌ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ. قَالَ زَيْدُ بنُ أَسْلَمَ : دُخِلَ عَلَى أَبِي دُجَانَةَ وَهُوَ مَرِيضٌ، وَكَانَ وَجْهُهُ يَتَهَلَّلُ، فَقِيلَ لَهُ : مَا لِوَجْهِكَ يَتَهَلَّلُ؟ فَقَالَ : مَا مِنْ عَمَلِ شَيْءٍ أَوْثَقُ عِنْدِي مِن اثْنَتَيْنِ : كُنْتُ لاَ أَتَكَلَّمُ فِيمَا لاَ يُعْنِينِي وَالأُخْرَى فَكَانَ قَلْبِي لِلْمُسْلِمِينَ سَلِيماً.

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ.

المحتوى

الموضوع	الصفحة
٣١ ـ مصعب بن عمير رضي اللّٰه عنه	٣
٣٢ ـ كعب بن مالك رضي اللّٰه عنه	٣٥
٣٣ ـ خالد بن زيد الأنصاري رضي اللّٰه عنه	٨٧
٣٤ ـ سعد بن أبي وقاص رضي اللّٰه عنه	١٠١
٣٥ ـ الحمزة بن عبد المطلب رضي اللّٰه عنه	١٦٩
٣٦ ـ عاصم بن ثابت رضي اللّٰه عنه	٢٠١
٣٧ ـ عبد اللّٰه بن عبد اللّٰه رضي اللّٰه عنه	٢١٣
٣٨ ـ طلحة بن عبيد اللّٰه رضي اللّٰه عنه	٢٣٣
٣٩ ـ زيد بن سهل رضي اللّٰه عنه	٢٦٧
٤٠ ـ سماك بن خرشة رضي اللّٰه عنه	٢٨١

كتب للمؤلف

١ ـ بناة دولة الاسلام

المجموعة الأولى ١ ـ ١٠

١ ـ أبو سبرة بن أبي رهم.
٢ ـ أبو سلمة عبد الله المخزومي.
٣ ـ عبد الله بن جحش.
٤ ـ الزبير بن العوام.
٥ ـ زهير بن أبي أمية.
٦ ـ سهيل بن عمرو.
٧ ـ سعد بن معاذ.
٨ ـ عباد بن بشر.
٩ ـ محمد بن مسلمة.
١٠ ـ أسيد بن الحضير.

المجموعة الثانية ١١ ـ ٢٠

١١ ـ الفضل بن العباس.
١٢ ـ جعفر بن أبي طالب.
١٣ ـ عبد الله بن الزبير.
١٤ ـ عبد الله بن حذافة.
١٥ ـ المقداد بن عمرو.
١٦ ـ عقيل بن أبي طالب.
١٧ ـ صخر بن حرب.
١٨ ـ زيد بن حارثة.
١٩ ـ أبو العاص بن الربيع.
٢٠ ـ ثابت بن قيس.

المجموعة الثالثة ٢١ ـ ٣٠

٢١ ـ العباس بن عبد المطلب.
٢٢ ـ سعد بن الربيع.
٢٣ ـ عبادة بن الصامت.
٢٤ ـ عبد الله بن رواحة.
٢٥ ـ أبو حذيفة بن عتبة.
٢٦ ـ سالم مولى أبي حذيفة.
٢٧ ـ أبو عبيدة بن الجراح.
٢٨ ـ سعيد بن زيد.
٢٩ ـ سعد بن عبادة.
٣٠ ـ قيس بن سعد.

٢ـ مواطن الشعوب الاسلامية

في آسيا

١ ـ تركستان الغربية.
٢ ـ تركستان الشرقية.
٣ ـ قفقاسيا.
٤ ـ باكستان.
٥ ـ أندونيسيا.
٦ ـ إتحاد ماليزيا.
٧ ـ فطاني.
٨ ـ المسلمون في قبرص.
٩ ـ المسلمون في الفيليبين ودولة مورو.
١٠ ـ جزر المالديف.
١١ ـ أفغانستان.
١٢ ـ تركية.
١٣ ـ إيران.
١٤ ـ شبه جزيرة العرب.
- عسير
- نجد
- الحجاز
- البحرين والاحساء والكويت وقطر.
١٥ ـ المسلمون في الهند الصينية.
١٦ ـ خراسان.

في إفريقية

١ ـ غينيا.
٢ ـ نيجيريا.
٣ ـ الصومال.
٤ ـ موريتانيا.
٥ ـ أرتيريا والحبشة.
٦ ـ تشاد.
٧ ـ تانزانيا.
٨ ـ السنغال.
٩ ـ أوغندة.
١٠ ـ ليبيا.
١١ ـ السودان.
١٢ ـ جزائر القمر.
١٣ ـ المسلمون في بورندي.
١٤ ـ مالي.
١٥ ـ سيراليون.

---

٣ ـ كتب تاريخية

التاريخ الاسلامي

١ ـ قبل البعثة.
٢ ـ السيرة.
٣ ـ الخلفاء الراشدون.
٤ ـ العهد الأموي.
٥ ـ الدولة العباسية الجزء الأول.
٦ ـ الدولة العباسية الجزء الثاني.
٧ ـ العهد المملوكي.
٨ ـ العهد العثماني.
٩ ـ مفاهيم حول الحكم الإسلامي.
٢١ ـ المسلمون في الأمبراطورية الروسية.
٢٢ ـ الأقليات الإسلامية.

٤ ـ كتب جغرافية

- الكشوف الجغرافية.
- العالم الإسلامي.
- العالم الإسلامي (المنطقة العربية ـ بلاد الشام).
- العالم الإسلامي (المنطقة العربية ـ وادي النيل).
- سكان العالم الإسلامي.
- اقتصاديات العالم الإسلامي.
- جغرافية البيئات.

٥ ـ كتب ثقافية

- العالم الإسلامي ومحاولة السيطرة عليه.
- المسلمون تحت السيطرة الشيوعية.
- التوجيه والتقويم خلال التاريخ الإسلامي.
- المسلمون تحت السيطرة الرأسمالية.
- الجماعات البدائية.
- القرامطة.
- مع الهجرة إلى الحبشة.
- ميدان معركة اليرموك.